الدكتور محمد الأمين الخضري
أستاذ البلاغة والنقد
جامعة الأزهر

مِنْ أسرارِ حروفِ العطفِ في الذِكرِ الحكيمِ

« الفاء و ثم »



مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦

الدكتور محمد الأمين الخضري
أستاذ البلاغة والنقد
جامعة الأزهر

من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم

« الفاء ، ثم »

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية ـ عابدين
القاهرة تليفون: ٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦

اسم الكتاب: من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم: الفاء، ثم.
الطبعة: الثانية
تاريخ النشر: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م
اسم المؤلف: دكتور محمد الأمين الخضرى
الناشر: مكتبة وهبة
عنوان الناشر: ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة.
مقاس الكتاب: ١٧ × ٢٤سم
رقم الإيداع: ٩٢/١١٠١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

بين عبقرية اللغة وجلال الإعجاز

إن لغة يختارها الله تعالى لتكون وعاء لبيانه، ومستودع إعجازه، لابد أن يكون الله قد أمدها بخصائص ذاتية، تنفرد بها فى حروفها، ومفرداتها، وطرائق نظمها، حتى تتمكن من تحمل ما يبثُّه الله فيها من أسرار حكمته، وما يشيعه فيها من أنوار هديه، ولابد أن يكون أصحابها قد أودع الله فى سلائقهم وأذواقهم، ما يهبهم القدرة على استلهام خصائص لغتهم، واستغلال طاقاتها الهائلة، فى الإبانة عن مكنونات صدورهم من ناحية، والنفاذ إلى مقاصد المتكلمين من ناحية أخرى، وهو ما بلغ فيه العرب الذروة حين أنزل إليهم هذا الكتاب، قدرةً على التصرف فى فنون الكلام، وإحساسًا بقدر ما ينفذ إلى مسامعهم من بيان الأبيناء، حتى وصل بهم الحدُّ إلى تقديس الكلمة، وتعليق روائع إبداعاتهم بأستار الكعبة، وهى أعظم ما يمتلكونه من المقدسات، وحتى رأينا أحد الأعراب يخر ساجدًا حين سمع لأول مرة قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] قبل أن يسجد لمن أنزل هذا البيان، ولا أعرف أمة من الأمم تعبَّدت ببيانها كما تعبَّد العرب بفيض صدورهم، ولا طربت أمة بلحون لغتها، وأنغام حروفها، كما طرب العرب بلحون أشعارهم.

إن هذا الإحساس بجمال الكلمة، وقدسية الحكم عليها، هو الذى جعل العرب يمتنعون عن تزوير شهادتهم على القرآن، حين تحداهم أن يأتوا بمثله، وحين أمعن فى التحدى بأن يأتوا بسورة من مثله، فآثروا أن يوصموا بالعجز، ويجلل العار رؤوسهم، على أن يزوروا شهادتهم، ويقولوا فى القرآن غير ما يعتقدون، وكان

بمقدورهم -وهم الذين أُسند إليهم الحكم على المنزَل- أن يتمالؤوا على نص أو نصوص مما جادت به قرائحهم، فيحكموا بأنه يضارع القرآن أو يفوته، ولكنهم لم يفعلوا، ليظل جلال الكلمة وحده فى حياتهم مبرأً من الغش والتدليس، وهم الذين كذبوا على رسول الله، فوصفوه بالساحر تارة، والكاهن تارة ثانية، والشاعر تارة ثالثة، على يقينهم بأن واحداً من هذه الأوصاف إن صح إطلاقه على أى أحد من الناطقين بهذه اللغة، فلا يصح وصم رسول الله ﷺ به، وتلك آية تشهد بأن الله تعالى قد اختار لكتابه اللغة القادرة على الاتساع لفيض هديه، والقرائح القادرة على إبداع بيان رفيع يؤهله لأن يقاس به الكلام المعجز، فيظهر فوت الطاقة فى بيان الله، واختار الأذواق التى منحها الله القدرة على الموازنة بين أعظم ما جادت به أسلات البشر، وما تنزل من بيان نفخ الله فى حروفه وكلماته وجمله من روحه، فسرت فيه حياة تعدل فى تفردها نَفخَ الله فى التراب ليكون بشراً سوياً، ليظل القرآن آية تدل على أنه من عند الله، كما ظل آدم شاهداً بقدرة الله على نفخ الحياة فى الجمادات.

إن أكبر دليل على ما أوتيه هؤلاء الذين تنزل عليهم القرآن من حس فاق كل حس، وذوق فاق كل ذوق، مكنهم من إدراك الفروق بين بيان بلغ غاية ما يطيقه البشر، وبيان فات الطاقة، ووقفت دونه روائع الإبداع الإنسانى -إن أكبر دليل على ذلك- هو ما جرى عذبًا رائقًا فى وصف القرآن على لسان رجل لم يترك سبيلاً لحرب من تنزل عليه القرآن، سعيًا لإسقاط دعوته، وإسكات صوته، وهو الوليد بن المغيرة، الذى أوجز إعجاز القرآن فى عبارة أزعم أننى لم أقرأ مثلها فى الشهادة بإعجاز القرآن: (إن له لحلاوة، وإن عليه لطُلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته).

وما يلفت النظر فى عبارة الوليد هى الشهادة الصادقة بتفرد القرآن فى نظمه، وجمعه بين شدة التأثير الداخلى والجمال الذين يزين شكله الخارجى، والإقرار بأن كل بيان سوى بيان الله -مهما بلغ من التفوق- لا يتعدى موقعه من الأرض،

محكومًا بطاقة أصحابه من أهلها، ليظل القرآن فى سمائه، بعيدًا عن المجاراة والمداناة، وهو ما يفصح عنه بجلاء قوله: «وإنه ليعلو ولا يعلى» والتصريح بأن أى محاولة للاقتراب ببيان أرضى من سماء القرآن تعرضه للاحتراق بشهب القرآن، كما احترقت محاولات مسيلمة وأمثاله، ممن كانت أقوالهم التى حاكوا بها القرآن عارًا وخزيًا لا يزال يلاحقهم كلما قرأ مأثوراتهم القارئون، وهو ما حذر منه الوليد فى قوله: «وإنه ليحطم ما تحته» فتحاشاه العقلاء من أرباب البيان إبان إشراقة أنوار هذا الكتاب، وتلك شهادة بأن كل كلام هو دون كلام الله، وبعبارة الوليد «تحت كلام الله»، وأن هذه التحتية تلازم بيان الناس، وتقف بإبداعاتهم بعيدًا عن فضاء القرآن، إلى الحد الذى يضمن التحاجز التام بين ذوب ألسنة البشر، والوحى الذى أنزله الله على عبده ليكون دليلاً على أنه رسول الله إلى البشرية، وهى شهادة قاضية كذلك بأن العجز البشرى عن مداناة الكلام المنزل قائم إلى يوم القيامة، ضرورة أن الشاهد واحد من فصحاء القوم فى عصر تنزل القرآن، ولم ينازعه فى شهادته أحد ممن استمع إليه، وكلهم أصحاب علم ودراية بمنازع الكلام وطرائقه، وما تجلّى أو استتر من مقاصد أصحابه، فما كان لهؤلاء القوم علم أصح من علمهم بمطارح لسانهم، ووهج أفئدتهم، حتى روى عن الجاحظ قوله: (بعث الله محمدًا عليه الصلاة والسلام والعرب أكثر ما كانت شاعرًا وخطيبًا، وأحكم ما كانت لغة) وقوله: (ومعنا العلم أن ذلك لهم شاهد صدق من الديباجة الكريمة، والرونق العجيب، والسبك والنحت، الذى لا يستطيع أشعر الناس اليوم، ولا أرفعهم فى البيان أن يقول مثل ذلك إلا فى القليل واليسير.. البيان والتبيين ٣/ ٢٩).

فشهادة هؤلاء القوم هى الشهادة، وهى حجة على كل ناطق بالعربية ممن دونهم علمًا بفرائد اللغة وشواردها، ممن أتوا ويأتون بعدهم إلى يوم تجف فيه الأقلام وتخرس الألسنة، ودعك من تخرصات بعض المعاصرين الذين أصدروا دعاواهم بعد فساد اللسان، وانطفاء جذوة البيان، وسريان العجمة فى حروف العربية ولحونها، مثل قول أحد المعاصرين، وهو نعيم الحمصى فى أحد مقالاته

التي نشـرت في مجلة المجـمع العلمي بدمـشق: (ومما يدل -في رأيي- على أن الأدب الجـاهلي كان بمثابة تمهيد للعصـور الأدبية التي بعده أنه كان ينقصه فن أدبي كـان لايزال في الجاهليـة في بدء تكوينه، وهو النثـر الفني.. وأن أكـمل الفنون الأدبية الجاهلية وهو الشـعر لا يساوي على التحقيق شعر العـصر العباسي الأول، إذا قسناهما بمقـاييس فنية صحيحة. ولتخـلف العرب في فَنَّي الخطابة والنثر الفني كانت دهشتهم من بيان القرآن، وأسلوبه، دونها دهشة الأدباء العباسيين الفحول).

وأنا لا أسأله عن المقاييس الفنية الصحيحـة التي احتكم إليها في تفضيل شعر العصر العـباسي الأول على الشعر الجاهلي، لأنـه قول مرسل بلا دليل، ولأنني أعلم أن هذه المقاييس الفنيـة المزعومة التي توازن بين الشعـر الجاهلي، وتكشف عن خصائص بيان أصحابه، وتميز بينها وبين قيم الشعر العباسي وتقاليده ومناهج أصحـابه -مثل هذه المقـاييس- لم توجد بعـد في فكرنا النقدي، ولكنـني أحيل الباحث إلى ما نقلته آنفًا عن الجاحظ، وهو أحد أئمـة البيان في العصر العباسي الذي يزعم كـاتبنا أنه بزّ العصـر الجاهلي في شـعره ونثـره، ولا أظن أن كاتـبًا معاصرًا أقدر على تقويم نتاج العصـر العباسي من أصحابه، وما عهدنا أن يكون الغـائب أصـدق رؤية، وأبين حجـة من الشـاهد، ثم إن الدعـوى بأن اندهاش المخاطبين في عـصر المبعث، مرجـعه ضعف ما بين أيديهم من ضـروب البيان، أخطـر مـا وجـه إلى إعجاز القـرآن، ولا يَعْـدِلُه في خطـورة هذه الدعـوى إلا ما ذهب إليه «مرجليـوث» وأشياعه ممن قالوا بنحل الشعـر الجاهلي، وانتهوا إلى إسقاطه كله.

وإذا كان القرآن معجـزًا بنظمه كما انتهى إليه أئمة البيـان، فإن العُرَى الممسكة بنسيج الكلام تلعب دورًا كبيرًا في استقامة النظم وتلاحم أجزائه، ومن ثم كانت الروابط التي تصل بين مفردات الكلام وجـمله، والمنعوتة بحروف العطف، تمثل أحد الوجوه التي تلتـقي فيها عبقرية اللغـة وإعجاز القرآن، فعبقـرية اللغة تظهر جليـة في الربط بين أقدار الحـروف ودلالاتها، من حيـث إن الفاء العاطفـة تمثل صوتيًا مقطعًا قـصيرًا واحدًا، يستغرق نطقه زمنًا قصيرًا مخطوفًا، بخلاف «ثُمَّ»

المكونة من مقطعين: أحدهما متوسط مقفل، والثانى قصير، ونطقهما يستغرق زمنًا أطول، يضاعف من طوله هذا الإدغام الناتج من اجتماع الميمين الساكن أولهما، لذلك اختيرت الفاء القصيرة فى زمن نطقها، للدلالة على التعقيب، وهو سرعة توالى الأحداث، لتتناغم سرعة النطق بالحرف مع سرعة وقوع الحدث، وجُعلت «ثم» التى يطول زمن النطق بها دالة على التراخى، المؤذن بالبعد بين زمنى الحدثين. هذا إلى جانب أن الفاء وهى حرف مهموس يسمح بتسرب النفس، فى حين يحتبس النفس مع «ثم» المنتهية بحرفين مجهورين، ليوحى بطول الانتظار وثقله على النفس. تلك عبقرية اللغة فى الحرفين اللذين آثرنا الحديث عنهما من بين أدوات العطف. أما إعجاز النظم فى وضع هذين الحرفين موضعهما، فهو ما تكفل بتتبعه هذا الكتاب، باحثًا عن دقائق المعانى وخفى الأغراض، كاشفًا عن دلالات هذين الحرفين فى استعمالات القرآن الكريم، متقصيًا ما خفى من مواضعهما، واقفًا عند متشابه النظم، مما اتحدت ألفاظه وجمله، وخولف الربط بينها بالفاء تارة، وثُمّ تارة أخرى، مستعينًا فى الكشف عن الأغراض المختبئة فى فروق النظم بإيحاءات السياق، مثلما نجده فى قوله تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧، والنحل: ٣٦] وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١] فقد اتحد النظم فى الآيتين لفظًا ومعنى، وخولف بينهما فى حرفى العطف: «الفاء، وثم»، ولا يمكن أن تكون هذه المخالفة فى نظم القرآن إلا لغاية أرادها منزله، وهى إن خفيت على النظرة السريعة العجلى، فهى لا تخفى على من يُنعم النظر فى سياق الآيتين، ويستمع إلى همس الحروف والكلمات، وذلك ما حاولنا تتبعه فى مواقعه المختلفة من الذكر الحكيم.

لقد حاول الكتاب فى استجلاء أسرار الربط بهذين الحرفين فى نظم القرآن الكريم الوقوف عند حقيقة الحرف ومجازه، مبرزًا وجه البلاغة فى إيثار أحد

الحرفين على الآخر، وهو ما خلت منه كتب البلاغة، وعمرت به التفاسير التي عنيت بالكشف عن بلاغة القرآن، وفي مقدمتها تفسير الزمخشري، وكان لبيان القرآن الفضل في الوقوف على استعمالات الحروف في بيان الفحول من الشعراء، وهو ما لم يستطع شراح الشعر من قبلُ استكناه أسرارها، إلا بعد أن ألهمها الله المفسرين في تأملاتهم لدقائق النظم الكريم.

إن للحروف أثرًا بينًا في الكشف عن وجوه إعجاز النظم، وخاصة تلك الحروف التي تتعاور مواقعها فيما بينها، سواء أكانت حروف جر، -وقد أفردت لها كتابًا تحت عنوان «من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم»- أم كانت حروف عطف، كما سيجده القارئ في تعاور حرفي العطف «الفاء» و«ثم» مواقعهما في الكتاب المجيد. وقد سبق لإمام البلاغة الشيخ عبد القاهر الجرجاني التنبيه إلى مواقع هذه الحروف وتأمل أثرها الدلالي في نظم الكلام، وقطع بأن خصوصيات النظم التي يتفاوت بها كلام عن كلام حتى يصل التفاوت إلى حد الإعجاز، تقوم فيما تقوم على النظر (في الجمل التي تسرد، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع «الواو» من موضع «الفاء» وموضع «الفاء» من موضع «ثم»، وموضع «أو» من موضع «أم»... دلائل الإعجاز بتحقيق محمود شاكر ٨٢).

وقد وقف الإمام يستقرى الكلام الفاخر، والنمط العالي الشريف، الذي لا تجده إلا في شعر الفحول البزل، ثم المطبوعين الذين يلهمون القول إلهامًا، إلى أن قال في صفحتي ٨٩، ٩٠ من كتاب دلائل الإعجاز: (ثم إنك تحتاج إلى أن تستقرى عدة قصائد، بل أن تَفْلِيَ ديوانًا من الشعر، حتى تجمع منه عدة أبيات، وذلك ما كان مثل قول الأول؛ وتمثل به أبو بكر الصديق -رضوان الله عنه- حين أتاه كتاب خالد بالفتح في هزيمة الأعاجم:

تمنانا ليلقانا بقوم ... تخال بياض لأمِهِمُ السرابا
فقد لاقيتنا فرأيت حربا ... عوانا تمنع الشيخ الشرابا

انظر إلى موضع الفاء فى قوله: «فقد لاقيتنا فرأيت حربا».

ومثل قول العباس بن الأحنف:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا

انظر إلى موضع «الفاء» و«ثم» قبلها).

وهذه إشارة ألقاها شيخ البلاغة ومضى، لكنها كانت فتحًا كبيرًا لوقفات طويلة عند أمثال هذه الفاء من نظم القرآن، مما سمى بالفاء الفصيحة، وفاء المفاجأة، وحسب الشيخ أنه أبان عن ذوقه الرفيع فيما أشاعه هذان الحرفان «الفاء» و«ثم» فى مواقعهما من الأبيات التى استشهد بها، وألمح بذلك إلى دور الروابط، ووجوه الحسن التى أضفتها على بنية الكلام ودلالته، حتى كانت آية الآيات فى كلام المطبوعين الذين يلهمون القول إلهامًا، وهى لعمرى آية الإعجاز فى مواطنها من نظم القرآن الكريم، حين تَطْوى الفاء الأحداث وتضمر زمنها، وتفجأ المتلقى بما لم يكن قد أعد نفسه لتوقعه، أو تَمُطُّ الحدث، وتطيل زمن وقوعه لتحتبس معه الأنفاس، وتشتد وطأته على النفوس حين يقع العطف بـ«ثم»، مما سيجده القارئ جليًا فيما أوردناه من نماذج الكتاب المجيد، كما فى قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٧] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦] والفاء فى هاتين الآيتين أحدثت من المفاجأة والذهول ما يشهد بإعجاز النظم.

وهذا مثل آخر تكشف فيه «ثم» عما كان يعيشه المنافقون من التردد والحيرة والخوف من أن تلاحقهم عيون المؤمنين، وهم ينصرفون عن مجلس الرسول حين تُنزل عليه سورة من القرآن، تنبئهم بما فى قلوبهم، فيتسللون لواذا ويحتالون فى أن لا يشعر بهم أحد، فترسم «ثم» حركتهم البطيئة الحذرة. وتصور ملامحهم المرتعدة ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ [التوبة: ١٢٧] فماذا لو استبدل النظم الفاء بثم؟ لا ريب أن سلك النظم سوف

ينقطع ويتفرط عقده، وأن هذه المعاناة النفسية والحذر الشديد الذي رسمته «ثم» على وجوه القوم سوف يذهب بذهاب حرف التراخي.

إنني أزعم أن الكشف عن أسرار حرفي العطف «الفاء» و«ثم» في الكتاب المجيد ظل منثوراً في كتب المفسرين، لم يتجه أحد من قبل إلى نظم حباته، والسير بها نحو غايات تنتظمها، وتقارن بين ما اشتبه نظمه واختلفت أغراضه، حتى كان هذا الكتاب الذي حاول أن يقدم صورة متكاملة لمواقع الحرفين في الذكر الحكيم، ويحدد غاياتها، ويستنطق السياق للإبانة عما غاب من أسرارهما.

ولا زلنا بحاجة إلى دراسات تستقرى حروف العطف الأخرى وتكشف عن الفروق الدقيقة، والوجوه المعجزة في مواقعها من نظم القرآن، مثل الحروف التي أشار إليها عبد القاهر فيما سبق نقله عنه، وهي أو، وأم، وبل ولكن، كما أننا بحاجة إلى دراسات أخرى تتوخى رصد فروق النظم بين أدوات النفي، وكلها دراسات تتكامل لتجلي دلائل الإعجاز فيما أوحاه الله إلى رسوله ليكون دليلاً على صدق نبوته، ولتجدد الإيمان بأنه سيظل قائمًا بدعوة الله تعالى يتحدى الخلق بمبانيه ومعانيه، إلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وأخيراً فإنني إذ أقدم للقارئ الطبعة الثانية من هذا الكتاب، بعد نفاد الطبعة الأولى، أرجو من الله تعالى أن ينفع بما هداني الله إليه من أسرار كتابه، وأن يغفر لي زلات القلم، وجفوة الطبع، وعثرة الخاطر في لحظات الضعف البشري التي تتقاصر فيها الهمة عن بلوغ مراد الله تعالى، وأسأل الله أن لا يحرمني أجر المجتهدين المخطئين، حين تثقل بي قدماي عن بلوغ مرتبة المصيبين من المجتهدين.

الإمارات العربية

غرة شعبان ١٤١٤هـ

٢٥ أغسطس ٢٠٠٦م

دكتور

محمد الأمين الخضري

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الذى هيأ قلوب عباده لاستقبال فيض هداه، وألقى على بصائرهم من أنوار بيانه ما جلّى لهم حقائق تنزيله، وأفاض على عقولهم من حكمته ما اهتدوا به إلى خفىّ أسراره، ومسّ أذواقهم بعذب كلامه، فاستشرفت لطائفه وغرائبه، وأودع فى أسفارهم من إعجاز الفهم ما يشهد بإعجاز النظم.

وبعد

فإن هذا البحث امتداد لعمل بدأته منذ أربعة عشر عامًا، حين سجلت موضوع رسالتى لنيل درجة الدكتوراه، بعنوان: «**الواو وموقعها فى النظم القرآنى**»، وأسفرت نتائج البحث عن الدعوة إلى إعادة النظر فيما كتبه البلاغيون حول وجوه الربط بين الجمل فى مبحث الفصل والوصل، لعجزه عن استيعاب أسرار النظم القرآنى، وقصوره عن تفسير كثير من الشواهد التى امتلأت بها صفحات الرسالة، وخالفت ظاهر قواعدهم.

ودعوت إلى توسيع دائرة البحث فى أدوات الربط، لتشمل غير الواو من حروف العطف، وقلت ما نصه: (نبّهتْ هذه الرسالة إلى حاجة البحث البلاغى إلى تناول حروف العطف الأخرى بالدراسة، التى تكشف عن وجوه بلاغتها من خلال النظم القرآنى، وتلمس الفروق البلاغية بينها فى متشابهات القرآن الكريم، وهو ما نسأل الله أن يعيننا عليه فى مستقبل حياتنا).

وما كنت أحسب أن كل هذا الوقت سيمضى قبل إنجاز ما وعدت، لكن الله صرفنى إلى مباحث أخرى تتعلق بإعجاز كتابه. وها أنذا أعود -بتوفيق من الله-

إلى شفع دراسة الواو بدراسة الفاء وثم، وهما أكثر حروف العطف دورانًا فى الكتاب العزيز بعد الواو، وأثراها فى تنوع دلالاتهما بين الحقيقة والمجاز، وأشدها استحواذًا على جدل النحاة وأهل البيان.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، وأن يغفر لصاحبه زلة القدم، وقصور الفهم. سبحانك اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

غرة المحرم ١٤١٤هـ

٢١ يونية ١٩٩٣م

دكتور

محمد الأمين الخضرى

توطئة

إعجاز النظم وإعجاز الفهم

لعله من دلائل الإعجاز أن يفيض القرآن من ندى فصاحته على الدراسات التي تتناول نظمه ما يجعلها أكثر ثراء وخصوبة، وأرحب فهمًا، وأبين قولاً، ويشيع فيها من نور بيانه ما تبدو به أكثر ألقا، وأبعد رؤية، وأهدى سبيلاً.

وآية ذلك أن ترى بعض رجالات البيان، ممن جمعوا بين التأليف في علوم البلاغة وتفسير القرآن، يدوّنون في كتبهم من أصول الفن وقواعده ما يتجاوزونه، ويتسامون عليه حين تضيق أرديته عن استيعاب أسرار النظم الحكيم، حتى لتظن أنهم غير هؤلاء الذين أملوا تلك القواعد، وحبّروا تلك الأصول.

لاغرو أن يسمو بيان الرجال بسمو ما يتصدون له من البيان، ولا عجب أن يتسع القول في القرآن، لما ضاقت عنه كتب أهل البيان، ولا غرابة أن تندى الأذواق بنداه، وتحلّق الأفهام في سماء بلاغته، لتدرك من أسرار ما لا عهد لها بمثله في بلاغة أهل الأرض.

فماذا يصنع من دبّج رسوم الفصل والوصل في كتاب، إذا وجد في الذكر الحكيم ما يتحد لفظًا ومعنى، ويُخالف بينه بذكر العاطف وتركه، أو بعاطفين مختلفين؟

إنه لا مناص من أن يَثِبَ فوق رسومه ومناهجه، ويتسامى بفكره وذوقه لإدراك ما تعجز القواعد عن البوح بمكنون سره.

فأي قاعدة تتسع لمثل قوله تعالى على لسان قوم صالح يخاطبون نبيهم: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٣- ١٥٤] فتصل الجملتان بلا واصل لفظي. ثم يرجّع تلك المقالة قومُ شعيب في خطاب نبيهم

﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185) وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: 185، 186]. فيصلون بالواو ما وصله أولئك بغير واصل من اللفظ؟

وماذا يقول صاحب الصناعة حين يرى فى القرآن بيض الوجوه وسودها تتدابر يوم القيامة، وتتباعد نزلا ومنزلة، فتتحاجز بحرف الوصل فى قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (39) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: 38- 41] وتتمايز بغير حاجز فى قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (3) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (4) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (6) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (7) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (8) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾[الغاشية: 2- 9]؟

وما الذى جعل القرآن يفصل تارة، ويصل أخرى فيما تستغنى الجملتان فيه عن الرابط اللفظى لكمال الاتصال بينهما، فتراه يفصل التوكيد عن المؤكَّد فى قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا...﴾ [الطارق: 17] ويصلهما بالواو، فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ...﴾ [الحشر: 18] وبالفاء فى قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا...﴾ [القمر: 9]. ويصلهما بثم فى قوله: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ...﴾ [المدثر: 19، 20]؟

وما هذه الاختلافات بأدوات الوصل فيما اشتبه نظمه، بالواو والفاء حينا، كما فى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ [الأحقاف: 10] وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ...﴾ [فصلت: 52]؟

وبالفاء وثم حينًا آخر، كما فى قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ...﴾ [الكهف: 57] وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ...﴾ [السجدة: 22]؟

إن أسلات أهل الصناعة كثيراً ما تتجمد، وتخذلهم القواعد في بيان وجه الاختلاف، فيهرعون إلى أرباب البيان من المفسرين، يستمدونهم ما أفاض الله عليهم من أنوار كتابه، وألقى على أذواقهم من عذب بيانه، فقرّب لهم ما اغترب، وكشف لهم ما احتجب، كما تراه في مبحث الإطناب، حين غلب أهلَ المعاني على قواعدهم عطفُ المكرر، لمخالفته ما تقرر عندهم من فصل التوكيد عن المؤكَّد، فأسرعوا إلى جار الله الزمخشري، يستهدونه وجهًا لهذا العطف، وعادوا يرددون ما قال.

إنه من السهل أن يخطأ مبدع يخرج على أصول الفن، فإذا ما كان الخروج في الكتاب المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تسامت الأفهام والأذواق، بحثًا عن أسرار العدول عن الظاهر، فأتت بما كانت تعجز عن الإتيان بمثله في فهم كلام فرسان البيان، وكأن هناك إبداعًا في الفهم، ومستوى من الإدراك والتذوق لبلاغة القرآن، لا تجد مثله في فهم كلام البشر.

هل أكون قد غاليت إذا قلت: إن هناك إعجازًا في الفهم يرتبط بإعجاز النظم، وإن الله ليهيىء العقول والقلوب لاستقبال فيض أسراره، بما يجعلها غير التي تقف على أسرار الإبداع في بيان الناس؟ إن الله تعالى أودع كتابه من سعة المعاني وتنوع المقاصد، جليِّها وخفيِّها، ما يتيح لكل زمن أن يقتبس من أنواره ما يضيىء جوانب عصره، ثم يبقى فيض إشعاعه حيًا يشرق في كل عصر بفُهوم متجددة، تملأ أقطار النفوس، وتبعث فيها اليقين بأن عطاء هذا الكتاب المعجز لا ينفد، وأن حروفه وكلماته وجمله تنفخ في العقول والقلوب من روح الله السارية فيها ما يوسع ضيِّقها، ويعمق إدراكها، ويفتح لها من مغالق الفهم ما يقربها من استلهام مراده، وذلك ضرب آخر من الإعجاز يُبقي إعجاز النظم قائمًا إلى يوم القيامة، يستنهض همم أهل البيان للبحث فيما استودعه منزِّله من خفي الأسرار ولطائف الإشارات. وإلا فقل لي ما السِّر في غياب إدراك التجوز في حرفي التعقيب والتراخي، وهو أسمى مواقع الحرفين، وأكثرها ثراء،

وأحفلها بأسرار البيان، حتى كان الزمخشرى هو الذى افتضّ عذرته، واهتدى إليه فى الذكر الحكيم، ليسرى منه إلى ما كان مجهولاً فى كلام المبدعين؟ كأن القرآن يوجه إلى إعادة اكتشاف ضروب من المجاز فى كلام الفصحاء، لا تقع عليها عين قبل أن تستجليها البصائر فى الكتاب العزيز.

وإذا أردت دليلاً على ما أقول، فاقرأ ما كتبه المرزوقى فى شرح بيت الحماسة:

لا يكشف الغمّاءَ إلا ابنُ حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها

حيث أسرع إلى سلب «ثم» دلالتها الأصيلة على المهلة، حين لم يبد له وجه للتراخى بين زيارة الغمرات ورؤيتها.

وقارنه بما قاله الزمخشرى فى هذا البيت، حين عرض لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فخلع عليه من جلال الإعجاز فى فهم النظم الحكيم ما كشف عن وجه المجاز فيه، وأراكه لونًا من الإبداع، بعد أن حسبتَه فى كلام المرزوقى ضربًا من القصور، وهو ما سيجيئك فى موقعه عند الحديث عن إثراء الدراسات القرآنية لمعانى حرف التراخى.

فإذا كانت مناهج البلاغة قد ضاقت عن البحث فى حروف العطف سوى الواو، بحجة أنها وحدها بحاجة إلى دراسة الربط بها، لافتقارها إلى معنى زائد يوجب ذكرها أو تركها، كما هو شأن غيرها من أدوات الربط، فإن كتاب الله قد وسع هذه الحروف، فأثرى دلالاتها، وهيأ لها نوافذ للدراسة، بعد أن أوصدت أمامها الأبواب فى مباحث البلاغيين.

على أن هناك نافذة لدراسة حروف العطف، وإبراز ما بينها من فروق فى النظم، كانت على وشك أن تفتح فى المباحث البلاغية، لكنَّ ما نفذ منها ظلَّ شعاعًا خافتًا لم يكتب له أن يمتدَّ ويتسع مداه، وذلك حين التقط السكاكى من كلام النحاة فى خصائص العطف ما يهيئ لدراسة فى فروق المعانى وأغراض الكلام. فقال فى بحث المسند إليه: (وأما الحالة التى تقتضى العطف، فهى إذا

كـان المراد تفصـيل المسند إليـه مع اختصار، كقولك: جاء زيـد وعمرو وخالد، أو تفصيل المسند مع اختصار، كقولك: جـاء زيد فعمرو فخالد، أو ثم عمرو ثم خالد، أو جاء القوم حتى خالد)(١).

فـحـدَّد بدقة فـرق مـا بين الواو وسـائر حـروف العطف فى أغـراض النظم ودواعيه، إذ أنها بدلالـتها على الجمع المطلق تأتى لتفصـيل المسند إليه، فى حين يكون الغرض من باقى حروف العطف هو تفصيل المسند، لما تختص به من معان زائدة على الجمع هى الغرض من الكلام ومحط الفـائدة فيه، لذلك أنت تستطيع أن تسـتبدل جـاءنى رجلان بقولك: جـاءنى زيد وعمـرو، دون أن يفوتك شىء سوى التـفصيل، لكنك لا تستطـيع ذلك في قولك جـاءنى زيد فعـمرو، لأن الغرض ليس إثبات المجىء، وإنما هو مجىء على هيئة خاصة، يعقب فيها الثانى بلا تراخ، وكأن المخاطب يـعلم مجيئهـما ويعين الجائى، ويريد معـرفة من سبق بالمجىء، وهل كان بين المجيئين فاصل زمنى أم لا؟

هذا هو الاستثمار الحقيقى لمعانى النحو، وتوظيفها للكشف عن دواعي الكلام وأغراضه، وما بين أنساقه من فروق فى الدلالات. وهو ما لم يفت أهل المعانى أن ينبهوا إليه، وإن جاء حـديثهم مقتضبًا خاطفًا. يقول العـصام مفيدًا من كلام شيخ البلاغة في تحديد فروق المعانى بين حروف العطف: (ذكر الشيخ ما محصله أنه ما من كلام فيه أمر زائد على مـجرد إثبات شىء لشىء أو نفيه عنه، إلا وهو الغرض الحـاصل والمقصود من الكلام، وهذا مـا لا سبيل إلى الشك فيـه، ففى نحو: جاءنى زيد فعمرو، يكون الغرض إثـبات مجىء عمرو بعد زيد بلا مهلة، كأنه معلوم أن الجائى زيد وعمرو، والجـهل إنما تعلق بالترتيب والتعقيب، فيكون العطف لإفادة تفصيل المسند لاغير)(٢).

لكن هذه الومـضة لم تـتسع دائرة ضـوئها، وظـلت هي كل نصيب حـروف العطف من دراسة البلاغيين، عدا الواو فى باب الفصل والوصل، وما ذكروه من

---

(١) مفتاح العلوم ١٠٧.

(٢) الأطول ١/ ٢٢٣.

عطف المكرر فى باب الإطناب، أو جاء عرضًا فى باب الحذف مما أسموه الفاء الفصيحة، وكله تحدر إليهم من بيان المفسرين، وخاصة جار الله الزمخشرى.

وحين نعود إلى النظم الحكيم نجد من فاءاته عجبًا، ومن الدراسة فى معانيها وأسرارها فهومًا لا نجدها فى دراسات دارت حول نص آخر. وكأن القرآن ينفخ فى عقل الباحث عن أسراره من روح إعجازه، وهدى أنواره ما يرتفع بمستوى إدراكه إلى سماء نظمه، فنجد الفاء تلبس من أكسية المجاز ما تتنامى به معانيها، وتتكاثر إشاراتها بما تقصر عنه فى حقيقتها، فتُضمر فى أحشائها صفحة الزمن حينًا، وتمطُّها وتمطلها حينًا آخر، وتنشر ألوانًا من الترتيب بين الألفاظ والمعانى غير ما عهد فيها، وتقلب أوضاع الكلم لتعكس لك انقلاب الأوضاع فى الواقع، واختلال الفكر والسلوك.

وتتأمل حرف التراخى فى الذكر الحكيم، فتقع لأول مرة على ضروب من المجاز، تستعار فيها أردية الزمن، لتُباعد بين المعانى، وتفاضل بين المنازل، وتبرز التناقض بين المقدمات والنتائج، وتضفى على المعانى من حركة الزمن ما يجعلها أقدر على نقل حركات الفكر ونبضات الشعور.

وإنك لتعجب لهذه اللغة التى اختارها الله وعاء لكتابه، وكيف توائم بين الألفاظ ودلالاتها فى إحكام يشهد بأن الله أسبغ عليها ما يؤهلها لاستيعاب أسرار الإعجاز فى القرآن المجيد. والدليل على ذلك أنها اختارت اللفظ الأقصر صوتًا، والأسرع نطقًا ليدل على سرعة تعاقب الأحداث، كما هو شأن الفاء، المكونة من حرف واحد، يمرّ بظاهر الشفة همسًا، وكأن ما عبّر عنه من الأحداث يمرّ بسرعة صوته. ثم اختارت اللفظ المطول نطقًا، بما ضمه من حروف ثلاثة، وما صاحبه من تضعيف أثقل حركته على اللسان، ليدل على بطء حركة الأحداث، وتثاقل خطوات الزمن، إنها بحق لغة شاعرة كما أسماها الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد. وهى حقيقة بأن تكون لغة الكتاب المعجز.

وإذا كان حرفا التعقيب والمهلة يمثلان حركة الزمن، ويجسدان خطواته فى بطئها وإسراعها، فإن مقياس الزمن فى لغتنا الشاعرة إحساس قبل أن يكون

حركة عقارب. وخفقاتُ شعور قبل أن يكون دقات ساعة، فكم يقصُر زمن في عين هو طويل في عين سواها!! وكم يضمر الزمن في لحظات الأنس والسعادة، ويتمطّى في ساعات الألم والشدائد، ولحظات الترقب والانتظار!!

أترى الأيام والليالي قد طالت وقصرت حقيقة على النحو الذي أتاح لشاعر أن يقول:

في ليل صُول تناهى العرض والطول ... كأنما ليله بالحشر موصول

ولآخر أن يقول:

ويوم كإبهام القطاة محبب ... إليّ صباه غالب لي باطله

أم أنه فيض إحساس عكسه كل منهما على وجه الزمن؟!

لقد كان العربي غاية في الصدق حين ينقل إلينا إحساسه بالزمن، فلا يطلق الليل والنهار، وإنما يقيدهما بما يلقى في نفسك أنه يعبر عن إحساسه لا عن حقيقة الزمن، كما تراه في إضافة الليل إلى المكان في البيت الأول، وكأن لهذه المدينة ليل خاص ليس لسواها من المدائن. وفي البيت الثاني جاء «محبب إلى» قيدًا لليوم، ليشعرك بأن حبه هو الذي أضمر الزمن، وقصر لحظاته، وهكذا تجد امرأ القيس حين يستطيل الليل يضيفه إلى نفسه:

تطاول ليلك بالإثمد ... وبات الخليُّ ولم ترقد

فأراك ليله طويلاً بطيء الخطا، يقبض على أنفاسه، وهو غير ليل الخالي المستغرق في نومه. فكانت إضافة الليل إلى المخاطب، إشارة إلى أنه ينقل إليك إحساسه، ولا يعبر عن حقيقة عقارب الساعة.

إن هناك فرقًا بين التعبير عن حقيقة الزمن، المتمثل في المعاني الوضعية، للفاء وثم، وبين نقل الإحساس بالزمن حين يكتسي معه الحرفان رداء المجاز، فيضمر فيهما الزمن أو يتمدد.

ألا ترى كيف عبّر القرآن عن حقيقة الزمن في قصة أهل الكهف، فجاء حرف المهلة ليومئ إلى ثلاثمائة سنة أو تزيد في قوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ

سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١١، ١٢]

ثم ترى الزمن الطويل الذى جسّده حرف المهلة بحقيقة التراخى فيه ضمر وانكمش فى تعبير أهل الكهف عن إحساسهم ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ...﴾ [الكهف:١٩] فصدقوا فيما نقلوه من إحساسهم بالزمن، وإن خالف ذلك حقيقته.

لقد كانت لفتة ذكية تلك التى أومأ بها صاحب الفرائد إلى اعتبارات تختلف معها نظرات المتكلمين إلى الزمن، حين قال فى عبارة دقيقة كاشفة: (ثم إنه يُستقصر الزمان بين شيئين تارة لاعتبار مناسب، فيؤتى بالفاء، ويستطال ذلك الزمان بعينه بين ذينك الشيئين أخرى، لاعتبار آخر، فيؤتى بثم)(١).

فالزمان الواحد يُرى طويلاً باعتبار، وقصيراً باعتبار آخر، وما ذلك إلا لأنه فيض إحساس تجسّده الكلمات فى بعد حسى، وتعكسه على مرآة الزمن.

لا عجب إذًا أن يكون هذان الحرفان بحاجة إلى لون من الدراسة، تبحث عن أسرار الحرف فيما فارق فيه حقيقته، وتكشف عن أغراض النظم فيما يتقارض فيه الحرفان مواقعهما، مثلما تجده فى قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: ٤٥] وقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ [الحديد: ٢٠] لتكشف عن دواعى المغايرة بالفاء وثم، فيما يبدو شبيهًا بالموضع الواحد.

لقد كان ابن الأثير على وشك أن يقدم لنا النموذج لهذه الدراسة المقارنة فى بحثه الذى أفرده للحروف الجارة والعاطفة، حين أتاح له منهجه ما لم يُتَحْ فى مناهج الآخرين. فبعد أن أبان فروق المعانى بين حروف العطف، وإعجاز القرآن

(١) الفرائد فى شرح الفوائد ٢٤.

فى وضع الحرف موضعه، معتمداً على المعانى الحقيقية للحروف، توقف أمام مشتبه النظم، مما اختلف فيه العاطف، ليبين سر المخالفة، ولكن يد البلى طوت عنا محاولته، ولم تبق لنا غير اعتراض ضاع جوابه. قال ابن الأثير، وهو يعرض لقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤]، (فإن قيل: إنه قد عطف المضغة على العلقة فى هذه الآية بالفاء، وفى أخرى بثم، وهى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ [الحج: ٥] فالجواب عن ذلك..)[١] وهنا طمست أصابع الزمن هذا الجواب ولم يعثر محققا الكتاب فى أصول المخطوطة على أثر لهذا الجواب، الذى كنا نتمنى أن نراه بذوق ابن الأثير. كما لم نجد عند صاحب الطراز -وهو الذى اقتفى أثره واستمد منه فيما عرض له من البحث فى حروف العطف- ظلاً لهذا الجواب.

ولعل هذا أحد الأسباب التى دفعتنى إلى استكمال ما بدأه ابن الأثير، على أن يكون الهدف هو رصد ما خالف الظاهر من الحرفين فى مواقعهما من الذكر الحكيم، والبحث عن وجوه البيان المستورة وراء هذه المخالفة، سواء فيما فارق الحرف دلالته الوضعية، أم اقترض موقعًا لسواه، مستهديًا بآثار المفسرين من رجالات البيان، واقفًا على ما دوّنه النحاة واللغويون فى معانى الحروف، ملتفتًا إلى إشارات أهل المعانى.

وآمل أن يجد الباحثون فى استعارة الحروف من هذه الدراسة ما يوسع مجال بحثهم، ويتجاوزون به حروف الجر التى غالبًا ما تستأثر بالحديث كله عن استعارة الحروف، فلربما يدفع هذا الامتداد بالدراسة إلى إعادة النظر فى فهم آراء الرجال، على ضوء نظراتهم فى استعارة الفاء وثم من حروف العطف.

---

(١) المثل السائر ٢/ ٢٣١.

كمـا أن الحديث عن قرينة المجاز اللغـوى بحاجة إلى الوقـوف على نصوص القوم فيما صرحوا فيه باحتمـال الحقيقة والمجاز فى حرف التراخى، وما إذا كان يستدعى النظر فيما استقر لدى أهل البيان من أن المجاز ملزوم قرينة معاندة لإرادة الحقيقة، بعد أن نرى من يجيـز الجمع بين التراخى الحقيقى والمجازى فى الموضع الواحد.

إن إخـراج الفاء وثم من الدراسـة فى باب الفـصل والوصل، اعـتمـاداً على مالهما من خصوصيات زائدة عن مطلق الجمع، يتـغاضى عن أكثر مواقعهما ثراء فيما خرجتا فيه عن معانيهما الوضعية. كما أنه ليس هناك مبرر لإهمال دراستهما فى استعارة الحروف، أو فى مبحث التقـديم والتأخير للكشف عن أسرار مخالفة الظاهر فى الترتيب بين المتعاطفات.

فهل آن لنا أن نعـود إلى منهج ابن الأثير فى إفـراد مبـحث لحروف العطف، على ألا نقف عند معانيهـا الوضعية كما وقف، بل نتجاوزها إلى مـا فارقت فيه حقـائقـها، وخرجـت عن ظاهـر مـا وضـع لها، أو تعـاورت فيـه مواقعها؟ هذا ما نؤمّله.

الفصل الأول

مواقع الفاء وأسرارها

عكس الظاهر في الترتيب

قال سيبويه في معرض التمييز بين الواو والفاء: «والفاء وهي تضم الشيء إلى الشيء، كما فعلت الواو، غير أنها تجعل ذلك متسقًا بعضه في إثر بعض، وذلك قولك: مررت بعمرو فزيد فخالد، وسقط المطر بمكان كذا وكذا، فمكان كذا وكذا، وإنما يقرُو أحدَهما بعد الآخر» (١).

وقال السيرافي في شرح أبيات سيبويه: «الفاء التي للعطف من شأنها أن يكون المعنى الذي اشترك فيه المعطوف والمعطوف عليه حاصلا للمعطوف بعد حصوله للمعطوف عليه، بلا مهلة فصل، ويكون حصوله للثاني عقيب حصوله للأول، نحو قولك: زيد آتيك فمحدثك، أي يحصل الحديث من قِبَله بعد إتيانه بلا فصل، ولا يجوز أن يكون الحديث الذي أخبرت به عنه حصل قبل الإتيان، ولا في الحال التي حصل فيها الإتيان، وإذا أردت أن تخبر عن شخص من الأشخاص بخبرين، هما حاصلان له في حال واحدة، لم يجز أن تعطف أحدهما على الآخر بالفاء، لأنهما حصلا في زمان واحد، والفاء توجب أن زمان أحدهما بعد زمان الآخر، فإن أدخلت الفاء فسد معنى الكلام» (٢).

غير أن القرآن في كثير من نصوصه خالف ظاهر ما أوجبه النحاة من تقدم المعطوف عليه في الوجود، فوقعت فيه الفاء عاطفة لما هو متقدم على المعطوف عليه حينا، ولما هو واقع معه في آن واحد حينا آخر، فاضطر الكوفيون إلى القول بأن «الترتيب لا يلزم فيها، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: ٤]. قالوا: فالبأس في الوجود واقع قبل الإهلاك، وهو في الآية مؤخر عنه» (٣).

---

(١) الكتاب ٤ / ٢١٧

(٢) شرح أبيات سيبويه ١/ ١٠٠

(٣) وصف المباني ٤٤٠.

أما البصريون الذين يرون الترتيب معنى لا يتخلّف فى الفاء، فإنهم يؤولون ذلك بأحد وجهين: إما بالتأول في الفعل على سبيل التجوز بالمسبب عن السبب، وإما بالتأول فى الترتيب، وجعله ترتيبا لفظيا، أطلقوا عليه الترتيب فى الإخبار.

وبالرجوع إلى ما قاله الفراء -وهو إمام الكوفيين- نجده يذكر فى الآية عدة تأويلات يفسر بها وجه المخالفة، وكأنه يقرّ بأن الترتيب هو الأصل فى العطف بالفاء، وأن العدول عنه يحتاج إلى بيان السّر فيه «يقال: إنما أتاها البأس من قَبْل الإهلاك، فكيف تقدم الهلاك؟ قلت: لأن الهلاك والبأس يقعان معا، كما تقول: أعطيتنى فأحسنت، فلم يكن الإحسان بعد الإعطاء ولا قبله، إنما وقعا معا، فاستجيز ذلك، وإن شئت كان المعنى: وكم من قرية أهلكناها، فكان مجيء البأس قبل الإهلاك، فأضمرت كان. وإنما جاز ذلك على شبيه بهذا المعنى، ولا يكون فى الشروط التى خلفتها بمقدم معروف أن يقدم المؤخر أو يؤخر المقدم، مثل قولك: ضربته فبكى، وأعطيته فاستغنى، إلا أن تدع الحروف فى مواضعها. وقوله: أهلكناها فجاءها قد يكونان خبرا بالواو: أهلكناها وجاءها البأس بياتا»(١).

فى تساؤل الفراء وجوابه عليه، دليل على أن الترتيب هو الأصل، وإلا فما كان بحاجة إلى التأول، ثم إنه يعترف بأن للحروف خصائص، وللعطف بها شروطا توجب ألا يقدم المؤخر فى مثل قولك: ضربته فبكى، وأعطيته فاستغنى، وهو حين يقول أخيرا قد يكونان خبرا بالواو، فإنه لو سلم بصحة وقوع الواو موقعها فإن بابا ينفتح أمام الباحثين فى أسرار النظم، للكشف عن سر إيثار الفاء على الواو فى مثل هذه المواضع.

والوجه الأول فيما ذهب إليه الفراء قال الطبرى بمثله فى أكثر من موضع. ففى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٧].

---

(١) معانى القرآن ١/ ٣٧١

قال أبو جعفر: «وإذا كان الأمر فى قوله جل ثناؤه: «وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون» هو ما وصفنا من أن حال أمره الشيء بالوجود حالُ وجود المأمور بالوجود، فبيِّن بذلك أن الذى هو أولى بقوله: . «فيكونُ» الرفع على العطف على قوله «يقول»، لأن القول والكون حالهما واحد، وهو نظير قول القائل: «تاب فلان فاهتدى» و«اهتدى فلان فتاب»، لأنه لا يكون تائبا إلا وهو مهتد، ولا مهتديا إلا وهو تائب، فكذلك لا يكون أن يكون الله آمرا شيئا بالوجود إلا وهو موجود، ولا موجود إلا وهو آمره بالوجود»[1].

لقد استلهم الطبرى أسرار قدرة الله تعالى، المُسَاوقة لإرادته فى إيجاد الأشياء، وتكوّنها حال إرادة الله لها أن تكون، لكنه لم يكشف عن دور الفاء فى سرعة استجابة الموجودات للأمر الإلهى، وإبراز طاعتها للأمر العظيم، وكأن وجودها ذاته إذعان لأمر موجدها، على ما صوّره قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. حيث دلتا بوجودهما على الإذعان لخالقهما.

إن الزمن يتلاشى فى أفعال القادر الحكيم، فلا يتصور أن يتخلل الزمن بين أمر القادر وفعله، حتى نبحث عن ترتيب وجودى فى دلالة الفاء، وإنما هو ترتيب ذهنى، يتيح للمخاطب أن يتصور ترتب الموجود على إرادة الموجد، وليس ترتيبا خارجيا يقع فيه المكوَّن بعد أمره أن يكون. وتدل معه الفاء على الطواعية المطلقة والمسابقة إلى الانصياع لأمره. وهو نوع من الترتيب نبَّه إليه الجونفورى فى عبارات يُعَضُّ على مثلها بالنواجذ. قال رحمه الله: «ويجب أن تَنَبَّه أولا، لأن الترتيب قد يكون خارجيا، نحو: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ [الذاريات: ٢٦- ٢٧]. و ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: ٣٤] وقد لا يكون كذلك، فإما أن يكون بحسب الحكم القاطع من العقل، كما بين العلة والمعلول، وإن كانا مقارنين فى الوجود فى الخارج، نحو:

---

(١) تفسير الطبرى ٢/ ٥٤٩.

﴿أن يقول له كن فيكون﴾ [يس: ٨٢]. أو بحسب اعتبار مناسب بين الأمرين، إما بلحاظ ذاتهما، أو وجودهما في الخارج. كما بين الأدنى والأعلى، والأيسر والأصعب، أو باعتبار حصولهما في الذهن، أو استحقاقهما الذكر في اللفظ بين المجمل والمفصّل.(١)

في هذه الاعتبارات التي ذكرها الجونفوري تكمن أسرار النظم، وبها نتجاوز أقوال النحاة إلى إشارات أهل المعاني، نَعْبُر حدود الزمن، لننفذ إلى أعماق المتكلم، ونصغي إلى ما يهمس به من أغراض، ونَسْبُر أغوار المخاطب، لنرقب حركة فكره في مواكبته لما يلقى عليه، وكيف تترتب المعاني في ذهنه، على النحو الذي يربط فيه بين العلل ومعلولاتها، والمقدمات ونتائجها، فيقدم له المتكلم العلة على معلولها حينا، والمعلولَ على علته حينا آخر، طبقا لتشوُّفه وترقّبه، ويقدّم له المجمل على المفصل، لينتقل من النظرة الكلية إلى النظرة الجزئية الفاحصة، ويفاجئه بالنتيجة حينا ثالثا قبل ذكر مقدماتها، لتكون بمثابة الصدمة التي تنبه مراكز الإحساس عنده، فيتلقى الخبر بما يجب أن يتناسب مع خطره وأهميته. ثم ننظر إلى حال الخبر في ذاته، حيث تترتب المعاني وفقا لوجودها الخارجي تارة، ولأهميتها في سياقها تارة أخرى، وكل ذلك تُمليه دواعي الأحوال، وأغراض السياق، وذلك هو صميم البحث البلاغي، وبه ننطلق من المعاني الوضعية التي قررها النحاة لهذا الحرف وغيره، إلى معان أخرى مجازية هي في كتاب الله الأثرى والأدل على أسرار إعجازه.

وإذا كنا نسلم بأن الصورة التعبيرية ترجمة للحركة الذهنية والنفسية، تقوم الألفاظ فيها بدور الناقل لسبحات الفكر وخطرات النفس، على هيئة تتابعها في نفس المنشىء وترتُّب أغراضه، أو على الهيئة التي يراد للمتلقي أن يتصورها عليها، فإن الفاء تؤدي دورها في ترتيب المعاني طبقا لقصد المتكلم، أو مراعاة لحال مخاطبه، وحركة فكره في تصوره للمعاني وربطه بينها.

---

(١) الفرائد في شرح الفوائد ٢٤.

وللسهيلي عبارة جامعة هي أصل من أصول النقد، وأحرى بأن تتصدر كل حديث عن ترتيب الألفاظ والمعاني، قال فيها: «ما تقدم من الكلام فتقديمه في اللسان على حسب تقديم المعاني في الجنان، والمعاني تتقدم بأحد خمسة أشياء: إما بالزمان، وإما بالطبع، وإما بالرتبة، وإما بالسبب، وإما بالفضل والكمال، فإذا سبق من المعاني إلى الخلد والفكر، بأحد هذه الأسباب الخمسة، أو بأكثرها، سبق اللفظ الدال على ذلك المعنى السابق، وكان ترتيب الألفاظ بحسب ذلك»(١).

وبالرجوع إلى آية الأعراف فإننا يجب أن نسلم بأن تقديم الإهلاك على مجيء البأس خروج عن الظاهر في الترتيب، وهو ما قرره ابن عطية بقوله: (وقوله «فجاءها» يقتضي ظاهره أن المجيء بعد الإهلاك. وذلك مستحيل، فلم يبق إلا أن يعدل عن ظاهر هذا التعقيب، فقيل: الفاء قد تجيء بمنزلة الواو، ولا تعطى رتبة. قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف، وقيل: عبَّر عن إرادة الإهلاك بالإهلاك، قال مكي في المشكل: مثل قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ﴾ [النحل: ٩٨]. قال القاضي أبو محمد: وهذا يحتج به في تأويل من قال: الفاء في هذه الآية لتعقيب القول. وقيل: المعنى أهلكناها بالخذلان وقلة التوفيق، فجاءها بأسنا بعد ذلك)(٢).

بعد استسقاط الوجه الأول الذي يلغي الفروق بين معاني الحروف، ويُسَوِّي بين الفاء والواو في الدلالة، يبقى مما ذكره ابن عطية ثلاثة أوجه، وجهان يعودان إلى التأول في الفعل، ووجه يتأول في معنى الترتيب.

ولست أرى في تأويل الإهلاك بالإرادة إلا محاولة لتصحيح معنى الترتيب الوجودي في الفاء، لأن إرادة الفعل من الله تنجيز له، فإذا تعلقت إرادة الله بالشيء على سبيل الإيجاد، وقع مساوقا للإرادة، متزامنا معها دون تأخير وقرْنُ إرادة الله التنجيزية بإرادة العبد السابقة لفعله، على النحو الذي تُضَمُّ فيه هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فيه سهو كبير، لأنه إذا

(١) نتائج الفكر ٢٦٧. (٢) المحرر الوجيز ٧ / ٨.

صح أن تؤول القراءة بإرادتها، لتقع الاستعاذة مترتبة عليها، مسبوقة بها، فإن ذلك لا يصح في إرادة الله تعالى التي يصاحبها تحقيق المراد دون تأخير. وقد ردّ بعض المحققين هذا الوجه فيما نقله الشهاب: «حيث قال: فيه إشكال أصولي، وهو أن الإرادة إذا كانت باعتبار تعلقها التنجيزي، فمجيء البأس مقارن لها، لا متعقب لها وبعدها، وإن لم يُرَدْ ذلك فهي قديمة، فإن كان البأس يعقبها لزم قدم العالم، فإن تأخر عنها لزم أن يعطف بثم» (١).

ثم إن نكتة التجوز بالمسبب عن السبب، كما صرحوا بها في قوله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾ وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق﴾ [المائدة: ٦]. هي الحث على المبادرة بالقراءة والقيام عند العزم عليهما، حتى لا ينفك الفعل عن الإرادة(٢)، وهي لا تصح في الآية. والوجه الثاني من التأول في الفعل هو تفسير الإهلاك بالخذلان وعدم التوفيق، وهو تفسير اعتزالي لا يعتدّ بمثله أهل البيان.

وخير ما قيل في تأول الفعل ما ذهب إليه الشهاب، «فالصواب أن يقال: معناه خلقنا في أهلها الفسق والمخالفة»(٣) لأنه يتجاوب مع قوله تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾ [الإسراء: ١٦]. فإطلاق المسبّب وإرادة السبب، تعبيرا بالإهلاك عن الفسق، فيه تحذير شديد من الوقوع في المعاصي، وإيحاء بقوة العلاقة بين المعصية والهلكة، وشدة الارتباط والتلازم بينهما.

أما التأوّل في معنى الترتيب بما أسمَوه الترتيب اللفظي، أو الإخباري، فأحسب أنه ضرب من التجوز، يُشَبَّه فيه الترتّب بين الألفاظ في الذكر، بالترتب بين المعاني في الوقوع، وتستعار له الفاء، لتدل على تقدم الأول في المنزلة، أو علو الثاني في الرتبة. والآية صالحة لكليهما، فيكون تقديم الهلاك لأهميته،

---

(١) حاشية الشهاب ٤/ ١٤٩.

(٢) يراجع تفسير أبي السعود ٥/ ١٣٩، وروح المعاني ٦/ ٦٨

(٣) حاشية الشهاب ٤/ ١٤٩.

والتنبيه من أول الأمر على أن إرسال العذاب لم يكن بقصد الزجر والابتلاء، وإنما كان دليل غضب، وانتقام إبادة، لا يترك معه من باقية، وهو سر التعبير بالقرية دون أهلها، وكأن الله تعالى قد محاها من الوجود، فهو عذاب استئصال، لا تخويف وإنذار. وإلى هذا الوجه يلمح قول السهيلي: «دخلت الفاء لترتيب اللفظ، لأن الهلاك يجب تقديمه في الذكر» (١).

أو يكون تأخير المعطوف على سبيل التدرّج والارتقاء، لأنه بدلالته على الإهلاك المباغت في أوقات الأمن والدعة، المعبّر عنهما بالبيات والقيلولة، صار أشد وأفظع من الإهلاك، والفاء مستعارة للترتيب الرتبي، ولذلك حديث مفرد يأتيك قريبا.

ومما خولف فيه ظاهر الترتيب، قوله تعالى في وصف الكتاب المجيد: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٠-٢٠٣]. فإن حلول العذاب بالمجرمين، المدلول عليه بقوله «فيأتيهم بغتة» لا يسبق في الوجود قولهم: «هل نحن منظرون»، لاستحالة أن يكون من الهالك قول بعد هلاكه، مما دفع الزمخشري إلى القول بأن الترتيب فيه رتبي، ذكرت معه ألوان العذاب على سبيل التصعّد والارتقاء. قال جار الله: «ليس المعنى ترادف رؤية العذاب ومفاجأته، وسؤال النَّظِرة فيه في الوجود، وإنما المعنى ترتبها في الشدة، كأنه قيل: لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم للعذاب، فما هو أشد منها، وهو لحوقه بهم مفاجأة، فما هو أشد منه، وهو سؤالهم النَّظِرة، ومثل ذلك أن تقول لمن تعظه: إن أسأت مَقَتَك الصالحون، فمقتك الله، فإنك لا تقصد بهذا الترتيب أن مقت الله يوجد عقيب مقت الصالحين، إنما قصدك إلى ترتيب شدة الأمر على المسيئ، وأنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين، فما هو أشد من مقتهم، وهو مقت الله» (٢).

---

(١) نتائج الفكر ٢٥٠.

(٢) الكشاف ٣/ ١٢٩.

إن القول بالترتيب الرتبى تجوزا بفروق الزمن عن فوارق الدرجات والمنازل، هو أعظم مواقع الفاء فى الذكر الحكيم، وأمسها رحما بعلم البلاغة، وللزمخشرى فضل الكشف عنها، وتتبع مواطنها، وإن كان أقلها إقناعًا هذا الموضع، فإن النفس لا تستريح إلى كون سؤال النظرَة أشد من المفاجأة بالعذاب.

وهذا ما جعل المرحوم عبد الرحمن تاج يردّ ما قاله الزمخشرى، ذاهبًا إلى أن الترتيب جاء على حقيقته: (إن الفاء فى هذه الآيات من سورة الشعراء لم تغترب عن معناها الأصلى، الذى هو ترتيب المعطوف بها على المعطوف عليه فى الوجود، والأمر فيه ظاهر وقريب، ولا موجب للعدول عنه. وذلك أن الآيات تريد أن تقول: إن أولئك الكفار لا يؤمنون بالقرآن حتى يروا ما يلجئهم إلى الإيمان به، وهو بوادر العذاب ومقدماته، هذه المقدمات التى يعقبها من غير تراخ، وبطريق المفاجأة والمباغتة نزول العذاب دفعة، فتدركهم حينئذ الحسرة والندامة على ما فرّطوا، ويتمنون لو أعيدوا إلى الدنيا ليؤمنوا، يقولون: هل نحن منظرون، وذلك أن نزول العذاب بهم بغتة، ليس معناه هلاكهم وموتهم فى لحظة، وأنهم لا يمهلون ليتحسروا على ما فرّطوا، ويتمنوا أن ينظروا، لا بل إن ذلك العذاب الذى يباغتهم قد تمتد بعض الوقت مدته، وتستمر عليهم زمنًا ما شدّته، وفى هذه الفترة يمكن أن تكون الحسرة، ويكون سؤال النظرة)[1].

وأرى -والله أعلم- أن قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وما عطف عليه، فيكون سؤالهم النظرة أعقب رؤيتهم العذاب، ولا يمنع من ذلك أن يكون قد عطف على الجملة الأولى جملة أخرى تابعة لها، فهو من عطف جملة على مجموعة من الجمل، كما ذهب إلى ذلك الإمام عبد القاهر فى قول المتنبى:

تولوْا بغتة فكأنّ بَينًا تهيّبنى ففاجأنى اغتيالا
فكان مسير عِيسهمُ ذَمِيلا وسير الدمع إثرهم انهمالا

(١) الشيخ عبد الرحمن تاج وبحوث قرآنية ولغوية ١٦٤.

حيث جعل قوله (فكان مسير عيسهم..) معطوفًا على (تولوا بغتة) لا على جملة (ففاجأني اغتيالا) حتى لا يفسد المعنى بدخول المعطوف في معنى (كأن)[1].

ويكون الغرض من تقدم جملة (فيأتيهم بغتة) على قولهم، تيئيسهم مما تمنوه، واستهانة بما قالوه، وقطع الأطماع في الاستجابة لما حدَّثوا به أنفسهم، فكان ذكر حلول العذاب بهم قبل ذكر ما تمنوه، إيماء إلى أن مثل هذا القول مما لا يُعتدُّ به، ولا يرجى لصاحبه نفع، لوقوعه بعد فوات الأوان، كما أن تأخر قولهم هذا في الذكر، يوحي بأنهم كانوا يرددونه منذ رؤيتهم العذاب حتى لفظوا آخر أنفاسهم، وتقطَّعت بهم أسباب النجاة.

مثل هذا الذى نقول به في عطف الجملة على مجموع جمل أو عكسه اقتفاءً لأثر الشيخ عبد القاهر قال به العيْنى فى قوله عليه السلام: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْق عالمًا اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)[2] قال الإمام العينى: (فإن قلت: الضلال متقدم على الإفتاء، فما معنى الفاء؟ قلت: المجموع المركب من الضلال والإضلال هو متعقب على الإفتاء، وإن كان الجزء الأول مقدمًا عليه، إذ الضلال الذى بعد الإفتاء، غير الضلال الذى قبله)[3].

وكأني بالعيني -رحمه الله- يرى أن تصدُّر الجهال للفتوى، وترؤُّسهم القوم بغير مؤهلات الرئاسة ضلال، وفتواهم بغير علم يجمع بين الضلال والإضلال، فهم ضالون فيما أفتوا فيه، مضلون لغيرهم ممن يعمل بفتواهم، فلو قيل إن المعطوف بالفاء هو (ضلّوا) وحده، لما كان مرتّبا على الإفتاء، لأنهم كانوا قبل ذلك فى ضلال، أما مع الإضلال فإن ذلك واقع بعد الإفتاء وبسببه.

قلت: إنه ليس بلازم فى قصّ الأحداث أن يقع ترتيب الإخبار بها على الوجه الذى وقعت عليه، فقد يعمد القاصّ إلى المخالفة فى الترتيب وبناء الأحداث،

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز ٢٤٤.

(٢) أخرجه البخاري فى كتاب العلم.

(٣) عمدة القارى ٢/ ٩٠.

بقصد التركيز على موضع العظة، أو التشويق والإثارة، فتقع الفاء مرتِّبة الأخبار ترتيبًا فكريًا، تتعانق فيه الأحداث على وجه يحقق أغراض القصة وأهدافها، من أجل ذلك نجد القرآن فى القصص التى تكررت يعمد إلى التقديم والتأخير فى بنائها، تبعًا لاختلاف الأغراض من قصّها فى موضعها، وحينئذ يكون من التطاول القول بأن القرآن تناقض فى عرض أحداثه، ومن التساهل أن يقال إنه من الافتنان فى العرض، بل علينا أن نلتمس وجه الترتيب مرتبطًا بأغراض السورة ومقاصدها، فإذا وقعت الفاء فى موضع ترتبت فيه المعطوفات ترتيبًا وجوديًا، وفى موضع مشابه خولف هذا الترتيب، وجب علينا أن نتلمس وجه المخالفة بالإصغاء إلى همس السياق وما توسوس به الأغراض.

فهذا القرآن يحكى قصة صالح عليه السلام مع قومه فى سورة الأعراف فيقول: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٣- ٧٩].

فقدّم هلاكهم بالرَّجْفة على توليه عنهم، وقوله لهم ما قال، وظاهر الترتيب أن يقدّم ما أخّره، لأن خطابه لقومه لا يقع بعد أن هلكوا وأصبحوا فى ديارهم جاثمين، فخالفت الفاء ما وضعت له من ترتيب المتعاطفات ترتيبًا وجوديًا.

وفى سورة هود خولف هذا النسق، فقدَّم القول على الهلاك، فى قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٦١- ٦٧] فجاء قوله: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ﴾ مرتبًا على عقرهم الناقة، وسابقًا لهلاكهم بالصيحة، وهذا هو الأصل فى الترتيب الزمانى، كما وقعت عليه أحداث القصة.

وقد اختلف المفسرون فى بيان سر مخالفة الظاهر فى سورة الأعراف، وأوجزَ الجملُ فى حاشيته هذه الآراء، فقال: (وفى وقت هذا التولى قولان: أحدهما أنه تولى عنهم بعد أن ماتوا وهلكوا، ويدل عليه قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ فتولى عنهم، والفاء للتعقيب، فيدل على أنه جعل هذا التولى بعد جثومهم، وهو موتهم.

والقول الثانى: أنه تولى عنهم وهم أحياء قبل موتهم وهلاكهم. ويدل عليه أنه خاطبهم بقوله: ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ وهذا الخطاب لا يليق إلا بالأحياء، فعلى هذا القول يحتمل أن يكون فى الآية تقديم وتأخير، تقديره: فتولى عنهم، وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين. فأخذتهم الرجفة فأصبحوا

فى دارهم جاثمين. وأجاب أصحاب القول الأول عن هذا بأنه خاطبهم بعد هلاكهم وموتهم توبيخًا وتقريعًا، كما خاطب النبى ﷺ الكفار من قتلى بدر)[1].

وبالتأمل فى سياق القصة من سورة الأعراف نجد أنها بدأت بخطاب صالح لقومه، دعاهم فيه إلى الله تعالى، وقدم إليهم معجزته المتمثلة فى (ناقة الله)، وحذرهم من أن يمسوها بسوء، ثم انتهى خطابه عند هذا الحد، ولم يدُرْ بينه وبينهم حوار، كما هو الشأن فى سورة هود، ليتغيَّر مجرى الحديث، ويدور الحوار بين المستكبرين والمستضعفين، ينهيه المستكبرون بعقر الناقة، والتوجه بخطابهم إلى صالح، الذى لم يكن طرفًا فى الحوار، قائلين: (يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) فكان جواب الله العملى أسرع من جواب صالح، ردًا على تحدّيهم لله بعقرهم ناقته، واستخفافهم بعذابه، ليحيق بهم ما كانوا به يستهزئون.

إن تخلُّل أى حديث بين استعجالهم العذاب استخفافًا، ووقوع ما استعجلوه يقطع هذا الخيط الفكرى، الذى يربط به طلبهم العذاب، وحلوله بهم، ويذهب بما يومئ إليه الترتيب من سرعة انتقام الله تعالى بالمستهزئين بعد أن قطعوا كل أسباب الحوار، حتى لو كان قد وقع تولّى صالح وما أعذر به إلى قومه قبل هلاكهم، فإن ترتيب حلول العذاب على فعلهم وقولهم، ربطًا بين الأسباب ومسبباتها هو الأليق ببلاغة النظم.

على أنه لا مانع من أن يكون تولّى صالح وحديثه بعد وقوع الهلاك بقومه، فهو حديث نفس، استبدَّ بها الحزن والحسرة على ما صار إليه القوم، جرى على لسانه تعبيرًا عما يعتمل فى صدره، وليس بلازم أن يكون الخطاب للأحياء، فقد خاطب رسول الله ﷺ قتلى بدر بعد هلاكهم، وهو الوجه الذى استظهره الزمخشرى، وإن كان قد أجاز فى وجه أن يكون مؤخرًا من تقديم. قال جار الله: (الظاهر أنه كان مشاهدًا لما جرى عليهم، وأنه تولى عنهم بعد ما أبصرهم جاثمين تولى مُغتمٍّ متحسّر على ما فاته من إيمانهم، يتحزّن لهم)[2].

---

(١) الفتوحات الإلهية ٢/ ٢٦١.

(٢) الكشاف ٢/ ٩١.

إن القرآن حين يعدل فى بعض المواضع عن الترتيب الوجودى بالفاء، تحقيقًا لأغراض النظم، لا يخالف طرائق العرب، ولا يخرج عن سُنَنهم فى كلامهم. فهذا المساور بن هند، وهو شاعر مخضرم يصف فى قصيدة مطلعها:

أودى الشباب فما له مُتفقّر ... وفقدت أترابى فأين المغبر

- يصف - إعراض الغوانى عنه، فيقول:

ورأين شيخا قد تحنّى صلبه ... يمشى فيُقْعى أو يُكِبُّ فيعثر

فيقدم الإكباب على العِثار، مع أن الأخير أسبق فى الوجود، وقد علق المرزوقى على ذلك بقوله: (وكان الواجب أن يقول: أو يعثُر فيُكِبّ، لأن العثار قبل السقوط للوجه، لكنه لم يبال بتغيير الترتيب، لأمنه من الالتباس، وهذا دون ما يجىء فى كلامهم من القلب)(١).

هذا التعليل للخروج على الترتيب المألوف بالأمن من الالتباس، لا يرتفع إلى مستوى الكشف عن المعانى المخبوءة فى النفس، والتى أراد الشاعر أن يبثها فى نفس مخاطبه، من خلال تعمّده عكس الترتيب، فقد صار إلى حال انعكست فيها الأمور، وانقلب ذنَبُها رأسًا، وأدبرت عنه الغوانى من بعد إقبال، وعفْن لقاءه بعد أن كُنَّ يتحرقن شوقًا إليه، وتسرب الوهن إلى بدنه ونفسه، وتقدّم ما كان متأخرًا، وتأخر ما كان متقدمًا، ولا يعبر عن هذا الانقلاب فى حياته وحيوات الناس من حوله، إلا أن يعكس ترتيب الألفاظ على لسانه، ليومىء إلى هذا الاختلال الذى يحس به، والتناقض بين أمسه ويومه على ما يتزاحم فى نفسه. ألا ترى إلى قوله قبل هذا البيت:

ورأين رأسى صار وجهًا كله ... إلاَّ قفاى ولحية ما تُضفر

كيف قدم لنا فيه صورة ساخرة لسقوط شعر رأسه، حتى صار وجها بلا رأس، مضياً إلى الغاية فى رسم الصورة المقلوبة لنفسه ومجتمعه.

---

(١) شرح ديوان الحماسة ١/ ٤٦.

ومما وقع فيه قلب الترتيب بالفاء، ما حكاه الله تعالى في قصة المعراج: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٥- ٩].

قال الفراء: (كأن المعنى: ثم تدلّى فدنا، ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحداً، أو كالواحد، قدّمت أيهما شئت، فقلت: قد دنا فقرُب، وقرب فدنا، وشتمني فأساء، وأساء فشتمني، وقال الباطل، لأن الشتم والإساءة شيء واحد)[1].

هذا التعليل لتأخير التدلي مع كونه أحق بالتقديم غايته تصحيح العطف على الصورة التي جاء بها النظم، وهو في سبيل ذلك لا يبالي أن يعطف الشيء على نفسه، لأن الفعلين في نظره مترادفان، وهو ما لا يليق بالنظم الكريم.

وإذا كانت المعاجم قد ذكرت في معاني التدلي: النزول من العلو، والقرب بعد علو، والتواضع، والإدلال[2] فإن أنسب المعاني هنا هو النزول من العلو، ليتناغم مع قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ ويكون المعنى على نزول جبريل ليدنو من الرسول عليه السلام. وكان ظاهر النسق يقتضي أن يقال: تدلى فدنا، لكن القرآن عدل إلى ما عليه النظم على سبيل القلب، كما نصّ عليه أبو البقاء، وعدّه من قلب العطف، قائلاً: (أي تدلى فدنا، لأنه بالتدلي مال إلى الدنو)[3]. ولعل الغرض من هذا القلب هو الإشعار بأن هذا الحدث قد أحاطت به خوارق العادات، فهو يجري في عالم الغيب، حيث لا يمكن تصور وقائعه على قياس ما يجري في عالمنا، ولا يمكن إخضاعه للقوانين التي اعتدناها في عالم الشهادة، إنه رمز للإعجاز في الزمان والمكان والحدث، ولا غرابة في أن تسبق الغايات الوسائل ويقع الدنو قبل التدلي، في عالم يعجز العقل عن تصور حقائقه. المهم أن يكون سبق التدلي مشيراً لأهميته في إجلال النبي وتكريمه، حين يكون سعي جبريل إليه في محاولة للتقرب منه تشريفاً وتعظيماً لمن استضافته السماء في هذه الليلة الكريمة.

---

(١) معاني القرآن ٣/ ٩٥.

(٢) ينظر لسان العرب مادة: دلا.

(٣) الكليات ٤/ ٧.

أما ما ذهب إليه المفسّرون من تفسير التدلى بتعلّق جبريل بالنبى عليه السلام كما تتدلّى الثمرة من أغصانها[1] فهو كذلك لا يعدو أن يكون محاولة متكلّفة لتصحيح الترتيب فى الفاء، وإلا فما الغرض من هذا التصور العجيب لتعلق جبريل فى الهواء معتمداً على الرسول عليه السلام؟ أفلا يتعارض هذا التعلق مع قوله تعالى (فكان قاب قوسين أو أدنى) بحكم أن التعلق ملاصقةٌ لا قرب، فلا يكون حينئذ مجال لتقدير مسافة القرب بقوسين أو ما دونهما؟!

ومما خالف ظاهر الترتيب فى العطف بالفاء، قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

فإرادة تعييب السفينة فى الحقيقة مترتبة على مجموع أمرين، هما: كون السفينة لمساكين، والخوف من اغتصاب الملك لها، إذ لولا هذا الخوف لكان عمل الخضر عليه السلام إضراراً بالسفينة وأصحابها، وهو الأمر الذى خفى على موسى عليه السلام فاعترض عليه، وكان سببًا فى فراقه، ولو روعى أصل الترتيب، لقيل: وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا، فأردت أن أعيبها، لكن النظم الحكيم عمد إلى تقديم إرادة العيب، بحيث تقع مترتبة على كون السفينة لمساكين، إشارة إلى أنه هو السبب الأصيل فى حرصه على تعييبها واستنقاذها من استيلاء الملك عليها، وإلا فإنه لم يفعل ذلك فى غير هذه السفينة، وهى معرضة مثلها للاغتصاب، فلو أخر المعطوف على الأصل من الترتيب لأوهم فى بادئ الأمر أن التعّييب مسبب عن صنيع الملك، وليس هو الأساس فى فعل الخضر عليه السلام، وذلك ما أحسن العلامة أبو السعود الوقوع عليه حين قال: (ولعل تفريع إرادة تعييب السفينة على مسكنة أصحابها قبل بيان خوف الغصب، مع أن مدارها كلا الأمرين للاعتناء بشأنها، إذ هى المحتاجة إلى

---

(١) ينظر الكشاف ٤/ ٢٨.

التأويل، وللإيذان بأن الأقوى فى المدارية، هو الأمر الأول، ولذلك لا يبالى بتخليص سفن سائر الناس، مع تحقيق خوف الغضب فى حقهم أيضاً)[1].

ومن تقدم الغاية على الوسيلة فيما عطف بالفاء قوله تعالى فى حكاية دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

لقد كان المقصد الأسنى من ذهاب إبراهيم عليه لسلام إلى هذه البقعة المباركة من أرض الله، وإسكان ذريته بجوار البيت المحرم الذى رفع هو وإسماعيل قواعده، هو إحياؤه بالعبادة، وإقامة الصلاة فيه، ولكى تتوافر ذريته على تحقيق هذه الغاية السامية، دعا إبراهيم ربه أن يعطف إليهم قلوب خلقه، ويربط أفئدة العباد ببيته، ويسبغ على حراسه وسدنته من رزقه ما يعينهم على إقامة الشعائر فيه، لذلك جاء ترتيب الألفاظ على غير الأصل من تقديم الأسباب والوسائل على المسببات والغايات، إذ لو روعى ذلك لقيل: فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات ليقيموا الصلاة، لكنه خالف هذا النسق حتى لا ينشغل من وكل الله إليهم أمر بيته بالوسائل عن الغايات، التى من أجلها عانت هذه الأسرة ما عانت، وحتى لا يربط آل إسماعيل خدمتهم للبيت، وقيامهم على أمره، بعرَض من أعراض الدنيا، فهم أصحاب رسالة يؤدونها، وإن ضاقت بهم سبل العيش. هذا إلى جانب الإشارة إلى أن إخلاصهم لبيت الله وتفانيهم فى الحرص على إقامة الشعائر فيه، هو الذى يحقق لهم ما ضمنه الله للمتقين من العيش الكريم، كما نطقت به الآية الكريمة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

---

(١) تفسير أبى السعود ٥/ ٢٣٨.

التفاوت الرُّتبي وأسرار التجوز فيه

التفاوت الرتبي من أعظم مواقع الفاء، وأكثرها امتلاء بالمعاني والإشارات التى تغـرى البـاحث بالكشف عنهـا، واسـتـجـلاء أسرارهـا، وهو معنـى افتـرعـه الزمخشرى، وأكثر من تطبيقه على النصوص القرآنية فى حرفى التعقيب والمهلة، وسيتضح لك عند الحديث على (ثم) الفرق بين التفاوت الرتبى فى الحرفين.

ولعل الزمخـشرى قد اهتدى فى قوله بـالتفاوت الرتبى بإشارات لمن سـبقه من العلماء، منها إشارة للراغب فى المفردات سنذكرها فى الحديث عن (ثم)، وإشـارة نذكـرها الآن للزجاج منقـولة عن لسان العـرب، فى قوله تعـالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨]. قال الزجاج: (معنى دنا فتدلى واحد، لأن المعنى أنه قرب فـتدلى، أى زاد فى الـقرب)[1] فكأن دخول الفـاء بين لفظين مـتحدين معـنى، يضفى على الثـانى زيادة فى المعنى، بما يحـقق لونا من التغـاير يصح به العطف، فيكون ترقيا من دنوّ إلى دنوّ أشد منه، وإلا كان الترادف ودخول العاطف بين المترادفين عبثا يتنزه عن مثله كلام الفصحاء، فضلا عن الكلام المعجز.

● **التفاوت بين المفردات**

دلالة الفاء على التفاوت الرتبى من المعانى المجازية، التى يستعار فيها الترتيب الزمانى للدلالة على التدرج فى الفضل والشرف، وهو مادرج عليه المفسرون تبعا للزمخشرى، لكن الشيخ الطاهر بن عاشور أضاف وجها آخر فى التجوز بها عن هذا المعنى، وهو أن تكون مجازا مرسلا بعلاقة الإطلاق والتـقييد، فقال فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦] (والفاء عاطفة (ما فوقها) على (بعوضة) أفادت تشريكهما فى ضرب المثل بهما، وحقها أن تفيد الترتيب والتعـقيب، وإنما استعملت فى معنى التدرج فى الرتب،

---

(١) لسان العرب مادة دلا.

بين مفاعيل (أن يضرب). ولا تفيد أن ضرب المثل يكون بالبعوضة، ويعقبه ضربه بما فوقها، بل المراد بيان المثل بأنه البعوضة، وما يتدرج فى مراتب القوة، زائدا عليها، درجة تلى درجة، فالفاء فى مثل هذا مجاز مرسل علاقته الإطلاق عن القيد، لأن الفاء موضوعة للتعقيب الذى هو اتصال خاص، فاستعملت فى مطلق الاتصال، أو هى مستعارة للتدرج، لأنه شبيه بالتعقيب في التأخر في التعقل، كما أن التعقيب تأخر فى الحصول)[١].

ولاشك أن حمل المجاز على الاستعارة فى معنى الحرف هو القول الفحل، والأبعد عن التكلف في العلاقة، وذلك على تشبيه الترتب فى الشرف والفضل بالترتب فى الوجود، وهو ما ينبيء عنه كلام رجالات البيان.

ثم إن الترتيب المجازى بالفاء قد يكون تصعّدًا من الأدنى إلى الأعلى، على سبيل الترقى فى الفضل أو الشدة، وقد يكون بالعكس، على سبيل التنزُّل، بدءا بالأهم، وانتهاء بما هو دونه أهمية.

وقد تجاذب الترقى فى هذه الآية وجْهَاه، وهما على ما قال الرازى: (أحدهما أن يكون المراد: فما هو أعظم منها فى الجثة، كالذباب، والعنكبوت، والحمار، والكلب، فإن القوم أنكروا تمثيل الله تعالى بكل هذه الأشياء، والثانى أراد بما فوقها فى الصغر، أى بما هو أصغر منها، والمحققون مالوا إلى هذا القول لوجوه، أحدها أن المقصد من هذا التمثيل تحقير الأوثان، وكلما كان المشبه به أشد حقارة، كان المقصود فى هذا الباب أكمل حصولا، وثانيها أن الغرض ههنا بيان أن الله تعالى لا يمتنع عن التمثيل بالشىء الحقير، وفى مثل هذا الموضع يجب أن يكون المذكور ثانيا أشد حقارة من الأول)[٢].

هذه الدلالات فى الفاء، تصعّدا وتحدرا، دليل على ثراء معانيها المجازية، فهى تعطى معنى الترتُّب فى الأحداث والصفات، بدءا بالأدنى وانتهاء بالأعلى،

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣٦٣.

(٢) تفسير الرازى ٣/ ١٤٨.

إبرازا لعلو درجة المعطوف، أو بدءا بالأعلى، ليتجاوب تقديمه فى اللفظ مع تقدمه فى المنزلة والشرف. وقد مال المحققون إلى الوجه الثانى من التفاوت، لأنه أبلغ فى الرد على من أنكروا ضرب الله الأمثال بالمحقَّرات من الأشياء، فقيل لهم: إن الله لا يستحيى أن يضرب المثل المقرِّب للمعنى بما هو حقير كالبعوضة، بل ولا بما هو أحقر منها، وهذا وإن كان تنزُّلا بدرجة المعطوف، فهو فى الوقت نفسه ترق فى الرد، وتناه فى بيان الحكمة من ضرب الأمثال.

من هذا الضرب قوله عليه السلام -فيما أخرجه الترمذى- حين سئل (أى الناس أشد بلاء؟ فقال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل) فبدأ بالأشرف وانتهى بالأقل شرفا. ولعلك تلمس بعد المنزلة بين الأنبياء ومن سواهم من صالحى المؤمنين، حيث دل على ذلك بإدخال حرف التراخى بين الأنبياء وعامة المؤمنين، وهو دال على عظيم التفاوت بينهم، وأدخل حرف التعقيب للدلالة على تفاضل المؤمنين فيما بينهم، وهو تفاوت لا يرقى إلى درجة التفاوت بين الأنبياء والصالحين.

وعلى العكس من ذلك جاء قوله عليه السلام: (أعظم الناس أجرا فى الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى)[1] حيث يتعاظم الأجر كلما ازداد البعد، وطال المشى.

والحديث عن التفاوت الرتبى فى عطف المفردات فى الذكر الحكيم محدود، لقلة نماذج هذا النوع من العطف فى القرآن، حتى قال المرحوم الشيخ عضيمة: إن عطفها للاسم المفرد جاء فى نوع معين لم تتجاوزه فى القرآن: هو عطف الصفات، فكل ما وردت فيه الفاء عاطفة للاسم المفرد فى القرآن كان اسم فاعل، معطوفا على اسم فاعل)[2].

ولعل المثال السابق استدراك على الشيخ، فهو من عطف المفردات وليس المتعاطفان صفتين، ولا اسم فاعل.

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأذان.

(٢) دراسات لأسلوب القرآن الكريم -القسم الأول ٢/ ٢٣٤.

والحق أنني لم أجد ما أستدرك به على الشيخ سوى هذا المثال، وما عداه من عطف المفردات فهو -فيما أحصيت- من عطف الصفات، ولذلك كان هذا العطف مدار الحديث في التفاوت الرتبي عند الزمخشري ومن تابعوه.

ففي قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ① فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ② فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ③ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: ١-٤] قال الزمخشري: (فإن قلت: ما حكم الفاء إذا جاءت عاطفة في الصفات؟ قلت: إما أن تدل على ترتب معانيها في الوجود، كقوله:

يا لهف زيابة للحارث الصا ... بح فالغانم فالآيب

كأنه قيل: الذي صبح فغنم فآب.

وإما على ترتيبها في التفاوت من بعض الوجوه، كقولك: خذ الأفضل فالأكمل، واعمل الأحسن فالأجمل، وإما على ترتب موصوفاتها في ذلك، كقولك: رحم الله المحلقين فالمقصرين، فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر العاطفة في الصفات، فإن قلت: فعلى أي هذه القوانين هي فيما أنت بصدده؟ قلت: إن وحّدت الموصوف كانت للدلالة على ترتب الصفات في التفاضل، وإن ثلّثته فهي للدلالة على ترتب الموصوفات فيه)(١).

فالترتيب على ما ذهب إليه الزمخشري في هذه الآيات، لا يصحّ إلا على وجه مجازي هو ترتبها في الفضل، إما بين الصفات إذا أجريت على موصوف واحد، كالملائكة الصافات أجنحتها في الهواء، فالزاجرات السحاب سوقا، فالتاليات لكلام الله من الكتب المنزّلة، ويكون ترتبها ترقيا من الأدنى إلى الأعلى، أو العكس، بدءًا بما هو أهم، تنبيها على فضل المقدّم واعتناء به، وإما بين الموصوفين، إذا أجريت الصفات على طوائف مختلفة، كأن تكون الصافات وصفا للملائكة، والزاجرات لقواد الغزاة الذين يزجرون الخيل جهادا

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٣٤.

فى سبيل الله، والتـاليات الذكر للعلماء، والترتيـب بين الموصوفات ترتيب رتبى أيضا، بدءا بالأهم أو ترقيا من الأدنى إلى الأعلى، وهو على الوجهين المحتملين ترتب مجازى، تستعار فيه الفاء الدالة على الترتيب الوجودى للترتيب فى الفضل والشرف.

وقد حمل الزمخشرى هذه الآيات وما شابهها من عطف الصـفات بالفاء فى الذكر الحكيم على التفاوت الرتبى، واستبعد الترتيب الوجودى الذى قال إنه أحد وجوه الترتيب فى البيت الذى مثّل به، وكـذلك قال المفسرون من بعده، وكأنهم رأوا عدم إمكان الترتب الحـقيقى بين صفات لا تتتابع فـى وقوعها، إذ الصفّ، والزجر، وتلاوة الذكر لا يظهر فى نسقها مـا يدل على سبق صفة لأخرى، كما لا يظهر فى الموصوفين بها على القول بتـعدّدهم ما يدل على تقدم موصوف على آخر تقدّما وجوديا.

وعلى الرغم من وجاهة القـول بالتفاوت الرتبى، وما يشيعه التجوز فيه من إيحاءات، فإننى أرى حمل الفاء على أصلها من الترتيب الحقيقى فى هذا الموضع وما أشبـهه، أدقّ تصويرا لحركة الأحداث وتتـابعها، شريطة استـبعاد دلالة هذه الصفات على موصوفات مختلفة، مما لا يتـلاءم مع طبيعة الفاء، التى تتميز عن الواو بربط الأحداث على وجه يظهر فيه بـناء الثانى على الأول، وهو خصوصية فى الفـاء كانت سـببـا فى إبعـادها من مبـحث الفـصل والوصل، فلو أن هذه الصفـات لموصوفات مـختلفة لكانت الواو بما فـيها من التـمايز والاسـتقلال بين المعطوفات أحق بهذا الموضوع من الفاء.

والدليل على ذلك أنه حين اخـتلفت الطوائف التى جـرت عليهـا الصفـات، جاءت الواو فارقة بينهـا، فى قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝٢ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝٣ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝٤ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات:١-٥] فلمـا دخلت الواو بين الناشرات والمرسلات دلت على أنهـما طائفتان، كل طائفة اتصفت بصفتين على سـبيل التعاقب، ويشهد لذلك صاحب

الكشاف حين قال في تفسيرها (أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره، فعصفن في مضيهن، كما تعصف الرياح تخففًا في امتثال أمره، وبطوائف منهم نشرن أجنحتهن في الجو عند انحطاطهن بالوحي، أو نشرن الشرائع في الأرض، أو نشرن النفوس الموتى بالكفر، والجهل بما أوحين. ففرقن بين الحق والباطل، فألقين ذكرا إلى الأنبياء)[1] فجعل ما قبل الواو طائفة من الملائكة، ارتبط وصفها بالإرسال بوصفها بالعصف على سبيل التتابع الحقيقي، وجعل ما بعد الواو طائفة أخرى، موصوفة بثلاث صفات متابعة هي النشر فالفرق، فالإلقاء، وأدت الفاء دورها في تتابع حركات هذه الطائفة، بما ينبيء عن ترتّب وجودي بين هذه الصفات، وكان الألوسي صريحا في إيضاح الفرق بين العاطفين، حين قال: (وعطف الناشرات على ما قبل الواو ظاهر للتغاير بالذات بينهما، وعطف العاصفات على المرسلات والفارقات على الناشرات، وكذا ما بعد الفاء لتنزيل تغاير الصفات منزلة تغاير الذات)[2].

ومثله قوله تعالى في سورة النازعات حيث دلّت الواو على التمايز بين طوائف مختلفة: ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات: ١-٥] وفيه قال الزمخشري: (أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد، وبالطوائف التي تنشطها، أي تخرجها، من: نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، وبالطوائف التي تسبح في مضيها، أي تسرع فتسبق إلى ما أمروا به، فتدبر أمرا من أمور العباد)[3].

لاحظ قوله بعد كل واو: (وبطوائف) ثم قوله مع الفاء: (تسرع، فتسبق، .. فتدبر) وهو لا يحتاج إلى تعليق.

لذلك أميل في تفسير المواضع التي تعطف فيها الصفات بالفاء، إلى جعلها لموصوف واحد، تتوالى أفعاله في تحدّر واتساق يتلاءم مع طبيعة هذا الحرف،

(١) الكشاف ٤/ ٢٠٢.
(٢) روح المعاني ٢٩/ ١٦٩.
(٣) الكشاف ٤/ ٢٠٢.

ففي سورة الصافَّات أرجح أن يكون المقصود هو قواد الغزاة، الذين يستعدون لشن الغارة على عدوهم، فيصفّون جنودهم، فيزجرون الخيل حثاً لها على الإسراع إلى مواقع القتال، فيسبحون الله ويضرعون إليه طلبا لنصره، بعد أن استنفدوا وسائل الاستعداد البشرية، وهي أفعال متتابعة، ربطت بينها الفاء، على وجه يظهر تواليها دون انقطاع، بما يدل على استغراقهم فيما رموا إليه من أهداف، دون أن يشغلهم عن وجهتهم شاغل من أمور الدنيا، وفي ذلك تعظيم للجهاد والمجاهدين.

ويمكن أن يكون الموصوف هو العلماء العاملين، الصافّين أنفسهم في صفوف جماعات المسلمين، فيزجرونهم عن المعاصي، فيذكّرونهم بآيات الله يتلونها عليهم، وهي كذلك أفعال متوالية، تبرز جهادهم المتواصل، ودأبًا في الدعوة إلى الله لا يملّ ولا يتخاذل، وهي معان أوردها على نحو قريب من هذا أبو السعود[1].

ويبدو هذا التعاقب في حركات الأفعال جلياً في قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: ١-٥] فهي ترسم صورة لحركة الرياح، تثير السحاب، فتسوقه إلى حيث يقسم الله تعالى به أرزاق العباد، فتسقط الأمطار، حيث أراد الله تعالى لها أن تسقط، كما جاء في سورة فاطر: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩] وفي الموضعين حركت الفاء الأحداث ووالت بينها، على وجه يبرز ترابط الأفعال وتتابعها، مضيا إلى الغاية التي رسمها الله تعالى. وهووجه ذكره الألوسي وجعل الترتيب فيه حقيقيا، بعد أن ذكر وجوها تدل فيها الفاء على الترتيب الرتبي. قال: (وإن حملت على واحد، وهو الرياح، فهي لترتيب الأفعال والصفات، إذ الريح تذرو الأبخرة إلى الجو أولا، حتى تنعقد سحابا،

---

(١) تفسير ابي السعود ٧/ ١٨٤.

فتحمله ثانيا، وتجرى به ثالثا، ناشرة وسائقة، إلى حيث أمرها الله تعالى، ثم تقسم أمطارها)[1].

ومثله قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [العاديات: ١-٥].

تقول بنت الشاطئ: (مشهد مثير لغارة مفاجئة، تُصبح القومَ على غير انتظار، وموقف المباغتة يلائمه قصر الآيات بما فيها من حسم، وسرعة الانتقال، وتلاحق الأحداث، ما بين العدْو، وإيراء القَدْح، وإثارة النقع، إلى توسّط الجمع، فما إن تعدو الخيل ضبحا، حتى تكون قد توسطت الجمع فى النقع المثار... والعطف بالفاء فيه مع ملحظ السببية، ترتيب دون تراخ أو تمهل أو إبطاء)[2].

غير أن للفاء الدالة على التفاوت الرتبى بين الصفات خلابتها وسحرها، حين تجعل الصفة الواحدة المستمرة صفات متغايرة، متفاوتة فى الرتبة والشدة، للمبالغة فى الوعد أو الوعيد، ومثالها قوله تعالى ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥١-٥٥] فإن الفاء تنتقل بالمشاهد من أمر عجيب إلى أمر آخر أعجب، ومن عذاب شديد إلى عذاب آخر أشد، مبالغة فى تهديد المكذبين، فأنت ترقب الضالين يأكلون شرّ مأكل، وهم مع ذلك يقبلون عليه فى نهم عجيب حتى تمتلىء بطونهم، فيقدمون على الشراب من ماء تناهى فى الحرارة، يقطّع أمعاءهم، ومع ذلك فهم يواصلون الشرب لا يرتوون أبدا.

فإذا عدت إلى حقيقة الفاء بدلالتها على الترتيب الزمنى ضاعت المبالغة التى يومئ إليها الترتيب الرتبى، متدرجا بالقارئ من أمر عجيب إلى ما هو أعجب، وكأنه يقول: إن تعجب من أكلهم من الزقّوم، فإن نهمهم فى الأكل منه إلى امتلاء البطون أعجب، وإن غرابة شُربهم من الحميم دون غرابة إفراطهم فى الشرب منه.

---

(١) روح المعانى ٢٧/٣.

(٢) التفسير البيانى للقرآن الكريم ١/ ١٠٧.

وانظر بعد ذلك كيف يتسلط المعنى الوضعى للفاء من الترتيب الزمنى على بعض المفسرين، فيطفئون جذوة الفاء، ويميتونها بين أيديهم، كما نجده فى قول أبى حيان: (والفاء تقتضى التعقيب فى الشربين، وأنهم أولا لما عطشوا شربوا من الحميم، ظنا منهم أنه يُسَكن عطشهم، فازداد العطش بحرارة الحميم، فشربوا بعده شربا لا يقع به رى أبدا، وهو مثل شرب الهيم، فهنا شربان من الحميم، لا شربٌ واحد، اختلفت صفتاه فعطف)[1].

أترى أبا حيان يقول كذلك بأن الأكل من شجر الزقوم أكلان أيضا، وأنهم حين أكلوا من شجر الزقوم ظنوا أنهم يشبعون فوجدوا أنهم ازدادوا جوعا، فأقبلوا يأكلون لا يشبعون أبدا؟؟

إنه تكلُّفُ تصحيح الترتيب فى معنى الفاء، وليس ثمة أكلان ولا شربان، وإنما هو أكل ممتدّ، وشرب ممتدّ كذلك، وليس هناك ما يبرر العطف المقتضى للمغايرة إلا شدة التعجب من استمرارهم فى أكل ما هو مؤلم، وإفراطهم فى الشرب مما لا يطاق تناول جرعة منه، فأُظهر التمادى على الأكل والشرب فى صورة أكل وشرب آخر أشد وأفظع. وذلك ما أبرزه جار الله الزمخشرى، واستلهم أسراره، فقال: (فإن قلت: كيف صح عطف الشاربين على الشاربين، وهما لذوات متفقة، وصفتان متفقتان، فكان عطفا للشيء على نفسه؟ قلت: ليستا بمتفقتين، من حيث إن كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه من تناهى الحرارة، وقطع الأمعاء أمر عجيب، وشربهم له على ذلك كما تشرب الهيم أمر عجيب أيضا، فكانتا صفتين مختلفتين)[2].

● **التفاوت بين الجمل**

وقريب من ذلك فى الغرض وإن كان من عطف الجمل، قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢]

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢١٠. (٢) الكشاف ٤/ ٥٦.

فليس إكثار الجدال شيئا آخر غير ما عطف عليه، بل هو جدال واحد تتابع وتزايد، حتى ضاق قومه ذرعا بتماديه على الدعوة وإلحاحه فيها، قبل أن يضيق هو باستمرارهم على الكفر والعناد. إن الفاء هنا -بمعنى التفاوت الرتبي فيهما- هي التي تجسد صبر نوح عليه السلام وإصراره على مواصلة الدعوة، دون أن تفتّ القرون المتطاولة في عضده، بل هو يطور دعوته ويزيد في وسائلها، كلما ازداد قومه عنادا وكفرانا، وهو ما جأر به إلى الله تعالى في النهاية بعد أن استنفد كل وسائل الدعوة ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ⑤ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً ⑥ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ⑦ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ⑧ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً﴾ [نوح ٥-٩].

فإذا أول المؤولون (جادلتنا) بإرادة الجدال ليصح ترتيبه على المعطوف عليه، فقد ذهبوا بإشراقة هذا المعنى، وأطفأوا جذوته، وأحالوا الفاء جسدا بلا روح، ولا أدرى ما الغرض من التجوز بالإرادة عن الفعل فى خطاب القوم له، وهم ضائقون بجدل وقع واستمر؟

إن ما قاله صاحب الكشف فى تفسير العطف هنا غاية فى الجودة: (الظاهر أنه عبارة عن تماديه في الجدال، أي أخذت فيه وشرعت فأكثرته وأطلته، وكذلك قولهم: أجاد فلان فأكثر، وأعطى فأكثر، وقولهم: ولا يراد به عطيتان، لأن الوصف أي الإكثار يجب أن يكون مقارنا للموصوف لا يدفع ما آثرناه، بل يؤكده)[1].

فَفَرْقُ ما بين الشروع والإطالة، أو ما بين الفعل والتمادى عليه، هو التفاوت الرتبى الذى يجعل المعطوف أشد وأقوى، فاستحق دخول الفاء للإشارة إلى التدرج والارتقاء.

---

(١) كشف الكشاف ٤/ ١٠٢١.

- **عطف المفصل على المجمل**

كثر القول بعطف المفصل على المجمل في آيات الذكر الحكيم، وعدّه النحاة وأهل البيان من الترتيب في الإخبار، لا في المخبر به، ومضمون ذلك أن الخبر الثاني هو عين الأول، غير أن الأول خبرٌ مجمل، والثاني مفصّل، فكأن المتكلم بعد أن ألقى الخبر مجملا، استأنف إخبارا آخر يفصل فيه ما أجمله. ولا شك أن التفصيل بعد الإجمال ضربٌ من البيان الرفيع، يوقظ قوى الإدراك عند المتلقي، ويبعث فضوله، ويحرك شوقه -حين يلقى إليه الخبر مجملا- إلى البيان والتفسير. لكن هناك أمر يستدعي الوقوف عنده، وهو أن الشأن في البيان أن يتصل بالمبيَّن اتصالا ذاتيا يستغني عن واصل لفظي، لذلك عدّه البيانيون من مواضع الفصل، ومنعوا عطفه بالواو، لأنه من عطف الشيء على نفسه، ومنع الزمخشري عطفه بالفاء أيضا في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٦- ٨] حيث علل ترك العطف بالفاء في قوله (في أي صورة ما شاء ركبك) كما نسقت الجمل قبلها بالفاء، بقوله: (فإن قلت: هلا عطفت هذه الجملة كما عطف ما قبلها؟ قلت: لأنه بيان لعَدَلك)(١).

فلم دخلت الفاء بين المفصَّل والمجمل، والتفصيل بيان لما أجمل وتفسير له، حتى سميت هذه الفاء تفسيرية؟ وكيف يقال به في القرآن، والبعض يرى أن عطف التفسير ليس من أساليب البلغاء؟ كما صرح به المرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدي في قوله: [وأما ما يسمونه عطف تفسير مما ليس فيه مغايرة بين المعطوفين، فليس من أسلوب البلغاء، وإنما يأتي في أسلوب المؤلفين وأشباههم)(٢).

لقد اكتفى البعض ببيان صحة العطف، دون النفاذ إلى سره، ولا إلى سر إيثار الفاء من بين حروف العطف في مواضعها، من مثل قول أبي البقاء في

---

(١) الكشاف: ٤/ ٢٢٨.
(٢) البلاغة العالية ١٠٦.

كليـاته: (يصح عطف المفسَّر على المفسِّر باعتـبار الاتحـاد النوعي، والتغـاير الشخصي)[1] وهو -كمـا ترى- يقف عند الصحة، لا يتجـاوزها إلى ما يطمح إليه أصحاب الأذواق.

وإلى مثله ذهب العيني في معـرض شرحه لقول أبي ذر رضي الله عنه: (إني ساببت رجلا فَعَيَّرته بأمه). قال العيني: (قـوله (فَعَيَّرته) عطف على سابته، فإن قلت: هذا عطف الشيء على نفسه، لأن التَّعْـيير هو نفس السَّب، وكيف تصح الفاء بينهما، وشـرط المعطوفين مغايرتهما؟ قلت: هما متغـايران بحسب المفهوم من اللفظ، ومثل هذه الفاء تسمى بالفاء التفسيرية)[2].

إن التغـاير الذي نراه مع دخول الفـاء المرتِّبة هو التـفاوت بين المتـعاطفين في المنزلة، وذلك في مواقف تـتطلب الترقي في الإيضاح والبـيان، كالاسـتعطاف، والتـهـديد، والإدلال بالقـدرة، والتـشـديـد على المخـاطب، وغـيـر ذلك من الأغراض، التي تتدرج الفاء فيـها من شديد إلى أشد، أو عظيم إلى أعظم منه، وغير ذلك.

ففي مجال الاستعطاف جاء قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] فما بعد الـفاء تفصيل للنداء، وتعقـيبه بالفـاء دلالة على أنه أبلغ في الاستعطاف، لمـا تضمنه من بسط الشكوى واسـتنجـاز الله وعده بـإنجاء أهله، والثـناء عليه بمـا هو أهله من العلم والعدل، وكأن الله يقول: دعا نـوح ربه فبالغ في دعائه ومع ذلك فلم يجب إلى ما دعـا به، لأنه لا شفاعـة لمن آثر الكفر على الإيمان، ألا ترى كـيف عدل عن ضـمـيـر المتكلم، فلـم يقل: ونادانا نوح، كـما قـال: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥] ليشعـرك من بادئ الأمر إلى أن ما دعا به نوح مما لايجاب إليه، مهما أفرط في دعائه، وبالغ في شكواه، ومن ثم حكى الله النداء بصيغة الغائب (ونادى نوح ربه).

---

(١) الكليات ٥/ ٢٥١.

(٢) عمدة القارى ١/ ٢٠٤.

لذلك فضَّل صاحب الكشف أن تكون الفاء لتعقيب الإجمال بالتفصيل، على القول بالتجوز فى فعل النداء بإرادة النداء، كما ذهب إليه الزمخشرى، قال فى الكشف: (لو قيل إنه تفصيل للمجمل، وهو تعقيبه لكان سديدا)(١) ذلك لأن تعقيب الخبر المجمل بخبر مفصل تدرُّج وارتقاء، وإبراز لفضل الزيادة فى المعطوف.

وفى مقام تعظيم المعطوف إدلالا بقدرة الله تعالى واستحقاقه الثناء والشكر جاء قوله تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤] قال أبو السعود: (والفاء فى (فأحسن) تفسيرية. فإن الإحسان عين التصوير)(٢) مثل هذا القول يوهم بأن الفاء لادورَ لها، إذ كان المفسَّر والمفسِّر شيئا واحدا، وهو فضلا عن مجافاته لما تقرر من أن العطف يوجب المغايرة، فإن فيه قصورا عن استيعاب أسرار النظم، ذلك أنه جاء فى سياق يتصدره لفظ الجلالة، مخبَرا عنه باسم الموصول، لحصر مدلول الصلة في المبدع الحكيم، مما يشعر منذ البداية بكمال الخلق، وعظمة الصنع، لأن الصانع هو الله، ثم ساق الحديث على نحو يبرز الجمال في الخلق، لا أصل الخلق، فهو لا يمتنّ على عباده بخلق الأرض، وهى نعمة جليلة، وإنما بإبداعه في جعلها قرارا، وذلك فوق الخلق نفسه، وكذلك بجعل السماء بناء محكما لا فروج فيه، وليس بخلق السماء، وهو أمر أجلّ من خلقها، ثم كان إبداع البارى فى تصوير الإنسان هو نهاية الكمال فى الخلق، لذلك وقع مؤخرا على سبيل الترقى، بحسبانه أجمل مخلوقات الله صورة، ولما كان الحديث عن جمال الخلق، لا عن الخلق جاء الفعل «صوّركم» لا خلَقكم، ثم جاء (فأحسن صوركم) انتهاء إلى الغاية فى إحكام الصنعة وإبداعها، فأدى العطف بالفاء دوره فى إبراز نعمة الله تعالى بإحسان صورته، وكأن التصوير نعمة، وإبداعه على أحسن صورة نعمة أجل وأعظم، فهو ترتيب

---

(١) كشف الكشاف ٤/ ١٠٣٠.

(٢) تفسير أبى السعود ٧/ ٢٨٢.

رتبى لا وجودى، لأن إحسان الصورة مقارن للتصوير، لا واقع بعده، وفى ذلك حثّ على تجديد النظر وتكراره، وتأمل جوانب هذه الصورة البديعة من خلق الله ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] ولعل السعد فى حاشيته على الكشاف مسّ ذلك المعنى برفق حين قال: (وجه الفاء أن إحسان الصورة بعد التصوير بحسب الاعتبار، وإن لم يكن بحسب الوجود)[١] فالاعتبار منظور فيه إلى حال المخاطب فى إدراكه الصورة جملة أولا، ثم تأمُّل دقائقها ووجوه الإحسان فيها ثانيا، ارتقاء من النظرة الكلية، إلى النظرة الفاحصة المستوعبة لأجزاء الصورة، وارتقاء من إدراك حقيقة المصوَّر إلى إدراك الحسن فيه.

وفى مقام التشديد على بنى إسرائيل جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] فعطف قتل النفس على التوبة، وليس قتل النفس شيئا آخر غير المعطوف عليه. قال الطبرى: (ثم أمرهم موسى بالمراجعة من ذنبهم، والإنابة إلى الله من ردّتهم بالتوبة إليه، والتسليم لطاعته فيما أمرهم به، وأخبرهم بأن توبتهم من الذنب الذى ركبوه، قتلُهم أنفسهم)[٢].

فى عبارة الطبرى هذه دليل على أن التوبة للمأمورين بها هى القتل، وقوله (وأخبرهم بأن توبتهم من الذنب الذى ركبوه قتلهم أنفسهم) ناطق بأنه من ترتيب الإخبار، لا من الترتيب فى الوجود، إذ كان القتل هو عين التوبة، وإلى هذا ذهب الكثير من المفسرين، فجعلوه من عطف المفصّل على المجمل، وتأول بعضهم التوبة بالعزم على سبيل المجاز المرسل، لتصحيح معنى الترتيب الوجودى فى الفاء، وكأن المعنى: فاعزموا على التوبة، فاقتلوا وهو فى نظرى تكلف، دعا إليه الجرْى وراء وجه يُبقى الفاء فيه على دلالتها الوضعية، مفيدة الترتيب الزمنى.

---

(١) حاشية السعد ٢/ ٦٧٢.

(٤) تفسير الطبرى ٢/ ٧٢.

إن الطريق إلى التكفير عن جرائم بنى إسرائيل، وظلمهم أنفسهم بالمعاصى هو التوبة، وهو ما دعا إليه موسى بنى إسرائيل، ولما كانت جرائمهم بلغت حداً من الفظاعة تجاوز كل تصور، شدد الله تعالى عليهم فى نوع هذه التوبة، بما يتناسب مع عظم جناياتهم، فاحتاجت إلى البيان، وهو (فاقتلوا أنفسكم). ولما كان المعطوف نوعا غريبا غير معهود فى التوبة عطف بالفاء، للإشارة إلى تفاوته عن المعطوف عليه، وأنه درجة من التوبة، لا يقدر عليها إلا من صحَّ عزمه على تطهير نفسه، وعتقِها من عذاب النار. فهو تفاوت مجازي بين العزم على الإقلاع من الذنوب واللجوء إلى الله، وبين قتل النفس في الشدة والدلالة على كمال التوبة، وهو أحد وجوه ذكرها صاحب الكشاف حين قال: (ويجوز أن يكون القتل تمام توبتهم، فيكون المعنى: فتوبوا فأتبعوا التوبة القتل تتمة لتوبتكم)[1] وسواء فُسِّر قوله هذا بأنه من عطف الخاص على العام، أم من عطف البيان، فإن الفاء بدلالتها على التدرّج الرتبى أبرزت غرابة هذا الفعل، وامتيازه عن التوبة المعهودة، حتى صار لشدة غرابته شيئا آخر كلفوا به فوق التوبة.

وبمثله فسّر الشهاب الخفاجى عطف التكذيب بالفاء، في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩] فقال (ويجوز أن يكون معنى الأول: قصدوا التكذيب وابتدؤوه، ومعنى الثاني: أتموه وبلغوا نهايته)[2].

فالتكذيب الأول دون ما عطف عليه، حيث ازدادوا عنادا وإصرارا على الكفر، حتى وصل معه الأمر إلى اتهام النبى الكريم بالجنون، ففى قول الشهاب (أتموه وبلغوا نهايته) إفصاح عن سر الفاء، حيث ترقّت من تكذيب إلى تكذيب أتم وأبلغ، ألا ترى كيف حذف المفعول فى الأول، تركيزا على فعل التكذيب، وذُكِر فى المعطوف بلفظ العبودية المشرفة للموصوف بها، وأضيف إلى المعبود،

---

(١) الكشاف ١/ ٨٢١.

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ١٢٢.

فأضفى على المعطوف درجة من التعظيم، جعلت التكذيب فيه أشد وأبلغ، فدخلت الفاء دالة على التفاوت بين المتعاطفين.

وفى مقام التعظيم، جاء قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٥] (قال الزمخشرى: (فالذين هاجروا) تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم)[١] فإن الفاء دلت على عظم درجة المهاجرين والمجاهدين فى سبيل الله وكأنهم فاقوا العاملين فى درجتهم عند الله تعالى حتى صاروا جنسا مستقلا عنهم، لذلك أطنب فى أوصافهم بما يظهر فضلهم. ودلت الفاء على التفاوت فى الفضل وكمال العمل فى الهجرة والجهاد.

---

(١) الكشاف ١/ ٤٩٠.

الفاء وطَيُّ الزمن

التعقيب من المعاني التي اختصت بها الفاء، وبه وحده امتازت عن شقيقتها (ثم)، ويقصد بالتعقيب: وقوع المعطوف بعد المعطوف عليه بلا فاصل زمني. (فإذا قلت: قام زيد فعمرو، دلت على أن قيام عمرو بعد زيد بلا مهلة. فتشارك (ثم) في إفادة الترتيب، وتفارقها في أنها تفيد الاتصال، و(ثم) تفيد الانفصال)[1].

ولكون التعقيب لازمًا في الفاء، وبه يتعلق الغرض من الكلام، بحسبانه أمرًا زائدًا على مجرد الإثبات، قال الرضي: (فإذا نفيت مثلاً قولك: (جاءني زيد فعمرو)، فقلت: (ما جاءني زيد فعمرو)، فأنت نافٍ لتعقيب مجيء عمرو لمجيء زيد، فيمكن أن يحصل المجيئان في حال، وأن يحصل مجيء عمرو قبل مجيء زيد)[2].

وهو كلام دقيق في فهم المعاني، ليس لدى أهل البيان عليه مزيد، غير أن هذا الذي جعله النحاة أصلاً في معاني الفاء، وبه ميزوها عما سواها من حروف العطف، لم يطّرد لهم عند التطبيق على لسان العرب، فلم يجدوا بدًّا من التوسع في معنى التعقيب، فقالوا (هو في كل شيء بحسبه، ألا ترى أنه يقال: تزوج فلان فولد له، إذا لم يكن بينهما إلا مدة الحمل، وإن كانت متطاولة، ودخلت البصرة فبغداد، إذا لم تُقم في البصرة، ولا بين البلدين، وقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣].

وقيل: الفاء في هذه الآية للسببية، وفاء السببية لا تستلزم التعقيب، بدليل صحة قوله: (إن يسلم فهو يدخل الجنة) ومعلوم ما بينهما من المهلة، وقيل: تقع الفاء تارة بمعنى (ثم) ومنه الآية[3].

---

(١) الجنى الداني ٦١.
(٢) شرح الكافية ٢/٣٦٦.
(٣) مغني اللبيب ١/١٢٦.

وهكذا تفاوتت الآراء فى تفسير ما خالف ظاهره التعقيب، بين الاتساع فى مفهوم المهلة، والقول بعدم لزوم التعقيب، ووقوع الفاء موقع (ثم).

وخير ما قيل فى تفسير التعقيب والتراخى، وربطهما بدواعى الأحوال ومقتضيات السياق، ما قاله صاحب الفرائد، فأطبق به المفصل: «التعقيب والتراخى ربما يكون باعتبار قِصر الزمان الفاصل وطوله فى نفسه، من غير لحاظ الشيئين المفصولين، وقد يلاحظ فى ذلك حالهما، وحينئذ ربما يستقصر الزمان الطويل بين شيئين، فيؤتى بالفاء لكون العادة مقتضية لمثله، أو أزيد منه، ويستطال القصر بين آخرين، فيؤتى بثم لاقتضاء العادة أقل منه، يقال: فلان تزوج فولد له، والفصل بينهما بشهور، وأكل ثم شرب، والفصل بساعات، ثم إنه يستقصر الزمان بين شيئين تارة لاعتبار مناسب، فيؤتى بالفاء، ويستطال ذلك الزمان بعينه بين ذينك الشيئين أخرى، لاعتبار آخر، فيؤتى بثُمّ، وربما يكون الإتيان بالفاء باعتبار قلة الفاصل من الزمان بينهما، وبثم باعتبار كثرة التفاوت فى الدرجة، أو بالفاء لقلة التفاوت، وبثم لكثرة الفاصل»[1] هذا كلام تتطامن لدقته وروعته الرءوس. ولم أجد لمثله شبها عند من عالج مواقع الفاء، والتباسَها بمواقع (ثم)، وأروع ما فيه أنه جعل الزمن إحساسًا، وتقديرُ لحظاته بنبضات القلب وخفقات الشعور، لا بحركات العقارب وامتداد الظل وانحساره، فما يستقصر فى ساعات الأنس والسعادة، يستطال ما هو دونه، حين تقبض الهموم على الأنفاس، وتعتصر النفوسَ آلامُ الوحشة والاغتراب، فإذا كان الكلام الجيد هو الذى يصطبغ بأحوال النفوس، ويعكس صفاءها وكدرها، ويجسّد حركتها فى جزْرها ومدّها، فلا غرو أن تنعكس على هذه الحروف ظلال الانقباض والانبساط فى النفس، وأن ينقل لنا حرفا التعقيب والمهلة إحساس المتكلم بالزمن قبضا وبسطا، وحينئذ فلا عجب أن يختلف تقدير زمن واحد بعقارب الساعة، فيستطال عند متكلم، ويستقصر عند آخر، مادامت الحروف تعكس الإحساس، لا ترصد عقارب الساعة.

---

(١) الفوائد فى شرح الفوائد ٢٤.

ومعظم ما قبل -عدا هذا الذى ذكره صاحب الفـرائد- فى تفسير مخالفة الفاء لظاهر ما يقضي به معناها من التعقـيب، كان يقف عند الصحة والجواز، وينتهى دون البحث عن أسرار هذه المخالفة، وحسبك أن تقرأ ما قاله الرضى، وهو فى معالجته لمسائل النحو أقرب ما يكون إلى ذوق أهل البيان: (ثم اعلم أن إفادة الفاء للترتيب بلا مهلة، لا ينافيها كون الثانى المترتب يحصل بتمامه فى زمان طويل، إذا كان أول أجزائه متعقبًا لما تقدم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣]. فإن اخضرار الأرض يبتدئ بعد نزول المطر، لكن يتم فى مدة ومهلة، فجيء بالفاء، نظرًا لأنه لا فصل بين نزول المطر وابتداء الاخضرار، ولو قال: ثم تصبح، نظرًا إلى تمام الاخضرار جاز[1].

فإن قوله بصحة وضع «ثم» موضع الفاء، بالنظر إلى تمام الاخضرار، يقصر عما رَمَقه صاحب الفرائد من سماء البلاغة، فى وجوب اختصاص كل حرف بموضعه الذى يقضى به السياق، وتوجيه الدواعى والأغراض، بحيث لو وضع فى مكانه غيره لضاق به مكانه ولفظه، وسيجيء لهذا حديث فيما اشتبه لفظه وتجاذبه حرفا التعقيب والتراخى.

هذه الاعتبارات التى أوجزها الجونفورى هى التى نعالج بها ما بدا من خروج الفاء على ما ألفناه فيها من الموالاة بين الأحداث.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٥- ٣٦].

فما بين نهى الله آدم وزوجه عن قرب الشجرة، وبين الإزلال والإخراج زمن طويل، أدى إلى نسيان آدم ما أوصاه الله به، على ما جاء فى قوله تعالى من سورة طه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه: ١١٥]، لكن هذا الزمن

---

(١) شرح الكافية ٢/ ٣٦٧.

الطويل بالنسبة إلى ما كان يتمناه من طول الإقامة فى الجنة، وإلى إحساسه بالسعادة والنعيم فيها هو جدّ قصير، وأيام السعادة -مهما طالت- تستقصر، هذا إلى جانب ما يستدعيه موقف العتاب واللوم، من إظهار آدم فى صورة من أسرع إلى الاستجابة لإغواء الشيطان، ولم يطل به زمن التردد والصدود عما دعاه إليه، وذلك أكثر إيلامًا وإيجاعًا لمن وُجّه إليه العتاب.

لقد طوت الفاء هذا الزمن الطويل، وأخفته بدلالتها على التعقيب، لتحقق هذا الغرض، فإذا أردت تفسير ذلك على قواعد الصناعة، فقل: إن التعقيب هنا مجازى، ينزل فيه الفاصل الطويل من الزمن منزلة القليل منه للاعتبارات المذكورة، فالفاء هنا مستعارة للدلالة على سرعة الاستغواء والإحساس بقصر الزمن.

وإلى بعض ذلك أشار صاحب التحرير والتنوير حين قال: (الفاء عاطفة على قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾، وحقها إفادة التعقيب، فيكون التعقيب عرفيًا، لأن وقوع الإزلال كان بعد مضيّ مدة، هى بالنسبة للمدة المرادة من سكنى الجنة كالأمد القليل[1].

وانظر إلى خلابة الفاء وحسن موقعها، حين تطوى من الزمن ما لا يمكن تقديره بغير الإحساس، فى الفترة ما بين الموت والبعث، التى تكرر فى القرآن استقصارها فى خطاب الكافرين، كما فى قوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: 112- 114].

هذا الزمن الطويل تطويه الفاء فى مقام التهويل من شأن عذاب الآخرة، فى قوله تعالى، وصفا لما حلّ بقوم نوح من العذاب: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح: 25].

---

(1) التحرير والتنوير 1/ 433.

فما بين الغرق وإدخالهم نار جهنم زمن متناه فى الطول، لكنه بالنسبة إلى ما سيلاقونه فى عذاب جهنم لا يدخل فى عداد الزمن، حتى إنهم ليتمنون -لسوء ما ينتظرهم- ألا تقوم قيامتهم. والفاء فى طيّها لهذا الزمن تفظيعًا لما أعقبه، تؤدى دورها فى تعقيب مجازى، يحقق غايتين: أولاهما الدلالة على تحقق عذاب جهنم، وتنزيل المتوقع منزلة الواقع، وثانيهما: عدم الاعتداد بما دونه من ألوان العذاب، كعذاب القبر، حتى يصير بالنسبة إلى عذاب جهنم كلا عذاب.

وقد أحسن الألوسى بيان هذا التجوز فى قوله: (وهو على هذا لعدم الاعتداد بما بين الإغراق والإدخال، فكأنه شبه تخلّل ما لا يعتدّ به، بعدم تخلّل شىء أصلًا)(١).

وفى مقام خرق العادة يتلاشى الزمن بين أصابع القدرة الإلهية، ويضمر الوقت، ويختفى فى أحشاء الخوف من مستقبل منذر بأخطار محدقة، تجد ذلك فى قوله تعالى حديثًا عن مريم عليها السلام: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٢- ٢٣].

لا شك أن زمنًا -مهما قيل فى قصره- قد تخلل بين حمل مريم ومخاضها، وأن هذا الزمن فيه من المهلة ما يخالف مواقع الفاء، ولكن لما كانت العادة أن يستغرق الحمل شهورًا عديدة، فأى اختصار فى الزمن يتحقق معه خرق العادة هو بمنزلة انعدام الزمن، ولا ينهض بالتعبير عنه، والمبالغة فى تصوير قصره غير هذه الفاء، هذا إلى جانب ما أخذ مريم من الدهشة لحدوث هذا الحمل الغريب، واختلاطها بمشاعر الخوف مما سيواجهها من قومها، ورميها بما هو أقسى من الموت لدى الحَصان البتول، إذا ما أتت حاملة وليدها، على ما نمّ به قولها ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾، والخوف من المستقبل يأكل زمن الحاضر ويطويه، فلا يحس به الخائف، لانشغاله بما يملك عليه حسّه وشعوره.

---

(١) روح المعانى ٢٩/ ٧٠.

ثم انظر إلى هذا التواصل الفكرى والشعورى بين المكذِّبين من الأمم، وحذو كلّ أمة سابقتَها فى فعالها، وكأنها ترقبها فتحتذيها، تطابق النَّعل بالنَّعل، على بعد ما بينهما من الأزمان والمسافات، فتطوى الفاء صفحات الزمن لتبرز قوّة التشابه بينهم فى السلوك، وشدة المحاكاة فى التكوين الفكرى، وكأنهم يعيشون فى زمن واحد، ويردد أصداءهم فضاءٌ واحد، ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩].

تأمل قوله ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ﴾ وكيف عدل عن الواو -وهذا موضعها- فلم يقل: ﴿واستمتعتم بخلاقكم﴾ ليحقق الغرض من إبراز الاتصال بين المخاطبين من المشركين، ومن سبقهم من الأمم المكذّبة، فينمحى الزمن، ويختفى وراء هذا التواصل الفكرى والنفسى. ألا ترى كيف أكد هذا التشابه والاحتذاء بثلاثة تشبيهات، كلها تتلاقى حول إبراز هذا التواصل فى التفكير وأنماط السلوك: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾. ﴿فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ﴾. ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾؟ ولعل إفراد اسم الموصول ﴿كَالَّذِي﴾ فى مقام الجمع، ماض إلى الغاية من وحدة الفكر والهوى، حتى لكأنهم فرد واحد.

إنها متابعة فى الأفعال حذو القُذّة بالقُذَّة، واندفاع بلا تريُّث أو نظر، كما تراه فى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩- ٧٠].

فانظر كيف تعانقت الفاء مع الفعل «يهرعون» للإشعار بالمسارعة إلى اعتناق دياناتهم وأفكارهم، دون أدنى تأمل واستبصار؟

وضع ذلك إن شئت -على طريقة أهل الصناعة- فى صورة مجاز بالاستعارة، ينزل فيه الإسراع إلى المحاكاة والتقليد بلا تأمل واستبصار، منزلة التعاقب الزمنى، بلا مهلة.

إنك لتدهش من هذه الفاء، وهى تطوى الزمن فتريك من آيات الله عجبًا، تنشر الحياة بسرعة لا تكاد العين تلاحقها فى موضع، وتقلب الأخضر يابسًا، والحى ميتًا، قبل أن يرتدّ إليك طرفك فى موضع آخر.

فها هى ذى تصل الماء بالأرض، فيتحول -فى لحظة- موتها حياة، ويتبدّل جدبها خضرة. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣]. ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

مسّت الفاءَ يدُ القدرة الإلهية، التى ينمحى معها الزمن، حين يتكوّن الشىء بالإرادة، ويقع بأمر التكوين، ويصبح الزمن بين أفعال الله معدوم الأثر، لتحقق ما يريده الله تعالى على الوجه الذى يريده، فلا يتخلف عما قضاه الله وقدره.

إبراز تحقق الوقوع، واتصال السبب بالمسبب على وجه لا يتخلف، هو الذى وضع الفاء فيما يبدو أنه موضع حرف التراخى. وما قيل من أن الفاء دخلت مراعاة لأول زمن الاخضرار الذى يعقب نزول الماء، لا يرتفع إلى سماء البلاغة المعجزة، إذ أن غاية هذا القول، هو تجويز تبادل الفاء وثم هذا الموقع، الأول بالنظر إلى بداية الاخضرار، والثانى بالنظر إلى تمام المدة.

هذه المدة التى نقلتنا بسرعة من نزول الماء إلى اخضرار الأرض، فى مجال تعديد النعم، وتوجيه الخلق بفكرهم وقلوبهم إلى المنعم الوهاب، نجدها تنقلنا بالسرعة نفسها من الحياة إلى الموت، ومن الجمال الأخضر إلى كآبة الجفاف والفناء فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ④ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى: ٤- ٥] والغثاء هو اليابس المتكسّر من النبات. والأحوى: الأسود، ولا جدال فى أن هذا المرعى من النبات الأخضر، لا يستحيل غثاء بالسرعة التى تعبر عنها الفاء، لكن النظم الكريم فى مقام يزهّد فيه من التشبّث بالحياة، والانكباب عليها، يركّز على سرعة الفناء، حتى لا تتعلق النفوس بها هذا التعلق، الذى أنكره على المخاطبين فى قوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ⑯ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٦- ١٧].

وهذا السبب نفسه هو الذى جاءت الفاء من أجله، فيما ضربه الله تعالى من الأمثال، المنفرة من الاغترار بالدنيا وزهرتها، كما فى قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

لقد أدت الفاء دورها فى رسم الصورة التى أرادها النظم الحكيم للحياة الدنيا، وضآلة نعيمها، فى جنب ما أعده الله تعالى للطائعين من النعيم المقيم، فهى زمنًا وحجمًا لا تستحق هذا الاغترار من الناس، وهم لا يتلبثون بها إلا يسيرًا، فما تدوم زهرتها أكثر من دوام نبات لم يكد يزهر حتى جفّ وذبل وذرته الرياح.

إن هذا الغرض من تقليل شأن الحياة الدنيا والنعى على المكبّين عليها، لا تحققه فى الصورة الممثلة، إلا هذه الفاء بطيّها للزمن، وتقصيرها للحكاية. فإذا جاء البغدادى وعلل دخول الفاء في قوله «فجعله غثاء أحوى» بقوله: «فإن قلت: لا تعقيب فى الآية، فإن الغثاء: اليابسُ المتكسر من النبات، والمرعى إنما يصير غثاء بعد مدة؟ قلت: إذا تمت خضرة المرعي ورفيفه أخذ فى الجفاف والذبول، وهذا أول صيرورته غثاء، وتعقيب كل شيء بحسبه»[1]، فإنه بذلك يعلل لصحة وقوع الفاء، ولا يكشف عن سرّ إيثارها على حرف المهلة.

إن حبس التعقيب فى قفص من التوالى الزمنى الحقيقى يضمر حركة الفاء ويطفئ إشعاعها، ويذهب بأشدّ مواضعها ثراء، حين تخلع ثوب الحقيقة، لتطوى من الزمن ما يثقل حركة الأحداث. إذا لم يكن للمتكلم قصد فى إنضاج الزمن لها. أو نقل إحساسه ببطء خطواته.

فالمتكلم هو الذى يملك التحكم فى حركة ذهن المخاطب، يبطئ بها أو يسرع، ويقص من شريط الزمن ما يرى أنه يلفت المخاطب عن تصور حجم الأحداث، والعُرَى التى تربط بينها.

---

(١) شرح بانت سعاد للبغدادي ١٧٣.

هذه الفاء الطاوية لمساحات الزمن أشبه بمقياس الرسم البياني على الخرائط، تصغّر فيه المسافات على نحو يمكن معه تصور سطح الأرض جميعها في صفحة من كتاب، وهذه الصفحة التي فرغت عليها مساحة الزمن هي مخيّلة المتلقي، التي تعبر من خلالها شرائط الأزمان الطويلة، ويطويها الذهن في لحظة من الزمن.

ولعل قريبًا من هذا ما قصد إليه أبو البقاء حين جعل التعقيب ثلاثة أنواع:

(التعقيب الزماني، كقولك: «قعد زيد فقام عمرو» لمن سألك عنهما، أهما كانا معًا أم متعاقبين؟ والتعقيب الذهني، كقولك: «جاء زيد فقام عمرو إكرامًا له» والتعقيب في القول، كقولك: لا أخاف الأمير فالملك فالسلطان» كأنك تقول: لا أخاف الملك، فأقول: لا أخاف السلطان[1].

وإليك أمثلة لهذه الفاء المصورة لسرعة وقوع الأحداث وتواليها، على نحو يخيل للقارئ والسامع، أنها بدأت وانتهت دون أن تتحرك عقارب الزمن.

قال تعالى ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

تأمل تلك الحركة البطيئة التي جمعت فيها الواو، بين صنوف من النعيم استغرقت مساحة عمر صاحب الجنة كلّه، فأثقلت هذه الواو حركة العرض، لتمكن المشاهد من تأمل ألوان الحياة الرخيّة الناعمة، وما حفلت به الجنة العجيبة من متع الحياة وملذاتها، ثم قارن ذلك بحركة الفاء، وهي تمحو الزمن من طريقها، لتقتلع هذه الجنة من الأرض، وتحيلها أثرًا بعد عين «فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت».

---

(١) الكليات ٣/ ٣٢٢.

أى مفاجأة وأى ذهول يمكن أن يرتسم على وجه مشاهد، طال تحديقه ببصره في هذه الجنة، واستمتع بجمالها وبهائها، إذا ما التفت فرآها قد أزيلت من الوجود؟ أو يكون هناك تحذير أبلغ من هذا التحذير، لمن يحبطون أعمالهم الصالحة بما يتبعونها من المن والأذى. فتذهب كما ذهبت هذه الجنة فى طرفة عين؟ سرعة الهلاك بعد طول الرخاء، ذلك ما جسّدته الفاء والواو فى الصورة الممثَّلة.

ثم انظر إلى هذه الفاء فى مقام التسجيل على الكافرين، وتقبيح أعمالهم، كيف تبرز بشاعة الجرم، حين يقابلون نعم الله بالكفران، ويسيئون إلى المنعم قبل أن يجفَّ ندى إحسانه من أيديهم: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

ففى قوله ﴿كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ ما يشعرك بأن القرية ظلت رَدْحًا من الزمن تنعم بثمرة إيمانها، فى ظل رغد من العيش، وقوله ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ تطوى فيه الفاء هذا الزمن، لما أن سوء العاقبة يمحو أثر النعمة، حتى لكأن صاحبها لم تمرّ به سعادة قط، وتعقيب النعمة بالكفران يبرز فظاعة الجرم من وجهين: أولهما أنه يقضى على أى تصور لشكر المنعم، كما لو عطف بحرف التراخى، المشعر بأن الكفر وقع بعد مهلة من الزمن، وثانيهما قبح مقابلة الإحسان بالإساءة، حين يكفر الآخذ نعمة المعطى ولاتزال العطيَّة في يده. فذلك من الدناءة والخسة ما تجمع عليه العقول والطباع، وتأمل الفاء فى قوله ﴿فَأَذَاقَهَا﴾ وكيف طوت من الزمن ما نعهده من إملاء الله تعالى للكافرين، وكأن عذاب الله قد حلّ بهم منذ أن نطقت ألسنتهم بالكفر، وأعمالهم بالجحود، حتى لا يستهين المضروب لهم المثل بما يهددهم الله به من العذاب، ويستنيموا إلى حلم الله فى تأجيل العقوبة. فكل زمن -مهما طال- مع العصيان، إلى جانب ما يعقبه من عذاب الله جدُّ قصير.

وهذه فاء أخرى لها مذاق آخر في طيّها للـزمن، تبرز الحركة السريعة والتوافر الجادّ على العمل، دون فتور أو انشغال عنـه، فينجزه صاحبه في وقت من شأنه ألاّ ينجز فيه، فتقع الفاء دالة على المبالغة في سرعة إتمامـه. يقول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٤- ٢٧].

ليس مثل الفاء في قوله ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ حرف ربط آخر يعبّر عن سماحة نفس إبراهيم وطواعيتها لبذل الخير، وجدّه في إكرامه لضيفه، فينهب الزمن نهبًا، ليقدم لضيفانه أعظم ما عنده، دون ريث أو انتظار، حتى لكأنهم لم يفتقدوه، فيما بين ترحيبه بهم وتقديم العجل لهم. إنها نفسٌ فيّاضةٌ بالخير، تفجر طاقات الجوارح لتحقيق ما أرادت، فيما لا تستطيع النفوس الشحُّ إنجازه حتى لو أرادت، وهذا هو معنى ما أشار إليه صاحب الفرائد من استقصار الزمن، حين يكون في الفعل خروج عن العادة في مثله.

وأخيرًا هذه الفاء التي طوت ثلاثة أشهر من الزمن أو ما يقابلها من حيضات ثلاث، هي مدة المعتدّة من الطلاق، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾ [البقرة: ٢٣١].

فللفاء في قوله ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ -وبلوغ الأجل لا يكون إلا بانتهاء العدة- من السحر والخلابة ما لا تجده في غير النظم المعجز. ذلك أن الآية -كما يقول ابن عطية -(خطاب للرجال، لا يختص بحكمه إلا الأزواج، وذلك نهي للرجل أن يطوّل العدة على المرأة مضارة منه لها، بأن يرتجع قرب انقضائها، ثم يطلق بعد ذلك)[1].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٥.

وكـأنى بهذه الفـاء تفـوّت على الزوج المعتـدى فـرصة التـلاعب بالزمن، ومماطلة زوجه إضراراً بهـا، فتسرق منه زمن العـدّة كله، قبل أن يفيق ليكرر عدوانه.

ثم إن فيهـا شائية تحذير من الاسـتهانة بالزمن، وتضييـع الفرصة لمن أراد الاستمساك بأهـله، ووَصْل عُرى المودة، حتى لا يفوت الوقت على من أراد المراجـعة، ويصـبح مُحـالاً ما كـان ممكنًا، بعد مـا تَبِينُ الزوجـة، وتتـعذر المراجعة.

الفاء ومَطْل الزمن

مطّ الزمن ومَطْلُه معنى غريب على الفاء التي وضعت لعكسه، وأشهد أنني توقفت أمام هذا المعنى طويلاً، وأنا أتأمل الفاءات في الكتاب العزيز، وألتقط الإشارات التي تهمس بها في سياقها حينًا، والإشارات العابرة التي ترد في كلام العلماء حينًا آخر. وكانت أول إشارة قادتني إلى هذا المعني، وصرفت همتي إليه قد وردت في عبارة موجزة لا تتجاوز عدة أسطر، في مقال من سلسلة مقالات للأستاذ الكبير الشيخ محمود شاكر، بعنوان «نمط صعب ونمط مخيف» نشرت في مجلة المجلة. فقال عند تحليله لأبيات الشاعر

يركب الهول وحيداً، ولا يصحبه إلا اليماني الأفلُّ

وفُتُوٌّ هجَّروا، ثم أسروا ليلهم، حتى إذا انجاب حلُّوا

كل ماض قد تردّى بماض، كَسَنا البرق إذا ما يُسَلُّ

فادَّركنا الثأرَ منهم، ولم ينج مِلْحَيَّيْنِ إلا الأقلُّ

فاحتسوا أنفاس نوم، فلما هوّموا رُعْتُهُمْ فاشمعلّوا

قال الشيخ في بيان سر الفاءات: «فادَّركنا. فاحتسوا. فلما هوَّموا»:

(أما الفاءات التي بدأت منذ البيت الثالث عشر، وتتابعت حتى آخر مقطع الغناء، فهي التي أكسبت الغناء هذا التحدُّر والتدفّق، لأن الفاء تحرك الزمن في الفعل الماضي، وتمطله، حتى تبلغ به أول الزمن في الفعل الذي يليه، وهكذا دواليك، حتى تنقطع الفاءات، وأنت واجد فرقًا لا يوصف في حركة الزمن، بين قولك: نام، وأفاق، ولبس ثيابه، وخرج، ولقى صديقه، وانطلق. وقولك: «نام فأفاق فلبس ثيابه، فخرج، فلقى صديقه فانطلق». وهذا الذي وصفتُ زيادة على ما قاله النحاة من أن الفاء تُفيد مجرد الترتيب. ومن تأمل «الفاءات» في كتاب الله سبحانه وتعالى رأى عجبًا)[1].

---

(1) مجلة المجلة ص ١٦، الحلقة الخامسة- العدد ١٥٥ نوفمبر ١٩٦٩.

هذا كل ما قاله الشيخ فى الفـاء، وهو -على إجمـاله- كاف فى الإشـارة إلى ما قصد إليه. وفى عبارته: «ومن تأمل الفاءات فى كتاب الله سبحانه رأى عجبًا» دعوة إلى تلمّس مثل هذه المعانى فى النظم الكريم.

تتبعت -على ضوء هذه الإشارة- ما قـاله اللغويون والنحاة فى معانى الفاء، فوجدت قريبًا مما أثبته الشيخ، فيما ذكروه لها من معنى الغاية. قال القرطبى فى قوله تـعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]: (والفاء بمعنى إلى، أى إلى ما فوقها، وهذا قول الكسائى والفراء أيضًا)[١].

ونسب ابن هشام مثل هذا القول إلى بعض البغداديين، فى قول امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللِّوى بين الدخـول فحومل

وبرغم استغراب ابن هشام لهذا المعنى، فإنه استأنس له بما يؤيده، وإليك نص عـبارته: (قـال: والفاء نـائبة عن «إلى» ويحـتاج عـلى هذا القول إلى أن يقـال وصحت إضافة «بين» إلى «الدخُول» لاشتماله على مواضع، أو لأن التقدير: بين مواضع الدخول. وكون الفاء للغـاية بمنزلة «إلى» غريب. وقد يستأنس له عندى بمجىء عكسه فى نحو قوله:

وأنتِ التى حبَّبت شَغْبـا.. إلى بدا   إلىَّ وأوطـانى بلاد سـواهمـا

إذ المعنى: شَغْبا فبدا، وهما موضعان. ويدل على إرادة الترتيب قوله بعده:

حـلّت بـهـذا حلة ثم حلة   بهـذا فطاب الواديان كـلاهمـا

وهذا معنى غريب، لأنى لم أر من ذكره)[٢].

والحق أن الفـراء ذكره فى الآية التى مـثّلنا بهـا، وقال: إن هذا الوجـه أحبُّ إلىّ[٣] وذكره الهروى، وحرر عبارته تحريرًا دقـيقًا حين قال: (وتكون نسقا بمعنى

(١) تفسير القرطبى ١/٢٠٨.
(٢) المغنى ١/ ١٦٢.
(٣) معانى القرآن ١/ ٢٢

«إلى»، كقولك: «مطرنا بين الكوفة فالقادسية»، المعنى: إلى القادسية، ولا يجوز أن تقول: دارى من الكوفة فالقادسية، لأن دارك لا تكون آخذة ما بين الكوفة إلى القادسية. وإنما تصلح «إلى» إذا كان ما بين الكوفة والقادسية، كله من دارك. وكذلك محال أن تقول: «جلست بين زيد فعمرو»، إلا أن يكون مقعدك آخذا للفضاء الذى بينهما)(١).

وجه اتصال هذا المعنى بما قال الشيخ محمود شاكر، أن قولك: أمطرنا بين الكوفة فالقادسية بجعل الفاء للغاية، يدل على استمرار هذا المطر وتتابعه، من مبدأ سيرهم من الكوفة إلى القادسية. وهذا دليل على طول زمن سقوط المطر وامتداده، حتى انتهوا إلى المعطوف وهو القادسية.

ونتأمل الفاءات فى كتاب الله تعالى، فتتوالى النماذج التى تطيل الفاء فيها زمن الفعل المعطوف عليه، وتحركه لتصله بزمن المعطوف، مضمنة الفعل الأول معنى الاستمرار، المستغرق لمساحة زمنية طويلة، دون فتور أو انقطاع، وخاصة فيما يرويه الله تعالى من قصص الأنبياء مع المكذبين من أقوامهم.

من ذلك قوله تعالى فى قصة نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

فالفاء الأولى فى قوله «فلبث» تدل على التعقيب الذى يبدأ به عمر الرسالة، مما يدل على أن العدد المعيَّن من السنين هو عمر دعوته لقومه، وليس عمره الشخصى على ما زعمه البعض. ثم جاءت الفاء الثانية لتمط زمن اللبث وتطيله، تحقيقًا للغرض من تسلية الرسول عليه السلام، وقد ضاق صدره بطول صدود قومه، وكأنه يقال له: أتضيق بتكذيب قومك سنوات، وقد صبر نوح على أذى قومه وتكذيبهم قرونًا عديدة، لم ينقطع عنه تكذيبهم لحظة، إلى أن أخذهم الله بما استحقوه من العذاب؟!

---

(١) الأزهية فى علم الحروف ٢٤٤.

تجاوب مطل زمن مكثه بينهم واستمراره على دعوته، مع صيغة العدد، التى بدئ فيها بالألف ليكون أول ما يقرع السمع، فيخيل من طول المدة ما لا ينهض به لو قيل: فلبث فيهم خمسين وتسعمائة، يعاونهما فى هذا المطل للزمن الإطناب بذكر «عامًا» وهو مفهوم من قوله «ألف سنة»، ليتناغم طول اللفظ مع طول ما عبّر عنه من الزمن، وذلك ضرب آخر من الإعجاز.

هذا المعنى الذى خلعته الفاء على الفعل قبلها، ونفخت فيه من روح التعقيب، ليمتد ويتنامى حتى يتصل بانتقام الله تعالى من المكذبين، امتداحًا لروح الإصرار وصدق العزيمة فى نبى الله، ودعوة إلى التأسي به، هو الذى اقتضى دخول الفاء، بحيث لو وضعت «ثم» موضعها، لتلاشى الغرض من وصل إقامته على الدعوة ومتابعته لها بزمن الإهلاك، ولكان الغرض حينئذ الدلالة على أن الإهلاك كان بعد طول إمهال، وأن الله تعالى أرخى لهم العنان ليأخذهم شر أخذة، وهو معنى آخر لم يقصد إليه النظم.

ألا ترى حين أريد هذا المعنى من الإملاء، ومقابلة مكر المكذبين بمكر أشد، استدراجا لهم، ليزدادوا كفرًا، فيضاعف الله لهم العقاب، جاءت «ثم» فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد: ٣٢].

وبسط ذلك أن الغرض فى الجمل التى تعطف بالفاء أو ثم يتوجه إلى التعقيب أو التراخى باعتبار كل منهما معنى زائدًا على مجرد الإثبات، فالجملة -كما قرر أهل البيان- إذا تعلق بها أمر زائد، كان هو محط الفائدة، والغرض من الكلام. فمع الفاء يكون المعنى على اتصال لُبْثه فيهم هذا الزمن الطويل بإهلاكهم، دون فتور أو انقطاع، فينصرف الغرض إلى امتداح نوح على استمراره فى دعوته دون ملل أو يأس، وذمّ المكذبين الذين لم يثوبوا إلى رشدهم على مر القرون.

أما مع «ثم» فالمعنى على تراخى الهلاك عن زمن مكثه بينهم، فيتجه الذهن إلى أن الله لم يبادر بإهلاكهم، بل أمهلهم واستدرجهم، لينزل بهم أشد العذاب وأقساه.

فلما اجتمع مع الفاء أمر زائد على الإثبات والتعقيب، وهو القيد بالحال، سلط التعقيب على هذا القيد، في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ۝٨٥ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [طه: ٨٥ - ٨٦] حيث لم يكن رجوع موسى متعقبًا لوقوع الفتنة، وإنما كان رجوعه بعد تمام المدة التى ضربها الله لموسى، وهى أربعون يومًا، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١]. وقد استوفى الكلام فى هذه الفاء أبو السعود رحمه الله، فقال: («فرجع موسى إلى قومه» عند رجوعه المعهود، أي بعد ما استوفى الأربعين، وأخذ التوراة، لا عقيب الإخبار بالفتنة، فسببية ما قبل الفاء لما بعدها، إنما هى باعتبار قيد الرجوع المستفاد من قوله تعالى: ﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾، لا باعتبار نفسه، وإن كانت داخلة عليه حقيقة، فإن كون الرجوع بعد تمام الأربعين أمر مقدر مشهور، لا يذهب الوهم إلى كونه عند الإخبار بالفتنة، كما إذا قلت: شايعت الحجاج ودعوت لهم بالسلامة، فرجعوا سالمين، فإن أحدا لا يرتاب فى أن المراد رجوعهم المعتاد، لا رجوعهم إثر الدعاء، وأن سببية الدعاء باعتبار وصف السلامة، لا باعتبار نفس الرجوع)[1].

هذا الكلام الدقيق يقصه أن نقول: إن غضب موسى على قومه لم ينقطع، منذ سماعه بافتتانهم حتى عاد إلى قومه، بل ظل حيًا تموج به نفسه، ويغلى الدم فى عروقه، من حماقة قومه وسفههم، مما جعله يلقى الألواح ويأخذ برأس أخيه فور عودته، ودخول «ثم» بين علمه بعبادة قومه للعجل ورجوعه إليهم، يذهب بجذوة هذا الغضب، كما أراد القرآن أن يصوره، فدخلت الفاء الدالة على اتصال رجوعه غاضبًا بعلمه، لتنقل لنا ثورة غضبه حيّة متأججة.

مثل هذه الفاء التى تحرّك زمن الماضى وتمطله إلى زمن المعطوف، نراها فى النظم الحكيم تحتكر المواطن التى يرتّب الله فيها الإهلاك على تكذيب الأمم لأنبيائها، تركيزًا على استمرار التكذيب، والتمادى فى الكفر، بحيث لا تردهم عنه النذر، ولا تغنى الآيات حتى يحل بهم العذاب، وجميعها وقع فيها التكذيب والكفر بصيغة الماضى الذى مدّت الفاء زمنه، ووصلته بنزول العذاب. وإليك بعضًا من نماذجها:

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٣٤.

قال تعالى: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٤].

وقال: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٣٩].

وقال: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

وقال: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٧].

وقال: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [النحل: ١١٣].

تأمل التكذيب حين يقع بين فاءين، تجذبه الأولى للدلالة على المبادرة بالتكذيب دون ريث أو تأمل فيما يُدْعَوْنَ إليه للتعرف على وجه الحق فيه، وتمطه الفاء الثانية لتصله بوقت نزول العذاب، موحية بأنهم اعتادوه واستغرقوا فيه، حتى فاجأهم ما لم يكن فى حسبانهم، فأخذهم بغتة وهم لا يشعرون.

وهذه الفاء نفسها هى التى مدّت زمن الكدح، ومطلته، وخلعت عليه صفة الدأب والاستمرار فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦]. حاول أن تقطع المعطوف عن المعطوف عليه، وقل: إنك كادح إلى ربك كدحًا، فستجد أن المعنى قد تغيّر، وصار تأكيد الكدح مقطوعًا عن الزمن، وحاول ثانية أن تضع الواو موضع الفاء، فتقول: «وملاقيه» فإنك ستضيف إلى تأكيد الكدح خبرًا آخر بوقوع الجزاء عليه، ويكونان خبرين مستقلين. ثم حاول أخيرًا أن تضع حرف المهلة بدلاً من الفاء لتقول: ثم ملاقيه، فسوف ترى أنك وضعت فاصلاً زمنيًا يقطع الكدح عن لقاء الله ومجازاته، فإذا عادت الفاء إلى مكانها اتصل الكدح بلقاء الله أو بمجازاته، على النحو الذى أراده الله من بيان الحكمة فى خلق الإنسان ليعمر الأرض بكفاح دائم متصل، لا ينقطع إلا بانقطاع آخر أنفاسه. يكدح مستيقظًا، ويكدح ذهنه باستعراض همومه نائمًا، ويتواصل العمل والكفاح، إلى أن يتنقل المرء من دار العمل إلى دار الجزاء. وذلك هو إشعاع حرف التعقيب فى موقعه هذا من القرآن المجيد.

هذه الظلال للفاء تجدها في قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣] حيث عطف «هدى الله الذين آمنوا» بالفاء على «اختلفوا» وبينهما أزمان طويلة، فأومأت الفاء بقدرتها على مط زمن الفعل المعطوف عليه إلى أن هذا الخلاف قد طال أمده، واستمر بين أهل الكتاب حتى جاء الإسلام، فهدى الله المؤمنين إلى الحق فيما ظلوا فيه مختلفين، وإلى هذا المعنى ذهب صاحب التحرير والتنوير، غير أنه لجأ إلى تقدير محذوف أفصحت عنه الفاء، وهو فى نظرى تقدير غايته تصوير المعنى وتقريبه، وإلا فإن الفاء دلّت عليه بوصلها زمن الاختلاف بزمن الهداية، فكان هذا الاتصال دليل بقاء الاختلاف إلى زمن المعطوف. يقول الشيخ ابن عاشور (هذا العطف يحتمل أن الفاء عاطفة على «اختلفوا فيه» الذى تضمنته جملة القصر. قال ابن عرفة: عطف بالفاء إشارة إلى سرعة هدايته المؤمنين بعقب الاختلاف. اهـ. يريد أنه تعقيب بحسب ما يناسب سرعة مثله، وإلا فهدى المسلمين وقع بعد أزمان مضت، حتى تفاقم اختلاف اليهود، واختلاف النصارى. وفيه بعد لا يخفى. فالظاهر عندى أن الفاء فصيحة، لما علم من أن المقصود من الكلام السابق التحذير من الوقوع فى الاختلاف، ضرورة أن القرآن إنما نزل لهدى المسلمين للحق فى كل ما اختلف فيه أهل الكتب السالفة، فكأن السامع ترقب العلم بعاقبة هذا الاختلاف، فقيل: دام هذا الاختلاف إلى مجيء الإسلام، فهدى الله الذين آمنوا.. إلخ. فقد أفصحت عن كلام مقدر، وهو المعطوف عليه المحذوف، كقوله تعالى: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ﴾[1] [الأعراف: ١٦٠].

فنحن نتفق معه فى الدلالة على دوام الاختلاف واستمراره إلى الزمن الذى هدى الله فيه المسلمين إلى الحق، ولكننا نختلف معه فى تقدير فعل محذوف، ونرى أن الدوام لازم الاتصال بين الفعلين بأداة التعقيب، فهو تقدير معنى لا تقدير إعراب.

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٣١١.

الفاء وطيّ الحدث

• احتفاء البلاغيين بهذه الفاء

الفاء التي تطوى الأحداث هى التى أطلق عليها النحاة وأهل البيان فاء الفصيحة، وهى التى حظيت بفضل عناية فى الدرس البلاغى عند الحديث عن حذف الجملة فى باب الإيجاز.

تحدث عنها السكاكى ولفت النظر إليها، ودعا إلى تأمل أسرارها، فقال: «وانظر إلى الفاء التى تسمى فاء فصيحة فى قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] كيف أفادت: فامتثلتم فتاب عليكم. وفى قوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ﴾ [البقرة: ٦٠]، مفيدة: فضرب فانفجرت. وتأمل قوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٧٣]. أليس يفيد: فضربوه، فحيى، فقلنا كذلك يحيى الله الموتى»[1] ثم قال: (وإنه فن من البلاغة لطيف المسلك. ومن أمثلة الاختصار قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩]. بطىّ: أبحت لكم الغنائم، لدلالة فاء السببية فى «فكلوا» وقوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧]. بطى: إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم أنتم، فعدوا عن الافتخار، لدلالة الفاء فى «فلم»)[2].

فالسكاكى يرى فى الفاء المفصحة عن محذوف ضربًا رفيعًا من البيان وفنًا من البلاغة لطيف المسلك على حد تعبيره، والنص الأول من النصَّين اللذين نقلناهما يقطع بأن الفاء التى تفصح عن معطوف عليه محذوف تسمى فاء فصيحة، أما التى تدل على شرط مقدر، فليس فى كلامه ما يقطع بتسميتها فصيحة، أو يقطع بحرمانها من شرف الفصاحة، مما دفع البعض إلى الاعتقاد بأنه يخص الفاء الفصيحة بما كانت عاطفة على محذوف، ويخرج منها الفاء الدالة على شرط مقدر.

---

(١) مفتاح العلوم ١٥٦.

(٢) مفتاح العلوم ١٥٦.

وهذا ما حكاه السيد الشريف في شرحه للمفتاح وعارضه، فقال: (فتُوُهِّم من ذلك أن تقدير الشرط ينافي عنده كون الفاء فصيحة، وأيّده بعضهم بالنقل عنه، والصواب خلافه، لأن العَلَم عندهم في الفصيحة قول الشاعر:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا

وهو بتقدير الشرط، أي إن صح ما قالوا فقد آن القفول، لأنا جئنا خراسان)(١) سبب التوهم هذا يرجع إلى أن السكاكي في الآيات الثلاث من سورة البقرة قدّر فيها المحذوف معطوفًا عليه، وصرّح بأن هذه الفاء تسمّى فصيحة، ثم خصّها بقوله: «انظر» و «تأمل» وهي تعبيرات تدل عند السكاكي على فضل عناية، ولم يقل مثلها في الفاء المجاب بها عن شرط محذوف، بل قال فيما مثّل له منها: «الدلالة فاء التسبيب» أو «الدلالة الفاء» دون أن ينعتها بالفصيحة.

أما صاحب الكشاف فعلى العكس من صاحب المفتاح، نراه يصرّح بأن الفاء المفصحة عن شرط محذوف تسمى الفاء الفصيحة، وقال عنها: إنها من أحاسن الحذوف، ولم يأت في تفسيره ما يقطع بإجراء هذا الوصف على الفاء العاطفة على جملة محذوفة، أو نفيه عنها، مما جعل شراحه يختلفون في تحديد رأيه فيها.

فهذا القطب التحتاني يقول في حاشيته على الكشاف: (فالفاء الفصيحة على رأي المصنف، هي التي دلت على محذوف. وهو سبب لما بعدها، سواء كان شرطًا أو معطوفًا عليه)(٢).

والطيبي في فتوح الغيب، يعلق على قول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] («فذبحوها» أي فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلها فذبحوها)(٣) قال الطيبي تعليقًا

(١) المصباح ٢/ ٤٦١.

(٢) حاشية القطب التحتاني على الكشاف ١/ ٢٢٧

(٣) الكشاف ١/ ٢٨٨.

على ذلك: (الفاء في قوله «فذبحوها» كما قدرها المصنف فصيحة، دالة على أنهم سارعوا في الذبح، ولم يتوقف امتثالهم أمر الله عند تحقق التمييز لمحة)[1] والمقدر هنا -كما ترى- جملة معطوف عليها.

والسعد في مطوله بعد أن ذكر وجهي الزمخشري في تقدير المحذوف؛ من قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ﴾ [البقرة: ٦٠]. وهما: (فضرب) والفاء عاطفة على محذوف، و(فإن ضربت) والفاء معه واقعة في جواب شرط مقدر، قال السعد: (وظاهر كلام الكشاف أن تسميتها فصيحة، إنما هي على التقدير الثاني، هو أن يكون المحذوف شرطًا)[2] على حين أطلق السعد الفصيحة على الفاء العاطفة على محذوف، في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٧٣]. حيث ذكر عبارة الزمخشري: «والمعنى: فضربوه فحيى» وعلق عليها قائلاً: (يعني أن حذف «ضربوه» المعطوف على «قلنا» سائغ مقرر في الفاء الفصيحة في «فحيى»، وهاهنا قد حذف الفاء الفصيحة مع المعطوف)[3].

ويرى الزركشي أن الفاء الفصيحة هي العاطفة على محذوف، لا المجاب بها عن شرط محذوف. قال: (ومن حذف جواب الفعل: ﴿اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ﴾ [الفرقان: ٣٦]. تقديره: فذهبا إليهم فكذبوهما، فدمرناهم. والفاء العاطفة على الجواب المحذوف هي المسماة عندهم بالفاء الفصيحة)[4].

وفي كليات أبي البقاء: (هي التي يحذف فيها المعطوف عليه، مع كونه سببًا للمعطوف، من غير تقدير حرف الشرط. قال بعضهم: هي داخلة على جملة مسببة عن جملة غير مذكورة، نحو الفاء في قوله «فانفجرت»)[5]. وقال أيضًا: (وإن كان المعطوف شرطًا لا تسمى فصيحة أيضًا، بل تسمى جزائية، سواء حذف المعطوف عليه أم لم يحذف»)[6].

---

(١) فتوح الغيب جـ١ ورقة ٩٤.
(٢) المطول ٢٨٩.
(٣) حاشية السعد على الكشاف ١/ ٣٦٨.
(٤) البرهان ٣/ ١٨١.
(٥) الكليات ٣/ ٣٢٥.
(٦) السابق ٢/ ٣٢١.

أطلت الحديث حول الخلاف في مُسمّى الفاء الفصيحة، لما تحمله هذه التسمية من دلالة على أن الوصل بها يتميز بوجوه من البلاغة، لا توجد على كمالها فيما وصل من الكلام بغيرها، ويكفي أن يقول عنها الزمخشري: (لا تقع إلا في كلام بليغ)[1] وهؤلاء الذين أخرجوا الفاء الدالة على شرط مقدر من فاء الفصيحة عللوا ذلك بأن فاء الجزاء يكثر وقوعها في الكلام العامي[2] فلا ترقى إلى ما يختصّ به كلام البلغاء. ومن هنا تدرك سبب تسميتها فصيحة، لأنها (يستدلّ بها على فصاحة المتكلم، يقال: كلام فصيح، وكلمة فصيحة، وصفت الفاء بها على الإسناد المجازي، كما وصف القرآن في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨] بصفة من هو سببه، وإنما اختصت بكلام البلغاء، لأن المراد من الحذف الدلالة على أن المأمور لم يتوقف عن اتباع الأمر)[3].

والحق أن حرمان فاء الجزاء الدالة على شرط مقدر من لقب الفصيحة، بعد أن كشف جار الله الزمخشري عن روائعها في النظم الحكيم، هو عدوان على هذه الفاء، وغفلة عما تنشره في مواقعها من لطائف الأسرار، كما سيأتيك في موضعه. ودعوى أنها تَرِد في الكلام العامي أمر لا يؤبه به، لأن الفاء العاطفة على محذوف هي كذلك ترد في كلام عامّي، وليست الفصاحة فيها راجعة إلى مجرد إنبائها عن محذوف، وإنما الفصاحة تكمن فيما وراء الحذف من إشارات لا يفطن إليها غير البلغاء، ولا يضعها في كلامه موضعها إلا متحدث بليغ، وفاء الجزاء المنبئة عن شرط محذوف، حافلة في الكتاب العزيز بالأسرار التي استحقت أن يقول فيها الزمخشري إنها من أحاسن الحذوف، ولا أعتقد كذلك أن صاحب الكشاف يضن باسم الفصيحة على الفاء العاطفة على محذوف كما فهم البعض، بل أرى في عبارته التي جوز فيها الوجهين عند قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ

---

(١) الكشاف ١/ ٢٨٤

(٢) انظر تحفة الأشراف في كشف غوامض الكشاف ١/ ٢٦٨.

(٣) تحفة الأشراف ١/ ٢٦٨.

﴿لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ﴾ [البقرة: ٦٠]. أرى أن الأظهر في عبارته إطلاق الفصيحة على ضربيها كليهما، قال فيها: (الفاء متعلقة بمحذوف، أي فضرب فانفجرت، أو فإن ضربت فقد انفجرت، كما ذكرنا في قوله «فتاب عليكم»، وهي على هذا فاء فصيحة)(١). فالضمير في قوله: «وهي على هذا» راجع إلى «الفاء» في قوله في أول العبارة: «الفاء متعلقة بمحذوف» فالوصف بالفصيحة يشملها بضربيها، ولا قرينة على اختصاصها بواحد منهما. وقد أحسن السيد الشريف حين قال تعليقًا على العبارة السابقة: (فإنه إشارة إلى الوجهين، فقوله: «وهي على هذا» أراد به أن الفاء على كونها متعلقة بسبب محذوف -شرطًا كان أو غيره- تسمى فاء فصيحة، وذلك إما لإفصاحها عن محذوف، وإما وصف لها بوصف صاحبها، وإما لكونها مفيدة معنى بديعًا، وواقعة موقعًا حسنًا)(٢).

ووصفُها بالفصاحة على طريق التجوز بإرادة صاحبها، لما تومئ إليه من معان بديعة هو -في رأيي- الأليق بها، وليس إفصاحها عن محذوف، لأن الفاء ليست وحدها التي يصاحبها الحذف، فقد وقع الحذف مع الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥] فاختصاص الفاء بهذا الوصف مع اشتراك غيرها معها فيما سميت بسببه لا مُسوِّغ له. ثم إن الوصف بالفصاحة على إطلاقه لا يدل على الحذف، وإنما يدل عليه بتقدير قيد يحدده سياقها، لا حقيقة معناها، وحمل الألفاظ على دلالاتها المطلقة، أولى من تكلف قيود تحدد معناها على غير ما يتبادر منها. وأخيرًا فإن هذا الوصف هو الذي يعكس ما امتلأت به في مواقعها من أسرار بيانية.

---

(١) الكشاف ١/ ٢٨٤.

(٢) المصباح في شرح المفتاح ٢/ ٤٦٢

طيُّ المعطوف عليه

لعل أهم ما تمتاز به الفاء من بين حروف العطف هو كثرة الحذف معها، لذلك كثر ورود الفاء في القصص القرآني حين تتكرر القصة مبنية على الإيجاز بطيّ بعض أحداثها، اعتماداً على ذكرها في موضع آخر، ورَعْيًا لمناسبة خاصة، تقتضي إبراز بعض الأحداث، وحذف بعضها الآخر، وقد كثر ورود هذه الفاء في السور المكية قياسًا إلى السور المدنية، لابتناء السور المكيّة على القصد في اللفظ، حيث كانت أكثر خطاباتها موجهة إلى المشركين من العرب، وهم قوم تميل طبائعهم إلى الإيجاز، بخلاف السور المدنية حيث كثر فيها خطاب غير العرب كبني إسرائيل، فأطنب معهم الحديث، إلى جانب طبيعة موضوعاتها الحافلة بالتشريعات والأحكام والمحتاجة إلى التفصيل[1].

ومن أبرز مواقع حذف المعطوف عليه، وأغناها بوجوه البيان، ما يكون المحذوف فيه جوابًا لأمر لا يُرَدُّ أمره، كما في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ﴾ [البقرة: ٦٠] وقوله: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣].

فمن المعلوم أن انفجار الحجر، وانقلاب البحر، مرتبان في الظاهر على الضرب بالعصا. لا على الأمر بالضرب، إذ لو كانا مرتبين على الأمر، لوجهه الله تعالى إلى الحجر والبحر مباشرة، كما قال تعالى للنار التي ألقي فيها إبراهيم عليه السلام: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]. لكن الله تعالى أراد بتوجيه الأمر بالضرب إلى موسى أن يكون أثر الضرب معجزة ظاهرة له، يجريها على يديه، مع اليقين بأن الضرب بالعصا سبب ظاهر وليس

(١) يراجع العطف في القرآن الكريم -رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية، وفيها إحصاء دقيق لنسب العطف بالفاء في السور المكية والمدنية ص٦.

مؤثراً حقيقياً، إلا أنه لو حدث بأمر التكوين المباشر من الله تعالى، دون أن يكون فعل موسى سبباً ظاهراً، لما كان ذلك آية لموسى عليه السلام.

فلما أراد الله تعالى حكاية معجزتي موسى هاتين، قصّهما على الوجه الذي يحقق صورة المعجزة، وحقيقة أمر التكوين، فكان قوله: «اضرب بعصاك» دليلاً على ارتباط الأثر بالمؤثر الظاهر، وهو الضرب. وفي طيّ الضرب الواقع من موسى عليه السلام، إشعارٌ بأن انفجار الحجر، وانفلاق البحر، كانا فى حقيقتهما مطاوعة لأمر الله تعالى، لا تأثراً بضرب العصا، فليست فى العصا قدرة ذاتية تتميز بها عن غيرها من العِصِيّ، وإنما هى قارنت قدرة الله تعالى المؤثرة، لتكون سبباً ظاهراً، تربط فيه الأعين والعقول بين الأسباب ومسبباتها. ففى حذف ضرب موسى حثٌ للعقول على الربط بين الأثر والمؤثر الحقيقى، حتى يدفع الوهم بأنه فى عصا موسى يقبع الإعجاز، والحقُّ أنه بأمر الآمر كان الانفجار والانفلاق.

أضف إلى ذلك ما يدل عليه هذا الحذف، من سرعة تلبية موسى لأمر ربه، حتى لكأن الفعل وقع منه لحظة سماع الأمر من ربه، دون تلعثم أو تردد، وفى طيات ذلك معنى الطاعة وحسن الاستجابة من ناحية، والرغبة الشديدة من موسى فى هذا الفعل، الذى حقق له ما ضرع به إلى ربه، فأسرع إلى تحقيق ما رغب فيه. وإلى هذا ذهب السيد الشريف فى بيان نكتة الحذف فى آية البقرة، فقال: (ففي حذف المعطوف عليه في قوله «فانفجرت» تنبيه على أن الموحى إليه لم يتوقف عن اتباع الأمر، وأنه لا يحتاج إلى الإفصاح به، لانتفاء الشك فيه، وعلى أن السبب الأصلى فى الانفجار هو أمره تعالى، لافعل موسى عليه السلام، ولا شك أنه لا يهتدى إلى أمثال هذه الدقائق غير البلغاء)[1].

وكأن السيد الشريف -رحمه الله- يضيف بجملته الأخيرة إلى الفاء الفصيحة التى لا ينطق بها إلا بليغ شرفاً آخر، وهو أنه لا يهتدى إلى أسرارها من المخاطبين غيرُ البلغاء.

---

(١) المصباح فى شرح المفتاح ٢/ ٤٦٢.

وللقطب التحتاني عبارة دقيقة في سر حذف فعل الضرب جاء فيها: (دلّ على أن المطلوب بالضرب الانفجار لا الضرب، فلهذا حذف الضرب، وصرح بأثره، هو الانفجار)(١).

وفي ذلك إلماح إلى أن الغرض من توجيه الأمر بالضرب هو حدوث الانفجار، وكأن الحجر انفعل انفعالاً ذاتيًا، وحقق ما أراده الله فور سماع أمر الضرب لموسى.

أما تقدير الشرط هنا على الوجه الثاني الذي ذهب إليه الزمخشري على معنى: فإن ضربت فقد انفجرت، فإنه يذهب بهذه اللطائف كلها، حيث يتوقف الانفجار على الضرب، بعد أن كان منفعلاً بالأمر الصادر من الله تعالى. ثم إنه يشعر بأن امتثال الأمر بالضرب من موسى أمر محتمل بتعليقه الجواب على الشرط، على ما في التقدير بإن، وما تشعر به من أن الضرب غير مقطوع بوقوعه، مما لا يليق بمقام النبوة. وهو ما وهّنه أبو السعود بقوله: (وأما تعلق الفاء بمحذوف، أي فإن ضربت فقد انفجرت، فغير حقيق بجلالة شأن النظم الكريم، كما لا يخفى على أحد)(٢).

مثل هذا من طيّ السبب، وترتيب المسبب على الأمر نجده في قوله تعالى في قصة موسى مع السحرة: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٦٥ - ٧٠].

الفاء في «فإذا حبالهم وعصيهم» مفصحة عن سبب محذوف، تقديره: فألقوا. وقد طواه النظم الحكيم ليصور بهذا الطي سرعة إلقائهم، ويكشف عن رغبتهم في المبادرة بالإلقاء. وهو الذي أشعر به تغييرهم لطريقة النظم في

---

(١) حاشية القطب على الكشاف ١/ ٢٢٨

(٢) تفسير أبي السعود ١/ ١٠٦.

قولهم: «إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى». فلم يقولوا: وإما أن تلقى ليتناسب مع ما قبله، بل زادوا فيه «أول» ليُحمّلوه حرصهم على السبق فى الإلقاء كما عدلوا عن المضارع إلى الماضى «ألقى» وكأنهم بادروا بالفعل إلى الإلقاء بحيث لو جاء جوابه على غير هواهم لخالفوه. وإنك لتحس مع حذف إلقائهم والمبادرة إلى ما ترتب عليه، أنهم لم ينتظروا من موسى جوابًا، وأن تخبيرهم له كان لونًا من الخداع السياسى، ليظهروا أمام الجموع المحتشدة بمظهر الواثق من الغلبة، الذى لا يبالى أن يبدأ المعركة أو يبدأها عدوه، هم يعالجون بهذا التظاهر خوفًا دفينًا، وتوتّرًا ملك عليهم أقطار أنفسهم، إنها سطوة الحق، تنفذ إلى قلوب أهل الباطل، فتشيع فيهم الرعب والخوف، مهما تستروا بمظاهر القوة.

وفى نهاية المعركة توحى الفاء فى قوله تعالى: «فألقى السحرة سجدًا» بطيّها إلقاءَ موسى لعصاه، وترتيبها خضوع السحرة وإيمانهم برب موسى وهارون، على أمر الله تعالى لموسى بالإلقاء دون الإلقاء نفسه، يوحى ذلك بأن الله تعالى هو الذى أدار المعركة كما أراد، وأنهاها بأمره، لا بفعل موسى، فأخفت الفاء بما صاحبها من الحذف صورة موسى عليه السلام، ليظهر الله بجبروته وكبريائه، ويفعل بالسحرة ما يريد، لذلك لم يقل السحرة آمنا بهارون وموسى، لأنهم أدركوا أن ما شاهدوه فعلُ الله لا طاقة بشر، وأن موسى بعصاه لم يكن ليغلبهم، وإنما الذى هزمهم وأبطل سحرهم هو رب موسى، فكان قولهم: «آمنا برب هارون وموسى» صوت الإيمان الحقيقى المذعن لسلطان الرب، وليس أثرًا لهزيمة فى معركة.

وإذا أردت أن ترى جلال الإعجاز فى هذا النظم، وكيف يموت هذا الحدث، وينطفئ شعاعه حين تنطق بهذه المحذوفات، كما قدرها البيضاوى: (أى فألقى فتلقفت، فتحقق عند السحرة أنه ليس بسحر، وإنما هو من آيات الله، ومعجزة من معجزاته)(١).

---

(١) تفسير البيضاوى ٦/ ٢١٥.

لقد حسم الله المعركة قبل أن يبدأ موسى الإلقاء، حين جعل العصا تنفعل بأمر الله، وتنهي المعركة قبل أن يمسك بها موسى، كما صوّر ذلك النظم الحكيم في تركيب يتعانق فيه إعجاز النظم مع إعجاز الحدث: «وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا» فَجَزْمُ الفعل «تلقف» في جواب الأمر بالإلقاء يدل على استجابة العصا لأمر الله، وتنفيذها ما أراد، في الوقت الذي وجه فيه الأمر لموسى، فلم يكن هناك داع لذكر إلقاء موسى، ولا إلى ذكر ما فعلته العصا من لقْف حبالهم وعصيهّم، كما جاء في سورة الشعراء: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥] فها هنا تصوير لجلال المحْدِث، وفي الشعراء تصوير لجلال الحَدَث. وفي الفرق بينهما تكمن فروق النظم في السورتين، هو سر من أسرار الإعجاز في قصص القرآن، حيث تتنوع زوايا التصوير وتختلف نقاط التركيز، ويلمح النظم إليها بتغييرات دقيقة في ألفاظها، جليلة في مغزاها.

إن خوارق الأحداث، واستيلاءها على العقول والقلوب، لا تترك مجالاً لمن هُمْ في موقع الحدث للتأمل في وقائعها، وربط الأسباب بمسبباتها، فإن روعة المشهد، وخروجه عن طاقة البشر يُعجز الفكر بنفس القدر الذي يُعجز به اليدَ واللسان. وحينئذ يكون ذكر الأفعال المطوية -على ما قدَّره البيضاوي- بحركتها البطيئة عبئًا يتثاقل به النظم عن تصوير جلال هذا الحدث، ومواكبة مشاهده السريعة المتلاحقة.

لقد كان تحقق السحرة من عجزهم، والإيمان بأن ما يشاهدونه آية من آيات الله مقترنًا بوقوع الحدث، لا متعقبًا له، وما كان جلال المعجزة بحاجة إلى وقت -ولو جدُّ قصير- لإعمال العقل والاستدلال على كونها من عند الله. ذلك ما صورته الفاء بطيِّها من الأحداث ما يثقل حركة الألفاظ عن مواكبة هذا الإعجاز.

ألا ترى إلى قوله تعالى في تصوير المعجزة التي أجراها الله تعالى على عين العُزير، كيف يربط فيها تبيُّنه لقدرة الله تعالى بالحدث ذاته، لا بتأمُّله والنظر فيه.

لأنه أعظم من أن يحتاج إلى تأمل واستدلال به على قدرة محدثه!! ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

تأمل قوله: «فلما تبين له» كيف رتبت فيه الفاء اتضاح حقيقة قدرة الله تعالى أمام العزير على الأمر بالنظر إلى المشاهدات، وما يجريه الله تعالى عليها من آثار القدرة، دون أن يترك له مهلة من الزمن يعرض فيها ما شاهده على فكره، قبل إقراره بقدرة الله، تجسيداً لجلال الحدث، وبكونه ليس بحاجة إلى فكر في الشهادة على قدرة محدثه. إن تقدير الأفعال على نحو ما جاء في روح المعاني: (فأنشرها الله تعالى، وكساها لحما، فنظر إليها، فتبين له كيفيته، فلما تبين ذلك)(٢). لا يعدو أن يكون تصوراً عقليًا لتعاقب الأفعال، والربط بين الأسباب والمسببات، لكن هذا التصور لا يرتفع إلى مستوى الحدث المعجز، لأن الله لم يوقع آثار قدرته على العظام نشراً وكساء بعد أمر العزير بالنظر، بل كان فعله تعالى مصاحبًا للأمر، لأن تعلق إرادة الله بالأشياء على سبيل الإيجاد هو تعلق تنجيز، هذا هو السر في طي الموجودات التي قدرها الألوسي، وهي: فأنشرها، وكساها لحما، لأنها وجدت مصاحبة للأمر لا بعده، ثم إن هذه الأحداث الخارقة لا تحتاج عند من يشاهدها إلى بحث واستدلال، ليتبين قدرة من أجراها، حتى يقدر: «فتبين له كيفيته».

إن خوارق العادات حين تقع في أحداث الكون، إنما تقع بسرعة تعجز فيها ألفاظ الحكاية عن مواكبة المحكي بمثل هذه التقديرات التي توقف وثبة الفكر، وتعوق حركته عن ملاحقة الأحداث، لذلك يقابل الله في حكايتها إعجاز الحدث

(١) روح المعاني ٣/ ٢٣.

بإعجاز النظم، حين يحكيه بهذه الفاء التي تتخفف من كل ما يبطئ بها عن مجاراة المحكى، فكان طيّ ما قدروه إعجازاً يعانق إعجاز الحدث.

فإذا كان من رَصْدٍ وتأمل ففي أثره على المُشاهد، ومراقبة انفعاله بالأحداث وحركتها في نفسه، وهو ما يصنعه القرآن حين يطيل الوقوف بعد حكاية المعجزة، لينقل انعكاساتها على من شاهدها. والمثال على ذلك قوله تعالى في حكاية ما دار بين سليمان عليه السلام والملأ من جنده: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٣٨ - ٤٠].

فإن الفاء في قوله «فلما رآه» في طيّها للأحداث ما بين قول العالم بالكتاب، ورؤية سليمان للعرش مستقراً عنده، تجاوبت في القصّ مع سرعة وقوع الحدث، فما يستغرقه ارتفاع الطَّرْف وانخفاضه من الزمن، دون زمن النطق بفعل واحد، فأنت إذا حكيت أفعالاً تمثّل ما صنعه هذا القائل لإحضار العرش مات الحدث بين يديك، ولم تواكب حركةُ العقل في تصورها للحدث سرعة وقوعه. وحاول أن تضع هذه الأفعال التي قدرها أبو حيان، مما طوته الفاء في موضعها من النظم، وهي: (فدعا الله فأتاه به)(١) فستحسّ عندئذ بأن القصّ على هذا النحو أشبه بمن يرصد قمراً صناعياً بأقدم آلة رصد صنعها الإنسان، فسرعان ما يكتشف الراصد أن القمر قد أفلت منه قبل أن يُدير آلته.

إن آية الآيات في القرآن أنه يمسك بمفاتيح عقول المخاطبين ونفوسهم، فيضبط إيقاعها بما يتناسب مع حركة الأحداث، وهو حين يطوى جزءاً منها، فإنما يثب بالعقل والنفس وثبات تقربهما من الحدث، وتتيح لهما القدرة على مواكبته. فلما كان ارتداد الطرف، وهو حركة طبيعية تلقائية، لا يستغرق من الزمن ما يسمح

(١) البحر المحيط ٧/ ٧٧.

بحكاية دعاء مَن عنده علم الكتاب، والإخبار بإتيانه بالعرش، وثب النظم من عرضه إحضاره إلى رؤيته مستقراً عند سليمان، ليتصور القارئ مدى السرعة التى لم تستغرق من الزمن شيئًا، وركّز على أثر هذه النعمة في نفس سليمان، وكيف قابلها وانفعل بها، وهو ما أطال النظم الوقوف عنده.

وانظر إلى بلاغة الحذف، حين ينقلك من تفكير قوم إبراهيم عليه السلام فى قتله وإحراقه، إلى يد الله تتلقف نبيه الكريم، وتنقذه من نار قومه، دون أن تريك أيدىَ الآثمين، وهى ترتكب جرمها: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ [العنكبوت: ٢٤]. فقد طوت الفاء حدثًا رهيبًا، وجرمًا مروّعا، هو كما قدره المفسرون: (فقذفوه فى النار)[1] لأن الإنجاء أعقب القذف فى النار، لاقولهم، ووراء هذا الحذف إيماء إلى أن ما قالوه لم يكن تهديدًا أو مجرد تفكير، وإنما كان تصميمًا وإصرارًا، وفى الانتقال من حكاية قولهم إلى الإنجاء مباشرة إشارةٌ إلى أن الله تعالى كان أسرع إلى إنقاذ نبيّه منهم إلى إلقائه فى النار، وأن خليل الله وقع فى يد ربّه قبل أن يقع فى أيديهم ليقذفوه فيها، فنشرت الفاء بهذا الطّىّ غلالَة من قدرة الله تعالى، ورعايته لنبيه، غطّت على فعلهم، لتظهر يد الله القوية الغالبة، وتتوارى أيدى القوم الآثمة.

ومن روائع أمثلة هذا الطى فى الذكر الحكيم، مما يذهب ذكره بسر إعجازه، قوله تعالى حكاية لما جرى بين إخوة يوسف وأبيهم: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف ١١ - ١٥].

فقد طوت الفاء فى قوله «فلما ذهبوا» موافقة يعقوب عليه السلام، وإذنه بخروج يوسف مع إخوته، وقدر المفسرون الفعل الذى عطفت الفاءُ عليه:

---

(١) الفتوحات الإلهية ٣/ ٣٧٣.

(فأرسله معهم)(١). وفى هذا الطىّ إيماء إلى عدم رضا يعقوب عليه السلام واستكراهه عليه، وأن أبناءه غلبوه على أمره، فلو ذكر هذا المحذوف لمات هذا المعنى، وأوهم ذكره أن يعقوب قد اطمأن نفسا إلى وعود أبنائه، واستراح لها فأرسله معهم، وهو غير ما يوحى به قوله عليه السلام حين جاءوه بقميصه وعليه دمٌ: ﴿بل سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: ١٨]. وهو حديث المتَّهِم لهم، فكان ذلك دليلاً على أنه لم يرسله معهم طوع نفسه، ورغبة منه، ففى ذكر الفعل المحذوف هنا زيادة ينقص بها المعنى، ورحم الله شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر حين قال فى الحذف: (فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانًا إذا لم تبن)(٢).

هذا الطى الذى يبعث الحياة فى الأحداث، ويؤدى ذكر المطوى فيه إلى قطع تدفُّقها، وموت حركتها هو ما تجده فى قوله تعالى فى الحديث عن قصة موسى مع ابنتى شعيب: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٣ - ٢٥].

أومأت الفاء فى قوله «فجاءته» إلى محذوف يستدل عليه العقل فى ترتيبه للأحداث. يقول ابن عطية: (فى هذا الموضع اختصار يدل عليه الظاهر، قدَّره ابن إسحاق: فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، وكانت عادتهما الإبطاء فى السعى، فحدثتاه بما كان من أمر الرجل الذى سقى لهما، فأمر الكبرى من بنتيه، وقيل الصغرى أن تدعوه له، فجاءت على ما فى هذه الآية)(٣).

---

(١) تفسير الجلالين ٢/ ٤٣٩. (٢) دلائل الإعجاز ١٤٦. (٣) المحرر الوجيز ١/ ١٥٩

فلو ذكرت هذه الأفعال لضاع الغرض من ربط دعاء موسى عليه السلام -وشكواه حاله لربه في قوله: «رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير» - بهذا الخير الذي ساقه الله إليه بمجيء ابنة شعيب، حيث كانت دعوة أبيها له ليجزيه أجر سقيه إجابةَ الله السريعة لهذا الدعاء. فطوى الله ما بينهما ليصل إجابته بسؤاله، تكريمًا لتجرُّد موسى، وبذله الخير ابتغاء مرضاته، وتحقيقًا لقوله عز وجل: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وقد يطوى مع الحدث من الشخوص من ليس لهم أثر في الأحداث، ومن لا يتصور منهم غير الانصياع وتنفيذ الأمر، حتى لا يثقل مسرح الأحداث بشخوص يحجبون الرؤية عمن يسهمون في صنعها. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

فها هنا معطوف عليه محذوف، قدّره أبو السعود، وعلل لحذفه بقوله: (أي فأتَوْا به، فحذف للإيذان بسرعة الإتيان به، فكأن لم يكن بين الأمر بإحضاره، والخطاب معه زمان أصلاً)(١).

فالمسارعة من جند الملك بتنفيذ ما أُمِروا به شيء مفروغ منه، وذلك شأن الملوك مع عمالهم، لا يتصور العقل سوى الإسراع بتلبية ما أراد، وهذا الحذف من طبيعة الفاء الفصيحة، لكنها تزيد هنا مع طيّ فعل الإتيان إخفاء الشخوص التي لا أثر لها في صنع الحدث، وهم الجنود الذين أحضروا يوسف، لأن ذكرهم يقلل التركيز على الحدث الأصيل، الذي أراد القرآن إبرازه، وهو الحوار الذي دار بين الملك ويوسف عليه السلام، لذلك كان الأمر «ائتوني به» غير موجّه إلى معين، فلم يقل: وقال الملك لملئه أو لجنده، وإنما أطلق الأمر ثقة بأنه سينفذ، ولا يعنيه من ينفذه. كما لا يحتفل القرآن بمن أتاه به، ولا بالإتيان المفروغ منه،حتى لا يصرف الذهن عن الغرض من إحضاره، أو يوزع النظر بين مشهد إتيانه ومشهد الحوار الذي دار بينهما. وهذه طريقة القرآن في القصّ،

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٦.

لا يذكر من المشاهد والأحداث إلا ما كان لبنة في بنائها، ولا يذكر من الشخوص ما لا يسهم في صنع أحداثها.

ومن بديع مواقع هذه الفاء قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٣ - ١٨٤]. فقد أشارت الفاء إلى فعل مطوى رتب عليه القضاء، وتقديره: «فأفطر» لأنه لا يجب قضاء الصوم إلا بالإفطار. وفي هذا الحذف تنبيه على أن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه، كما صرح بذلك عليه السلام، فكأن الإفطار مع المرض أو السفر أمر مفروغ منه، فمتى كان المؤمن مريضًا أو مسافرًا فعليه القضاء، لأن الشأن فيه أن ينصاع لرخص الله تعالى ويقبل هديته. وهذا ما أكده بعد ذلك بقول: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فلم يكتف بالتصريح بإرادته اليسر حتى أكده بنقيضه، وهو عدم إرادته العسر، وليس للعابد إلا أن يمتثل لما أراده المعبود.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]. حيث أومأت الفاء في قوله «ففدية» إلى محذوف تقديره: فحلق، إذ لا فدية عليه إذا لم يحلق، وقد حذف ترغيبًا في التزام رخصة الله تعالى بالحلق، وافتدائه بما عيّنه الله تعالى من الصيام أو الإطعام أو الذبح. ذلك أن الله لم يفترض العبادات على عباده ليعذبهم بها، أو ليبدو العابد في صورة رثّة ترعى في رأسه الهوام، وهو ما أكده الرسول ﷺ -فيما ذكره القرطبي- حين رأى كعب بن عجرة، وقمله يتساقط على وجهه فقال: «أيؤذيك هوامك؟ قال: نعم، فأمره أن يحلق»[1] فبحذف الفعل «حلق» بدا وكأن الفدية مرتبة على حدوث المرض أو الأذى، وأن الحلق في مثل هذه

(١) تفسير القرطبي ٢/٧٥٦.

الحالة أمر مؤكد. وفي ذلك من يسر الإسلام وسماحته، وحرصه على جمال مظهر العابد، وفتح أبواب من الخير للمحتاجين إلى الإطعام والذبح ما يشهد بعظمة هذا الدين.

على أنه قد جاء في القرآن ما يبدو خروجًا عن هذا الإلف في دلالة الحذف معها على المسارعة والامتثال، وذلك في نهاية الحوار الذى دار بين موسى عليه السلام وقومه، في شأن البقرة التى أمرهم بذبحها، فقال فيما حكاه الله بعد جدل منهم ومماطلة: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]. فهناك فعل مطوى أفصحت عنه الفاء في قوله «فذبحوها» قدّره الزمخشرى (فحصّلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلها فذبحوها)(١) وقد جرى الكشاف وشراحه على أن الغرض من الحذف في مثل هذا الموضع الذى يرتّب فيه المعطوف على الأمر، هو الدلالة على المسارعة والامتثال في فعل ما أمر به المخاطب، لكن يكدّر على هذه النكتة أن المأمورين هنا كانوا متثاقلين في الاستجابة، بدليل هذا الجدل الطويل، وبدليل قوله تعالى: في تذييل الآية: «وما كادوا يفعلون» وهو ما أورده الطيبى، وردّ عليه في قوله: (فإن قلت: الفاء في قوله «فذبحوها» -كما قدرها المصنف- فصيحة، دالة على أنهم سارعوا في الذبح، ولم يتوقف امتثالهم أمر الله عند تحقق التمييز لمحة، كما نصّ عليه في الأعراف، في قوله تعالى: «فاضرب بعصاك الحجر فانبجست»، وقولُه: «فافعلوا ما تؤمرون». وقوله: «وما كادوا يفعلون» تدل على تثاقلهم وتثبّطهم في الامتثال، فكيف التوفيق؟ وما معناه؟ قلت: المعنى سارعوا في امتثال أمر الله عند ظهور الحق وتبين الحال، مع أن بشريتهم عند تبين الحال مانعة من الامتثال، لئلا يفضحوا)(٢).

---

(١) الكشاف ١/ ٢٨٨ (٢) فتوح الغيب ١ ورقة ٩٤

وأرى -والله أعلم- أن تقدير: فحصّلوها على هذه الأوصاف لا داعى له، لأن قولهم «الآن جئت بالحق» دال على أن البقرة بهذه الأوصاف قد تعينت لديهم، فعرفوها، واستسلموا بعد طول مقاومة وتهرّب، وليست هذه هى الفاء الدالةَ على المسارعة والامتثال، وإنما هى أشبه بالفاء الداخلة على فعل المطاوعة من مثل: كسرته فانكسر، وذلك أنهم بعد أن حوصروا بالإجابات التى حددت البقرة تحديداً كاملاً، حتى عرفوا البقرة وصاحبها، لم يعد أمامهم مفرّ من الانصياع، ففى الفاء رائحة القسر والإلجاء. وهو صريح: عبارة الطبرى فيما رواه عن ابن زيد، قال: (اضطروا إلى بقرة لا يعلمون على صفتها غيرها، وهى صفراء ليس فيها بياض ولا سواد، فقالوا هذه بقرة فلان «الآن جئت بالحق»)[1].

فالفاء، أشعرت بالإذعان والاضطرار. والمسارعةُ التى دلت عليها مسارعة الاستسلام والقهر، وليست مسارعة الامتثال، فالمبادرة بالذبح اندفاع بقهر الحجة وحصار الدليل، وما فى أنفسهم من التثاقل وعدم الرضا دليل افتعال الحدث، لا الانفعال به، فكما أنك إذا قلت: صرعته فانصرع، لا تسمى حركة المصروع مسارعة وامتثالاً، فكذلك الأمر فى الآية.

(١) تفسير الطبرى ٢/٢١٧

فاء المفاجأة ووجه حسنها

ذكرالزمخشرى هذا المعنى للفاء التى تفاجىء الخصم بما لا يتوقعه من الحجة الملزمة، والأدلة الدامغة، التى تقطع العذر، وتنهى الحوار، وتدفع المخاطب إلى التسليم بمنطق المتكلم، وهذه الفاء غالبا ما تفصح عن شرط مقدر، وهى بهذا التقدير أجدر، لأن الشرط يستحضر منطق الخصم، ليبنى عليه حجته المفحمة، وهو فن من الجدل رفيع، فيه رائحة مما يسمى المذهب الكلامى، لأنك تبنى نتيجة على مقدمة سلم بها الخصم ونطق بها، ولما كانت النتيجة لازمة لما سلم به من المقدمات لم يكن أمام مخاطبك إلا التسليم بما فاجأته به، فهو كمن أُتِى من مأمنه، وفوجئ بالهجوم بعد التظاهر بالملاينة والتسليم بمنطقه.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ [الفرقان: ١٧-١٩].

يقول الزمخشرى فى الفاء من قوله «فقد كذبوكم»: (هذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة، وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول) ونحوها قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩] وقول القائل:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ... ثم القفول فقد جئنا خراسانا)(١)

تعددت فى هذه الآية عناصر المفاجأة، أولها هذا الانتقال الفجائى من خطاب المعبودين إلى خطاب العبدة، وهو ما أشار إليه الزمخشرى بالالتفات، وهى مفاجأة تدهش الخصم وتذهب لبّه، والثانية بناء الحجة على منطق الخصم بما

(١) الكشاف ٣٠/٨٦

لا يستطيع معه الفكاك أو التفصيّ، لأنك تقول له: هذه حجتك قد أبطلناها فلم يعد أمامك سبيل للاحتجاج بها، وهذا ما تقوم به الفاء المشيرة إلى شرط مستمدّ من حجة الخصم، تقع هى وجوابها بمثابة النتيجة الملزمة، والتقدير: إن كنتم تدّعون أن آلهتكم قد أضلتكم فها هى ذى تكذبكم، فلم يبق إلا أن تعترفوا بجرمكم، وتتحملوا عاقبة كفركم، فما يستطيعون صرفا ولا نصرا، والعنصر الثالث من عناصر المفاجأة حذف القول، وفيه من الحسن والخلابة ما يصور وقوع الحجة عليهم كالصاعقة التى لا يدرون منْ قَذَفَ بها، وكأن هذا القول حديث الكون كله، يحاصرهم ويمسك برقابهم.

وقد سمى الشهاب هذه الفاء فجائية، لأنها هى التى وَشَتْ بالمفاجأة.

قال الشهاب: (والفاء فجائية فصيحة، أى فقلنا: إن قلتم إنهم أضلونا إذ عبدناهم فقد كذبوكم)[1].

وهى التى قطعت العذر، وألزمت بالحجة، هؤلاء الذين يمكن أن يتخذوا من عدم إرسال الرسل مبررا لكفرهم، فكان مجيئهم دفعا لما عساهم يحتجون، وإلزاما لهم بتحمل وزر كفرهم، فى قول الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩] ففى الفاء إبطال لحجة أهل الكتاب، الذين فسدت عقيدتهم، بقولهم فى المسيح مقالة الكفر، وقطعٌ لعذرهم إن هم تعللوا بعدم إرسال الله لهم من يَردُّهم عن زيغهم، كأنه يقول لهم: إن اعتذرتم لأنفسكم بعدم مجئ البشير والنذير، فقد جاءكم البشير والنذير. ومثلها قوله تعالى فى قطع عذر المشركين حتى لا يدعوا أن الكتاب أنزل على اليهود والنصارى، ولم ينزّل عليهم كتاب ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٦- ١٥٧] وهو الذى قال فيه

(١) حاشية الشهاب ٦/ ٤١٣.

الزمخشرى: (والمعنى: إن صدقتكم فيما كنتم تعدّون من أنفسكم، فقد جاءكم بينة من ربكم، فحذف الشرط، وهو من أحاسن المحذوف)(١).

وجه حسن الحذف هو الانتقال من حكاية احتجاج الخصم إلى حَجّهِ بحجته، ببناء آخر الكلام على أوله، والإسراع إلى تحقيق هذا الغرض بحذف الشرط الذى هو من مسلمات الخصم، وفيه من التبكيت والإلزام ما فيه. يقول العلوى فى حاشيته على الكشاف تعليقًا على عبارة الزمخشرى: (ثم بعد ذلك التفت إليهم بالخطاب تبكيتًا لهم، وإلزامًا، أى أنتم أولئك الذين تصلّفتم وقلتم: كيت وكيت، فقد جاءكم مطلوبكم، فأين مقتضى قولكم؟ وساعد عليه حذف الشرط، ومن ثم قال: «وهو من أحاسن المحذوف» وقد سمى مثل هذه الفاء فى سورة الحجرات فاء فصيحة، وإن كانت جزائية لدلالتها على السرعة)(٢).

لقد كان شيخ البلاغة أول من نبّه إلى دور هذه الفاء، وما تشى به من المعانى والأغراض، واكتفى فى ذلك بأن أشار إليها، وألمح إلى أنها واسطة العقد، فيما عدّه من فرائد الكلام، حين قال: (ثم إنك تحتاج إلى أن تستقرى عدة قصائد، بل أن تَفْلِىَ ديوانًا من الشعر حتى تجمع منه عدة أبيات، وذلك ما كان مثل قول الأول، وتمثّل به أبو بكر الصديق، رضوان الله عليه، حين أتاه كتاب خالد بالفتح فى هزيمة الأعاجم:

تمنّانا لنلقانا بقوم ... تخال بياض لأمهم السرابا

فقد لاقيتنا فرأيت حربا ... عوانًا تمنع الشيخ الشرابا

انظر إلى موقع «الفاء» فى قوله: «فقد لاقيتنا فرأيت حربًا».

ومثل قول العباس بن الأحنف:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ... ثم القفول فقد جئنا خراسانا

انظر إلى موضع «الفاء» و«ثم» قبلها)(٣).

---

(١) الكشاف ٢/ ٦٢.

(٢) تحفة الأشراف ١/ ٧٨١.

(٣) دلائل الإعجاز ٨٩- ٩٠.

لم يكن عبد القاهر بصدد الحديث عن الفاء حتى يقف عندها، ويكشف عن أسرارها، وإنما كان يعدّد مزايا النظم، وكيف يقع الحرف موقعه، فينشر على سياقه من أردية الحسن ما يخطف الأبصار، ويسحر العقول. وإشارة خاطفة من رائد كعبد القاهر حَرِيَّة بأن تفتح أبوابًا للبحث، تدين في كل ما تصل إليه لهذه اللمحة الخاطفة.

هذه الفاء في البيتين اللتين تمثّل بهما الصديق رضي الله عنه، تحمل من التهكم والسخرية، والتبكيت وإسكات الخصم، ما يجعل لها خلابة لا يحسّ بها إلا من اعتاد لسانه على ذوب هذه اللغة، وسرت في عروقه أنسامها العبقة.

هذا التبكيت تجده على أتمه وأروعه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣].

ففي قوله «فقد رأيتموه» حملت الفاء من معاني التوبيخ والتبكيت ما تنوء بحمله جمل عدة، حيث عرّت المنهزمين من المؤمنين أمام أنفسهم، واستحضرت ما سجّلته ألسنتهم من الأماني، لتظهر المناقضة الشديدة بين الأقوال والأفعال. فكم كانوا يتمنون لقاء العدو، ليظهروا من الجلد والشجاعة ما يباهي به الله عباده، وهاهم أولاء في وقعة أحد، يرون الموت الذي تمنوه، فينكصون على أعقابهم. وقد مهد لهذا التوبيخ بقوله قبل هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل العمران: ١٤٢] يقول الخازن في تفسيرها: (أم حسبتم أيها المنهزمون أن تدخلوا الجنة كما دخلها الذين قتلوا، وبذلوا نهجهم لربهم عز وجل، وصبروا على ألم الجراح والضرب، وثبتوا لعدوهم، من غير أن تسلكوا طريقهم، وتصبروا صبرهم)[1].

ثم جاءت الآية بعدها لتعرّض (بأن ما سبق من تمنيهم الموت لم يكن عن رسوخ ويقين، وتفضيل للشهادة ولقاء الله على الحياة، وإنما كان فيه شائبة من

(١) تفسير الخازن ١/ ٢٨٧.

الغرور والزهو، وإرشـاد توبيخى لهم ولأمثالهم أن يحـاسبوا أنفسـهم ويطالبوها بالكمال، الذى تأتى فيه الأعمال مصدقة لخواطر النفس وتمنياتها)[1].

الفاء فى «فقد رأيتموه» مفـصحة عن شرط يمكن تقديره: إن كنتم صادقين فى تمنيكم لقاء العـدو أو الشهادة فـقد رأيتم الموت بأعينكم، فلم انهـزمتم وتشبـثتم بالحياة؟ وانظر قوله «من قبل ذلك» كيف يريك فرق ما بين الدعوى والفعل!

وإذا كانت فـاء ابن الأحنف تحمل مـعنى التبرّم والمـاطلة، واستنجـاز الوعد بدلالاتها على تعليق الجزاء بالشرط كما ذهب إلى ذلك الأسـتاذ محمد نايل فيما نقله عنه الدكتور محمد أبو موسى[2]، فإن هذه الفاء بلغت الغاية فى الحسن فى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ۝٥٥ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦] فـهـؤلاء الذين يستقـصرون الزمن يوم القيامة ويقسـمون بأنهم ما قضوا فى دنياهـم سوى ساعة واحدة، هم الذين كانوا يستبطئون هذا اليوم، وينكرون وقوعه، فأى تناقض هذا الذى فاجـأتهم به الفاء؟! وأى تهكم وسـخرية بمن كانوا بالأمس يسـخرون ممن توّعدهم بهذا اليوم؟! وأية مرارة يشعرون بهـا، وقد أعجزتهم الحيلة فلم يُحيروا جوابًا كمـا لم يجدوا مهربًا؟! يقـول الدكتور أحمد بدوى: (ألا تشـعر بما حول هذه الفاء من استفهامات تثيـرها، فكأن الذين أوتو العلم والإيمان يقولون لمنكرى البعث: ألا تزالون مـصرين على إنكاره؟ ومـاذا أنتم فاعلون؟ وكـيف تلقون ربًا أنكرتم لقاءه)[3].

دلالة الفاء على الشرط هنا تحمل روح التشفى والسخرية من الذين أوتوا العلم بمنكرى البعث، وهم يقولون لهم: إن كنتم قد أنكرتم البعث، فها هو ذا قد وقع ما أنكرتموه، فماذا أنتم فاعلون وقد أحاط بكم العذاب؟

(١) تفسير المنار ٤/ ١٣١.
(٢) ينظر البلاغة القرآنية عند الزمخشرى ٣٤٢ ط أولى.
(٣) من بلاغة القرآن ٥٦.

ثم انظر إلى الاحتجاج بالقياس، وكيف يحمل المخاطبين على الإقرار والإذعان، ويوصد أمامهم كل أبواب الحيل، بعد أن أحاط بهم سلطان الحجة فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

فإذا أردت أن تقف على سر الإعجاز فى الوصل بالفاء فاستبدل بها الواو، ليكون النظم: وكرهتموه، فستحس أنك قد سقطت من شاهق، وتفلّتت من بين يديك حجة ألزمت بها الخصم، وأشهدت عليه الخلق، واستنفرت طباعهم ومشاعرهم ضده، فأنت بالواو تؤكد مفهوم إنكار الحب، وبالفاء تستدل على كراهية الغيبة، بالقياس على ما سلم به الخصم من كراهية مثله، وهو أكل لحم الأخ ميتًا، وفيه من الإلزام بالحجة مالا يستطيع المخاطب التفصى عنه، بعد أن شهد الناس جميعًا بكراهية ما شبهت الغيبة به، كما ينبيء عنه توجيه الخطاب إلى كل العقلاء فى قوله «أيحب أحدكم». فالفاء وحدها هى التى رتبت هذه النتيجة، واحتجت عليها بالمقدمة التى لا يجادل فيها أحد، بإخراجهما فى صورة الشرط والجزاء. ولا يضير بعد ذلك أن يختلف المعربون والمفسرون فى تقدير الارتباط بينهما، فإن الإلزام بالقياس قائم فى كل تقدير. فقد نقل ابن الشجرى فى أماليه عن أبى على الفارسى قوله: (وإنما دخلت الفاء فى الكلام من معنى الجواب، لأن قوله: «أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه» كأنهم قالوا فى جوابه: لا. فقال: «فكرهتموه»، أى: فكما كرهتموه فاكرهوا الغيبة، فهو جواب لما يدل عليه الكلام من قولهم: لا، فالفاء ها هنا بمنزلتها فى الجزاء، والمعنى على: فكما كرهتموه فاكرهوا الغيبة، وإن لم تكن «كما» مذكورة، كما أن قولهم: ما تأتينى فتحدثنى، المعنى: ما تأتينى فكيف تحدثنى، وإن لم تكن كيف مذكورة، وإنما هى مقدرة)[1].

---

(١) أمالى ابن الشجرى ٣/ ١٠٠.

هذا التقدير في صيغة قياس تشبيهي حذف منه المشبه، ودَلَّ عليه بالفاء الفجائية التي هي في معنى الجزاء. وإن لم يكن معبرًا عن المحذوف بصيغة شرط، هذا التقدير من أبي علي -رحمه الله- جاء مستلهمًا للمعني، مستجيبًا لذوقه في التعرف على طعوم الكلام. وهو في نظري أدق من تقدير الزمخشري الذي كان أميل إلى الصناعة منه إلى الذوق، وإن لم يبعد بدلالة الفاء عما قاله أبو علي. قال الزمخشري: (عقَّب ذلك بقوله: «فكرهتموه» معناه: فقد كرهتموه، واستقر ذلك. وفيه معنى الشرط، أي إن صح هذا فكرهتموه، وهي على الفاء الفصيحة، أي فتحققت بوجوب الإقرار عليكم، وبأنكم لا تقدرون على دفعه وإنكاره، لإباء البشرية عليكم أن تجحدوا كراهتكم له، وتقذركم منه، فليتحقق أيضًا أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة، والطعن في أعراض المسلمين)[١].

كلام الزمخشري هذا يَحْجل حول ما قاله أبو علي، وتقدير أبي علي أحبّ إليّ، وإن كان أبو حيّان جعل كلا التقديرين من عجرفة العجم[٢]، مستحسنًا تقدير الفراء: «فقد كرهتموه فلا تفعلوه» وهو -فيما أرى- تقدير نحاة لا يَعتدُّ بمثله أهل البيان.

وتأمل كيف تداوي هذه الفاء جراح الرسول عليه السلام، وتجفف ماقيه، حين تطوي له الزمن، وتنقله مما فعله معه أهل الكتاب، إلى ما فعلوه بنبيهم، ليرى ما استعظمه من سؤالهم إياه، إلى جانب ما سألوه نبيّهم حقيرًا تافهًا: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] فالفاء: طوت شرطًا قدره أبو السعود: (إن استكبرت ما سألوه منك. فقد سألوا موسى شيئًا أكبر منه)[٣] وسر جمال هذه الفاء ما فيها من مفاجأة الرسول بما لم يكن يتوقعه، ونقله بسرعة من حاضر غريب إلى ماض

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٦٨. (٢) البحر المحيط ٨/ ١١٥.

(٣) تفسير أبي السعود ٢/ ٢٤٩.

أشد غرابة، والربطُ بين سؤالهم للنبي وسؤالهم لموسى، وبيان المفارقة بينهما بما يزيل عن الرسول كل همومه، ويقطع عليه كل سبيل إلى الأسى والحزن على عنت هؤلاء القوم.

ولهذه الفاء المفاجئة خلابتها حين ترخي العنان للخصم، وتسلم له بمنطقه، لتقوده إلى العجز والاستسلام، في هذا التحدي الموجه إلى مشركي العرب: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣] فقد أظهر القرآن للمخاطبين التسليم بدعواهم أنه مفترى، وجاراهم فيها، ثم فاجأهم بما يعجزهم، ويلجئهم إلى نقض مقالتهم، والاعتراف بكذبهم في دعواهم. . وكأنه يقول: سلمنا لكم ما تقولون من أنه مُفترًى، فإن كان الأمر كما تقولون فما الذي يعجزكم عن أن تفتروا عشر سور من مثل ما افترى، وأنتم فرسان البيان وأرباب الفصاحة؟ فإذا لم تستطيعوا فليس أمامكم إلا الاعتراف بأنه من عند الله. يقول الزمخشري: (لما قالوا: افتريت القرآن واختلقته من عند نفسك، وليس من عند الله، قاوَدَهُمْ على دعواهم، وأرخى معهم العنان، وقال: هبوا أني اختلقته من عند نفسي، ولم يوحَ إليّ، وأن الأمر كما قلتم، فأتوا أنتم أيضًا بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم، فأنتم عرب فصحاء مثلي، لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام)(١).

ولا يخفى أن بيان الزمخشري لهذه الفاء يدل على أنها مفصحة عن شرط مقدر، وهو واضح في عبارة البيضاوي المرجّعة لكلام الزمخشري: (إن صحّ أني اختلقته من عند نفسي، فإنكم عرب فصحاء مثلي، تقدرون على فعل ما أقدر عليه، بل أنتم أقدر، لتعلمكم القصص والأشعار، وتعودكم القريض والنظم)(٢).

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٦١

(٢) تفسير البيضاوي ٥/ ٨٠.

الوصل بالفاء والوصل بالاستئناف

تلتبس مواقع الفاء بمواقع الاستئناف البياني، وتَدِقُّ فروق المعاني بينهما، وخاصة حين تقع الجملة الثانية تعليلاً للجملة الأولى، فتوصل بفاء التعليل تارة، وترتبط بما قبلها ارتباطًا ذاتيًا بلا عاطف تارة أخرى، وبين الموضعين من الاشتباك والتداخل ما يتطلب الوقوف عنده لبيان فروق النظم، واختلاف الدواعي والأغراض.

● ضبط معاقد الكلام

أوجب البلاغيون فصل الجملة عما قبلها إذا (كان الكلام السابق بفحواه كالمورد للسؤال، فينزل ذلك منزلة الواقع، ويطلب بهذا الثاني وقوعه جوابًا له، فيقطع عن الكلام السابق لذلك)[1] وأطلقوا على ذلك اسم الاستئناف، فدلوا بهذه التسمية على أن ظاهر الجملتين يقتضي الفصل، لاستقلال كل منهما عن الأخرى، (لأن الاستئناف الذى هو الإتيان بكلام مستقل، فى جميع أجزاء تراكيبه عما قبله يستلزم قطعه، أى ترك عطفه عما قبله)[2].

والاستئناف مصطلح سَرَى إلى علم المعانى من أروقة النحاة، ويقصدون به عدم التعلق الإعرابى بين الجملتين، ولا يعني عدم الارتباط المعنوى، بدليل أنهم قالوا به مع توسط الواو أو الفاء بين الجملتين، وأطلقوا عليهما واو الاستئناف، وفاء الاستئناف، وهما فى الحقيقة عاطفتان، لكنهما لا تعطفان المفردات، وإنما تعطفان جملة الاستئناف على ما قبلها. وهذا ما صرّح به النحاة أنفسهم. ففى قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]، قال أبو على الفارسى فى تعليل قراءة ابن عامر: «ويكفّرُ» بالرفع: (أن يستأنف الكلامَ ويقطعَه مما قبله، فلا يجعل

---

(١) مفتاح العلوم ١٤٢.

(٢) مواهب الفتاح بشروح التلخيص ٣/ ٥٦.

الحرف العاطف للإشراك، ولكن لعطف جملة على جملة)[١] وقال ابن هشام في المغني: (قيل: الفاء تكون للاستئناف، كقوله:

ألم تسأل الربع القواء فينطق ... وهل تخبرنك اليوم بيداء سملق

أي فهو ينطق، لأنها لو كانت للعطف لجزم ما بعدها، ولو كانت للسببية لنصب. ومثله «فإنما يقول له كن فيكونُ» بالرفع، أي فهو يكونُ حينئذ، وقوله:

الشعر صعب وطويل سُلَّمُه ... إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه

زلّت به إلى الحضيض قدمُه ... يريد أن يُعْرِبَه فيعجمُه

أي فهو يعجمهُ. ولا يجوز نصبه بالعطف، لأنه لا يريد أن يعجمه.

والتحقيق أن الفاء في ذلك كله للعطف، وأن المعتمد بالعطف الجملة، لا الفعل)[٢].

فإطلاق البلاغيين اسم الاستئناف على ما هو منزل منزلة الجواب لسؤال اقتضته الأولى، قصد به قطع الجملة المستأنفة عن سابقتها، وعدم عطفها عليها، (لما بينهما من الاتصال والربط الذاتي المنافي للعطف)[٣]، لذلك أطلق عليه علماء البلاغة شبه كمال الاتصال، ولم يطلقوا عليه شبه كمال الانقطاع، مع أن الفصل فيما قيس عليه من السؤال والجواب الحقيقيين من كمال الانقطاع، لاختلاف الجملتين خبرًا وإنشاء. وقد نبه الزمخشري إلى التداعي المعنوي بين جملة الاستئناف وما استؤنفت عنه، وإلى أن الابتداء اللفظي لا يمنع من التبعية المعنوية بين الجملتين، وذلك في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٢، ٣] فقال: (وقد مرّ لي أن الكلام المبتدأ عقيب «المتقين» سبيله سبيل الاستئناف، وأنه مبني على تقدير سؤال، فذلك إدراج له في حكم المتقين، وتابع له في المعنى، وإن كان مبتدأ في اللفظ، فهو في الحقيقة كالجاري عليه)[٤] وعلق السيد الشريف على ذلك بقوله: (يعني أنه

---

(١) الحجة ٢/ ٢٩٩.
(٢) المغني ١/ ١٦٧.
(٣) مواهب الفتاح- شروح التلخيص ٣/ ٥٣.
(٤) الكشاف ١/ ١٤٩.

وإن كان فى صورة كلام مستقل منقطع عما قبله، حيث جعل مبتدأ لفظًا مخبرًا عنه بأولئك، لكنه مرتبط ارتباطًا معنويًا صار به من تتمة ما قبله، متصلاً به اتصال التابع بمتبوعه)[1].

وأكثر مواقع الفاء التباسًا بالاستئناف ما كان بينها وبين «إنّ» وبينها وبين استئناف القول فى المحاورات. وكان عبد القاهر قد نبَّه فى حديثه الممتع عن «إنّ» ومواقعها، إلى صحة وقوع الفاء موقعها فقال: (واعلم أن من شأن «إنّ» إذا جاءت على هذا الوجه أن تغنى غناء الفاء العاطفة مثلاً، وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمرًا عجبًا، فأنت ترى الكلام بها مستأنفًا غير مستأنف، ومقطوعًا موصولاً معًا، أفلا ترى أنك لو أسقطت «إنّ» من قوله:

إن ذاك النجاح فى التبكير

لم تر الكلام يلتئم، ولرأيت الجملة الثانية لا تتصل بالأولى، ولا تكون منها بسبيل حتى تجيء الفاء، فتقول: بكرا صاحبى قبل الهجير، فذاك النجاح فى التبكير، ومثله قول بعض العرب:

فغنها وهى لك الفداء إن غناء الإبل الحداء

فانظر إلى قوله: «إن غناء الإبل الحداء» وإلى ملاءمته الكلام قبله، وحسن تشبثه به، وإلى حسن تعطف الكلام الأول عليه، ثم انظر إذا تركت «إنّ» فقلت: فغنها وهى لك الفداء، غناء الإبل الحداء، كيف تكون الصورة؟ وكيف ينبو أحد الكلامين عن الآخر؟ وكيف يُشئم هذا ويُعرق ذاك؟ حتى لا تجد حيلة فى ائتلافهما، حتى تجتلب لهما «الفاء»، فتقول: فغنها وهى لك الفداء، فغناء الإبل «الحداء» ثم تعلم أن ليست الألفة بينهما من جنس ما كان؟ وأن قد ذهبت الأنسة التى كنت تجد، والحسن الذى كنت ترى)[2].

---

(١) حاشية السيد الشريف على الكشاف ١/ ١٤٩.

(٢) دلائل الإعجاز ٢٧٣.

هذا الكلام الطيب يقفنا على مشارف موازنة بين وصلين: أحدهما ظاهر بحرف موضوع للوصل، هو الفاء، والثاني خفي يتصل فيه الكلام اتصالاً ذاتياً، وتتكاثر فيه المعاني تكاثراً طبيعياً لا يحتاج معه إلى واصل صناعي.

وإذا كان عبد القاهر قد اكتفى في هذه الموازنة بالإلماح إلى تفوق الوصل الخفي، وأن الفاء وإن قامت بدور «إنّ» في الربط بين الجمل، فإنها لا تضاهيها في الحسن، ولا تغني غناءها في ذوق أهل البيان، فإنه وضع أيدينا على الفرق بين أن تتناسل المعاني كما تتناسل الأحياء، ويرث الخالف صفات السالف، ويمتد بنسبه امتداداً طبيعياً، وبين أن تتواصل المعاني تواصُلَ من تجمع بينهما عُرى الصداقة، وتضمهما روابط الألفة. فكما لا تسأل عن سبب اتصال الابن بأبيه سؤالك عن الأسباب التي جمعت بين صديقين، فكذلك لا تحتاج جملة الجواب في ارتباطها بجملة السؤال إلى رباط خارجي، احتياجَ الجملتين اللتين تربط بينهما الفاء. يقول الدكتور محمد أبو موسى: (أن ذكر الفاء نص في التعليل، وأن الكلام لم يُبن على أساس أن تكون الجملة الثانية متولدة عن الجملة الأولى، وموصولة بها، بهذه الرابطة التي تكلمنا فيها، وإنما هي مرتبطة بها بالفاء التي تعطفها عليها عطف العلة على المعلول، كأن هنا كلامين متميزين، أحدهما علة للآخر قامت الفاء بينهما مقام العروة الخارجية، ولهذا صار الفرق بين بناء الأسلوبين فرقًا ظاهراً، فأحدهما يقوم على الروابط الداخلية الخفية، والآخر على العلاقات اللفظية الظاهرة، ولكل مقامه)[1].

وليست كل مواقع «إنّ» تقوم فيها الفاء مقامها (إنما يكون الذى ذكرنا في الجملة من حديث اقتضاء الفاء، إذا كان مصدر الكلام يصحح به ما قبله، ويحتج له، ويبين وجه الفائدة فيه. ألا ترى أن الغرض من قوله:

إن ذاك النجاح في التبكير

جلُّه أن يبين المعنى في قوله لصاحبيه «بكّرا»، وأن يحتجّ لنفسه في الأمر بالتبكير، ويبين وجه الفائدة فيه)[2] لكن اللافت للنظر في حديث عبد القاهر عن

(١) دلالات التراكيب ٣٤.

(٢) دلائل الإعجاز ٣٢٣.

«إنّ» تأكيده في كل مرة على أن إسقاطها يقطع أواصر الجمل، ويذهب لُحمة النسب بينها، ولا سبيل إلى وصلها إلا إذا وضعت الفاء موضعها. يقول: (هل شيء أبين في الفائدة، وأدل على أن ليس سواء دخولها وأن لا تدخل، أنك ترى الجملة إذا هي دخلت ترتبط بما قبلها، وتأتلف معه وتتحد به، حتى كأن الكلامين قد أفرغا إفراغًا واحدًا، وكأن أحدهما قد سبك في الآخر؟

هذه هي الصورة حتى إذا جئت إلى «إنّ» فأسقطتها رأيت الثاني منهما قد نبا عن الأول، وتجافى معناه عن معناه، ورأيته لا يتصل به، ولا يكون منه بسبيل حتى تجيء بالفاء)[1].

وهذا غير ما تقرر في علم المعاني من أن الجملة المستأنفة قد تكون مؤكّدة بإنّ، إذا كان المخاطب مترددًا، أو له ظنّ في خلاف ما أخبرتَه، وقد يكون الاستئناف بغيرها إذا لم يكن ثمة حاجة إلى التأكيد، وهذا يعني أن إسقاط «إنّ» يذهب بالغرض من التأكيد، ولكنه لا يذهب بالترابط، فهو اختلاف دواع ومقامات، تتفاضل فيها الأساليب بقدر استجابتها لحاجات النفس وأغراضها، وليست مقارنة بين خطأ وصواب، اللهم إلا أن يكون قد أراد شيخ البلاغة بتجافي المعاني وعدم اتصالها ما لا يجيء محققًا لمقتضيات الأحوال ودواعي السياق، وإلا فإن الربط بالاستئناف قائم بغير «إنّ» والفاء. يقول السّعد: (فإن قلت: اعبد ربك، إن العبادة حق له، فهو جواب للسؤال عن السبب الخاص، أي: هل العبادة حق له وإذا قلت: فالعبادة حق له، فهو بيان ظاهر لمطلق السبب، ووصل ظاهر بحرف موضوع للوصل. وإذا قلت: العبادة حق له، فهو وصل خفي تقديري، والاستئناف جواب للسؤال عن مطلق السبب، أي لم تأمرنا بالعبادة له؟ وهذا أبلغ الوصلين وأقواهما، فتفاوت هذه الثلاثة بحسب تفاوت المقامات)[2].

وعليه فإنك لو قلت في البيت الذي ذكره عبد القاهر: «غناء الإبل الحداء» كان وصلاً خفيًا بالاستئناف كذلك، لكن يكون سؤالاً عن مطلق السبب، وهو ما يجافي

---

(١) دلائل الإعجاز ٣١٦.

(٢) المطول ٢٥٩.

حال المخاطب، الذى انشرح صدره للغناء، بعد أن عرف أن غناءه للإبل سبب اقتدائها له، فلا يتصور منه أن يسأل: لم تأمرنى بالغناء، وإنما يسأل عن هذا الغناء أهو الحداء أم شىء آخر؟ فكان سؤال المتردد المحوج إلى تأكيد ما تصوره من أنواع الغناء. وهو ما لا يصلح بإسقاط «إن» سواء عوض عنها الفاء أم وصل بغيرها.

ويكاد أهل البيان يجمعون على أن الوصل الخفى أبلغ من الوصل الظاهر بالفاء، وذلك لما فيه من الالتفات إلى المخاطب، وإثارته وإيقاظ فكره، واستبطان مشاعره وما يدور بخلده، ونقله من مجرد سامع يتلقى الأخبار ويتابعها، إلى محاور صامت، يؤثر فى الأحداث بحركته الذهنية، ويرسل إشارات عقلية، يلتقطها المتكلم، ويجيبه عليها، دون أن يتدخل المخاطب بكلام مقروء أو مسموع فى الحوار، فهو محاور بغير كلام، ومؤثر بغير ضجيج، إنه تراسل الحواس بين المبدع والمتلقى، تفردت به لغتنا فى نظمها العجيب.

لكن هذه الأبلغية فى الموازنة بين الفاء والاستئناف موازنة نظرية بحتة، لا تعنى أن الاستئناف حيث وقع كان أبلغ، وإنما يحكم ذلك دواعى الأحوال ومقامات الخطاب، فقد يكون الوصل بالفاء أبلغ فى مقام، والوصل الخفى بالاستئناف مجرداً من حرف التوكيد أبلغ فى مقام ثان، وقد تتعين «إن» فى مقام ثالث، ويجمع بينها وبين الفاء فى مقام رابع.

وللقرآن فى اختيارات هذه الطرق واستخدامها فى الموضع الذى لا يصلح فيه سواها المثل الأعلى. ولصاحب الفرائد فى ذلك كلام لو لم يكن له فى كتابه غيره، لكان جديراً أن يوصف بالفرائد، فما بالك بمثله وهو كثير؟! يقول: (مما مهدنا لك من كيفية إخراج الكلام على مقتضى الظاهر وخلافه، ولا سيما تنزيل غير السائل منزلة السائل، مع ما سيأتيك فى الفن الرابع فى بحث الفصل والوصل من مواقع الاستئناف، وفى بحث الإيجاز والإطناب من التنبيه على تفاوت المقامات فى اقتضاء الدلالة على المعنى بصريح اللفظ، وبالقرائن يعرف تفاوت: اعبد ربك، إن العبادة حق له؟ أو العبادة، أو فالعبادة حق له، بحسب المقام، فإنك إذا قلت: اعبد ربك، فإن كان المخاطب منكراً لاستحقاقه العبادة

أو متردداً فيه، أو خالى الذهن، لكن مع أمـارة إنكار أو اعتبار تردد، كان قوله: «إن العبادة حق له» جيـداً في الغاية، لمصادفته مقتـضى المقام، و«العبادة حق له» رديًا، لخلوه عن ذلك، و«فالعبادة» متوسطًا، لاشتـماله على شائبة تأكيد وإشعار بالسـببيـة، وإن كان خـالى الذهن من غـير أمارة الإنكـار والتردد، كان قـولك «العبـادة حق له» جيـداً، و«إن العبادة» رديًا، و«فـالعبـادة» متوسطًـا، لقربه من الابتدائى، وإن كان مما لا يناسبـه إلا وصل الكلام بما قبله بحرف ظاهر دال على السببيـة، كان «فـالعبـادة حق له» جيـداً قطعًا «والعـبادة» رديًا، و«إن العـبادة» متـوسطًا، لأن «إن» يغنى غناء الفاء العـاطفة فى الجملة الخبـرية، وإن كان مما يناسبه الوصل الخفى المعنوى، كان الأجود «العبادة»)(1).

لقد حـرصت على نقل هذا النص بطوله، لأنه يوازن بين الأسـاليب بخواصـها مرتبطة بمقاماتها، فكان أكثر تجاوبًا مع واقع النصوص فى اللسان العربى، وفى قمتها النص المعجز، الذى وقـعت فيه هذه الأنماط من الأساليب مـحكمة غاية الإحكام، آخذة بحُجَز سياقها، أو آخذا سياقها بحجزها، على خير ما تحب وترضى.

ونبدأ بأساليب الحـوار التى يحكيها القرآن على ألسنة المتحـاورين، فيأتى لفظ القول موصولاً بـالفاء حينًا، ومقطوعًا فى أغلب الأحيـان. وقد ذهب أهل اللغة إلى أن الأصل فى المقـاولات وصلها بالفـاء، وما جـاء بغيرهـا فهو مـبنى على إضمارها. قال الطبـرى فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: ٦٧] (وحذفت الفاء من قوله: «أتتخذنا هزواً» وهو جـواب، لاستـغناء ما قـبله من الكلام عنه، وحـسن السكوت على قوله: «إن الله يـأمركم أن تذبحـوا بقرة» فـجاز لذلك إسـقاط الفاء مـن قوله: «أتتخذنا هزواً» كما جاز وحسن إسقاطها من قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا﴾ [الحجر: ٥٧، ٥٨] ولم يقل: فقالوا إنا أرسلنا، ولو قيل: فقالوا كان حسنًا أيضًا جائزًا)(2).

---

(1) الفرائد فى شرح القرائد ٢٢.

(2) تفسير الطبرى ٢/ ١٨٣.

فالفاء فـي نظر أهل اللغة مرادة في مثل هذه المواضع، وهو مـا صرح به ابن الشجرى حين قال: (ومما استمر فيـه حذف الفاء من أوائل آيات متواليات، قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ... قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣- ٣١] جميع هذه الآي الفـاء مرادة فيها»[1] لكن أهل البيان يرون أن أقوال المتـحاورين موصولة اتصـالاً ذاتياً يتولد من كل قول سـؤال يقع الآخر جـوابًا له. يقول عبد القـاهر: (واعلم أن الذى تراه فى التنزيل من لفظ «قـال» مفصولاً غـير معطوف، هذا هو التقدير فيه والله أعلم، أعـنى مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ﴾ [الذاريات: ٢٤- ٢٨] جاء على ما يقع فى أنفس المخلوقين من السـؤال. فلما كان فى العـرف والعادة فيما بين المخلوقين إذا قيل لهم: «دخل قوم على فلان فقالوا "كـذا"» أن يقولوا: فما قال هو؟ ويقول المجـيب: «قـال كـذا» أخـرج الكلام ذلـك المخـرج، لأن الناس خـوطبـوا بما يتعارفونه، وسلك باللفظ معهم المسـلك الذى يسلكونه)[2].

هذا الفصل روعى فيه حركة ذهن السامع فـى تنقله بين المتحاورين، ومواكبته في وثباته وتطلعاته، وفـيه تقدير لوعيه وحـسن تنصته، فيسـاق له كلام المحاور الآخر مساق الجواب لما همست به نفسه، وجال بخاطره، فهو كلام يتكاثر داخل نفس المخاطب ويترتب فى ذهنه، ويمتد بامتداد أفقه المتوثب إلى المعرفة، للإجابة عما يجول بخاطره.

فالمخـاطب هنا سـريع الحركـة، كامل اليـقظة، يمـسك بمفاتيح الحـوار، ويعطه بالقدر الذى يشبع نهمه.

فإذا ما دخلت الفاء كان للحوار مذاق آخر، تتدفّق فيه الكلمات والجمل تدفقًا لا يترك للمخاطب مـهلة يلتقط فيها أنفاسه، ويستجمع فيها قواه، فـهو مأخوذ

(١) أمالى ابن الشجرى ٢/ ١٤٥.

(٢) دلائل الإعجاز.

بجلال الحدث، يرصده ويلاحقه، لكنه لا يسبقه، وتترتب فيه الأحداث طبقًا لما يريد المتكلم أن يخبر به، لا كيفما أراد المخاطب أن يَعْرِف.

لذلك كان الاستئناف وطرح القفاه أبلغ، لما فيه من الرسائل المتبادلة بين المخاطب والمتكلم، والتي يطوى فيها حديث النفس ويبقى أثره دالاً عليه في الفصل بين أقوال المتحاورين، وهو ضرب من الإيجاز، تقل فيه الألفاظ وتتكاثر المعاني وتتوثق فيه الصلة بين المبدع والمتلقي.

● فصل أقوال المتحاورين ووصلها

أما عن اختلاف المقامات في فصل المقاولات ووصلها، فمتى كان المقام مقام تسجيل واستنكار وتوبيخ، وكان الغرض إشهاد المخاطب على أصحاب هذه الأقوال وإدانتهم، أو كان الحوار يمثل أحداثًا غريبة يثب فيها خيال المخاطب لاستشراف ما لم يقص عليه منها، كان الفصل هو الأليق، لأنه حينئذ يراد له أن يشارك بشهادته، فتترك له الفرصة، لأن يسأل ويجاب كما هو الشأن في قصة البقرة، التي أمر الله تعالى بني إسرائيل بذبحها، فكانت أقوالهم جدلاً ومماطلة تدهش المخاطب، وتدفعه إلى التطلع لمعرفة ما وصل إليه القوم في تعنتهم ومماطلتهم. ومثل ذلك الحوار الذي دار بين رسل الله، وبين إبراهيم عليه السلام، وبينهم وبين زوجته: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٣٠].

فقد تضمن من الأحداث الغريبة ما تثب معه النفس والعقل، تشوفًا إلى معرفة ماذا سيحدث بعد كل قول، واندفاعًا مما حُكي للوصول إلى ما لم يُحْكَ.

ويجب هنا أن نفرق بين قول ينبني على قول، ويراعى فيه تطلع المخاطب إلى معرفة قول الآخر، وبين قول يرتبط بقول، ويتسبب عنه حتى يصبح جزء كلام، وينتظم مع الأول انتظام الجملة الواحدة. ففي الأول من الاستقلال ما يقتضى الفصل، وفى الثانى من الاشتباك والتداخل ما يستدعى حرف الوصل.

وكأنى بالفصل وحاجته إلى الوقوف عند انتهاء القول السابق، أشبه بلحظة انتظار من المتكلم يسمع فيها ما تهمس به نفس المخاطب بالسؤال، قبل أن يستأنف الجواب عنه بحكاية ما قاله الآخر، بخلاف الفاء التى توالى بين الأحداث على وجه يخدم سرعة القصّ، ويربط بين الأسباب ومسبباتها.

والمثل على ذلك ما حكاه الله تعالى عند إرسال النبيين الكريمين: نوح وهود عليهما السلام. قال فى قصة نوح: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩] فعطف القول على الإرسال بالفاء.

وفى قصة عاد التى عطفت على قصة نوح قال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]. ففصل القول عن الإرسال مع تشابه النظم فى القصتين.

وقد توقف الزمخشرى أمام الموضعين، وتساءل عن سر حذف العاطف فى الآية الثانية: (فإن قلت: لم حذف العاطف من قوله «قال يا قوم» ولم يقل: فقال، كما فى قصة نوح؟ قلت هو على تقدير سؤال سائل قال: فما قال لهم هود؟ فقيل: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾[1]. غير أن جوابه اقتصر على تعليل الفصل دون أن يبين سر إيثار الفصل والوصل فى موقعيهما، مما جعل السعد يستدرك عليه بقوله: (تمام الجواب أن يبين وجه اختصاص قول نوح بالعطف والربط اللفظى، وقول هود بالاستئناف والربط المعنوى. فقيل: قصة نوح ابتداء

---

(١) الكشاف ٢/٨٦.

كلام، فليست مظنة سؤال بخلاف قصة هود، فإنها معطوفة على قصة نوح، فكانت مظنة أن يقال: أقال هود مثل ما قال نوح أم لا؟ وقيل: لأن نوحًا كان مواظبًا على دعواهم، مواصلاً للجواب عن شبهتهم؟ فكان كلامه شديد الملاءمة لحرف التعقيب، ولا كذلك حال هود)[1].

هذا كلام دقيق في الربط بين اختلافات النظم ودواعيها، وبسْطُ ذلك أن إخبار الله تعالى بإرسال نوح ابتداء لا يثير سؤالاً مؤداه، ماذا قال لقومه، حتى يقع القول مفصولاً على طريق الاستئناف، إذ قد يعقب الإخبار بالإرسال خبرٌ آخر ليس فيه مثل هذا القول، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]. فلو كان الإخبار بإرساله إلى قومه يستدعي هذا السؤال، لكان ذلك الشأن حيث ورد مثل هذا الخبر. أما الذي استدعى هذا السؤال وورود القول مفصولاً في قصة هود، فهو عطفها على قصة نوح، وبناؤها على مثل ما بُنيت عليه الأولى. فلما أعقب الإخبار بإرسال نوح الإخبار بما قال لقومه، توقع المخاطب عند سماع الخبر بإرسال هود أن يتبعه الإخبار بما قاله لقومه، لتشابه بناء القصتين، فراعى النظم تشوُّفه إلى معرفة هذا الخبر ففصله. أما دعوى أن نوحًا كان مواظبًا على دعواهم، مواصلاً للجواب عن شبهتهم، فليس ذلك -فيما أرى- سر الوصل بالفاء لأن ذلك شأن المرسلين جميعًا، والدليل على ذلك أن القول جاء معطوفًا على الإرسال بالفاء فيما حكاه الله تعالى عن موسى عليه السلام، حين كانت قصته بداية القصص في سورة الزخرف، كما كانت قصة نوح ابتداء القصص في سورة الأعراف والمؤمنون. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦].

ليس أمامنا إلا القول بأن عطف قصة هود وصالح وشعيب على قصة نوح، وبناءَها على مثل ما بنيت عليه من النظم في سورة الأعراف، هو الذي أثار

---

(١) حاشية السعد ٢/٥٩٨.

فيها السؤال. وتقدير السعد لهذا السؤال أدقّ من تقدير الزمخشرى: «ما قال هود لقومه؟» وكأن الإخبار بالإرسال هو الذى استدعى هذا السؤال، وليس ذلك صحيحًا، وإنما الصحيح ما قدره السعد «أقال هود مثل ما قال نوح أم لا». لأن تقدم قصة نوح هو الذى أثار السؤال لا تقدم فعل الإرسال.

أما وصله فى قصة نوح بالفاء، ففيه إشارة إلى الارتباط الظاهر بين الإرسال والغرض منه، وهو دعوة القوم إلى الله. فأدّت الفاء درها فى الإشارة إلى المبادرة بتبليغ ما أرسل به، وأخرجتهما مُخرج الجملة الواحدة، التى أخبر بجزئها الأول عن الإرسال، وبجزئها الثانى عن أداء الرسالة. وقد أشار ابن المنير إلى الفرق بين وجود العاطف وتركه فى الموضعين بقوله: (اعلم أن العاطف ينتظم الجمل حتى يصيّرها كالجملة الواحدة، فاجتنب لإرادة استقلال كل احدة منها فى معناها)[1].

هذه المبادرة فى طبيعة الفاء، وما تدل عليه من الإسراع بالرد، يقصد إليها القرآن حين يريد إبراز الانفعال بمضمون القول السابق، وسرعة الاستجابة دونما تلعثم أو تردد، كما نجده فى قوله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٣ - ٨٤].

جاء قوله «فقالوا على الله توكلنا» معطوفًا بالفاء، ليعكس صدق الإيمان لدى هذه القلة، التى استثناها الله تعالى ممن أرسل إليهم موسى، وليبرز أن علوّ فرعون وطغيانه لم يدفعاهم إلى التردد لحظة فى الاستجابة لأمر موسى، وهو ما يعضّده قَصْرهُم التوكل على الله وحده. فكأن القرآن يقول: إنهم حين دعاهم موسى إلى التوكل على الله أسرعوا إلى تلبيته، ولم يترددوا فى الانحياز إليه. يقول صاحب التحرير والتنوير: (وقد كان صادق إيمانهم مع نور الأمر النبوى

---

(١) الإنصاف ٢/ ٨٦.

الذى واجههم به نبيهم مسرعًا بهــم إلى التجرد من الخوف والمصانعة، وإلى عقد العزم عــلى التوكل على الله، وكــذلك بادروا بكلمة «على الله توكلـنا» مشتــملة على خصوصية القصر، المقتضى تجردهم عن التوكل على غير الله تعالى، وأشير إلى مبــادرتهم بأن عطفت جملة قــولهم ذلك على مقالة مــوسى بفاء التعــقيب، خلافًــا للأسلوب الغالب فى حكاية جــمل الأقوال الجاريــة فى المحاورات، التى تكون غير معطوفة، فخولف مقتضى الظاهر لهذه النكتة)[1].

فالفصل وبناء الجـملة المستأنفة على السـؤال يذهب بالغرض من الدلالة على سرعــة الاستجابة، وعــدم التردد فى إجابتــه إلى ما دعاهم إليــه، لأن الغاية من السـؤال هــى معــرفة رده عليهم، لا معــرفة ما إذا كانوا قد بادروا إلى الجـواب أو تأخروا فيه.

نعم. الغالب فى حكاية المحــاورات فصل الأقوال، رعاية لاستــقلال كل قول عن الآخر، والتفاتًا إلى كونها أجــوبة عن أسئلة تتولد عن الأقوال السابقة، وهو الغالب كذلك فى محاورات القرآن الكريم، وما جاء معطوفًا بالفاء -وهو قليل- روعى فيه خــصوصية فى القــول، توجب ارتباطه بالأول ارتباط التابع بمتــبوعه، فتدخل الفاء للدلالة على أن المعطوف مسبب عما قبله، وليس مستقلاً عنه.

وهذا هو ســر المجىء بالفــاء فى ردّ قــوم نوح مــن ســورتى هود والمؤمنون، وحذفها فى ردهم من سورة الأعــراف، مع أنهم فى المواضع الثلاثة يجيبونه على دعوتهم إلى الله تعــالى وتخويفهم من عذاب الله، ولكن لما اخــتلفت إجابــاتهم فصــل منها ما كان إجابة مستــقلة، كأنهم ابتدءوه بها، ووصل بالفاء ما كان من أقوالهم مرتبطًا بقول نوح ارتباطًا لا يصح معه الاستقلال.

فقد جاء مــفصولاً على سبيل الاستــئناف قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٥٩ - ٦٠].

---

(١) التحرير والتنوير ١١/ ٢٦٣.

سقطت الفاء من قول الملأ، لأنه وإن كان رداً على دعوة نوح لهم، فإنه أخرج مُخرج الكلام المستقل، لإبراز عنادهم وإصرارهم على كفرهم، وكأنهم بادءوه بقولهم هذا، ولم يكن منهم ردُّ فعل على دعوته. بخلاف الموضعين اللذين دخلت فيهما الفاء، فإن جوابهم فيهما ليس له صفة الاستقلال، ولا تصح المبادأة به، فأخرجته الفاء مخرج التابع المتسبب عن دعوة نوح. هما قوله تعالى في سورة هود ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٥ - ٢٧].

وقوله في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣ - ٢٤]. فقول الملأ في هذين الموضعين لا يصح المبادأة به، وليس هو مما يستقل به الكلام، لأنه كالدليل على كفرهم، فهو مرتبط بقول نوح ارتباط كلام مسبب عن كلام، ومترتب عليه. فكأنهم قالوا: لا نقبل دعوتك، لأنك بشر مثلنا، فكما أن قولك: لأنك بشر مثلنا لا يصح استقلاله عن قولهم: لا نقبل دعوتك، كذلك لا يستقل قولهم هذا عن قول نوح عليه السلام، وذلك هو السر في وصف الملأ في الموضعين بالكفر، وتركه في الموضع الأول، لأنه إعلان لكفرهم وإصرارهم عليه، وفي الموضعين الأخيرين تدليل على كفرهم. وهذا واضح فيما قاله الغرناطي: (إن الواقع في سورة هود من قوله تعالى مخبراً عن جواب قوم نوح: «ما نراك إلا بشراً مثلنا» إلى آخر كلامهم لا يستقل مبتدأ به، بل يستدعي ما ينبي عليه، إذ لا يفتتح أحد أحداً بمثل هذا مُبْتَدأ، وإنما يتكلم بهذا جوابًا. ولما قال لهم نوح عليه السلام: «يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره» إلى ما عرّفهم به مما حصل به الإعلام بمقامه النبوي، وجاوبوه بُعداً عن

تعرّف صدقه، ومعرفة حقه بقولهم: «ما نراك إلا بشراً مثلنا» أى لو كنت كما تزعم لكنت من جنس الملائكة، ولم تكن من جنس البشر، وقد أفصحوا بهذا فى سورة المؤمنين.......

أما قوله فى سورة الأعراف: «قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين» فإن هذا وإن تضمن الجوابية، فإنه بغير الفاء، وحصلت الجوابية من حيث المعنى مع رعى ما يناسب النظم..

فتأمل جوابهم هنا لما كان الوارد فى قصة نوح عليه السلام فى أنه يبتدأ بمثله، ولا يفتقر إلى ما ينى عليه كيف ورد بغير الفاء)(1).

ومن روائع الوصل بالفاء خلافًا لمقتضى الظاهر من فصل المقاولات، قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

فلما كان المسئول عنه وهو الرازق المالك للسمع والأبصار، المخرج الحى من الميت والمخرج الميت من الحى، مما لا نزاع فى اختصاصه بما وصف به، ولا يدّعى المخاطبون فيه لغيره شريكًا، جاء الجواب مقترنًا بالفاء، للدلالة على أنهم لا يترددون فى التسليم به لله تعالى، ولا يماطلون فى الإقرار به، وللفاء فى الدلالة على المبادرة بالجواب فى هذا الموقع ما ليس للقطع والاستئناف، المنبئ عن إجالة النظر والتريُّث قبل الجواب.

ألا ترى كيف وقع الجواب مفصولاً حين تعلق الأمر بالربوبية والملكية الخالصة لما خلق، لما فيه من إلزام بنفى الشريك، فلم يبادر المخاطبون بالجواب، كما بادروا به فى الآية السابقة وإن لم يستطيعوا الإنكار. إلا أن الفصل أشعر بريثهم فى الإجابة، وتدبّر عواقبها قبل إلجائهم إلى النطق بما لا مناص من الإقرار به.

---

(1) ملاك التأويل ١/ ٣٩٤ - ٣٩٥ بتصرف.

وذلك فى قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٥ - ٨٩].

فحين كان أمر رزقهم وما تبعه من ملكية أسماعهم وأبصارهم فى ظهور إسناده لله تعالى مما تهتف به قلوبهم وتلهج به ألسنتهم، دخلت الفاء دالة على مبادرتهم بالإجابة، وحين قُرِّروا بالربوبية وما يتبعها من إخلاص ملكيته تعالى لأرضه وسمائه - وفى الإقرار تضمين نفي الشريك تثاقلت ألسنتهم وتباطأوا فى الجواب، وأشعر الفصل بأنهم اعترفوا اعتراف المغلوب على أمره، المجبر على الإقرار بما لا يستطيع إنكاره، وذلك ما لا يناسب حرف التعقيب.

وهذا هو سر اقتران إجابة الرسول على سؤال المشركين بالفاء فيما أمر أن يجيبهم به من قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥] وهو الموضع الوحيد من بين سبعة عشر موضعًا، صُدِّر فيها خمسة عشر موضعًا بصيغة «يسألونك» وموضعان بصيغة «يستفتونك»، وفيها جميعًا أجابهم الله تعالى على لسان رسوله، مصدرًا الإجابة بلفظ «قل» مفصولاً، عدا هذا الموضع الذى اقترن بالفاء، فكان ذلك إشعارًا بأن الإجابة على سؤالهم هذا كانت مما أوحى الله تعالى به إلى نبيه قبل أن يسألوه، فبادرهم بالجواب عقب سؤالهم دون ريْث، بخلاف المواضع الأخرى، التى كان عليه السلام ينتظر الوحى ليجيبهم على ما سألوه. كما فى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. قال الزركشى: (قالوا وجميع ما فى القرآن من السؤال لم يقع عنه الجواب بالفاء إلا قوله تعالى: «ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفًا»

«الآية» لأن الأجوبة في الجميع كانت بعد السؤال، وفى طه كانت قبل السؤال)[1].

وللرازى رأى طريف في اختصاص آية طه بالفاء، وإن كان لا يخرج عما أثبتناه من معنى المبادرة والإسراع بالجواب. يقول الرازى: (إنما قال: «فقل» مع فاء التعقيب، لأن مقصودهم من هذا السؤال الطعن فى الحشر والنشر، فلا جرم أمره بالجواب مقرونًا بفاء التعقيب، لأن تأخير البيان فى مثل هذه المسألة الأصولية غير جائز. أما المسائل الفروعية فجائزة، لذلك ذكر هناك «قل» من غير حرف التعقيب)[2].

وانظر كيف وقعت الفاء فى أمر الله لرسوله بالجواب على ما اقترحه أهل مكة من الإتيان بآية كآيات موسى وعيسى، مستخفّين بما أنزل الله تعالى عليه من الآيات، وأعظمها القرآن الذى كان إعجازه لهم أعظم الأدلة على نبوّته عليه السلام، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠]. فلما كان قولهم هذا عنادًا واستكبارًا، واستهانة بما أنزل الله على رسوله من الآيات وقعت الفاء فى قوله تعالى: «فقل» لمبادرتهم بالجواب المتضمن تهديدهم بعقاب الله تعالى، إيماء إلى أن ما طلبوه لا يستحق الوقوف عنده، والاعتداد به، فقابل استهانتهم فيما سألوا، باستهانة أشد فيما أجاب، ودل بالإسراع فى جوابهم على التمكن والتثبت والثقة فى أن الله تعالى منجز ما توعّدهم به. فهو ليس فى حاجة إلى التريث والانتظار فى الرد عليهم.

- **الربط بالفاء والربط بـ«إنّ»:**

مواطن الالتباس بين التعليل بالفاء، والاستئناف بحرف التوكيد، هى مواضع الاحتجاج لما قبلهما، والاستدلال على صحته. وإيثار أحدهما على الآخر تحكمه دواعى الأحوال واختلاف المقامات، فحين يكون الموقف موقف تردد أو إنكار، فإن

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ١/ ١١٦

(٢) تفسير الفخر الرازى ٢٢/ ٧٧

الاستئناف بحرف التوكيد هو الأنسب لإزالة هذا التردد، وإقناع المنكر، ولذلك ألفت «إنَّ» مواطن السؤال عن السبب الخاص، لما يصاحبها من التردد والإنكار، كما أنها تكثر عقب الأوامر والنواهي التي يحتاج تنفيذها إلى كُلفة ومشقة، فكان ما فيها من مصارعة النفس ومغالبة الهوى، والتثاقل في أدائها بحاجة إلى ما في حرف التوكيد من الإلهاب والتهييج، مثلما تجده في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]. وقوله: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢]. ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦ - ٣٧]. ﴿يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤].

أما التعليل بالفاء فإنه يخرج السبب مخرج الأمر الذي لا ينكره المخاطب، ولا يتردد فيه حقيقة أو تنزيلاً، ويكون في مقام التوبيخ والتهديد أشد لذعا، وأكثر إيجاعًا، كما في قوله تعالى: ﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]. وفيه ينعى الله تعالى على المؤمنين تثاقلهم عن مقاتلة عدوّ نقض عهده معهم، وحاول إخراج الرسول، وبدأهم بالقتال، وكل هذه جرائم، واعتداءات من شأنها أن تستثير نخوتهم، وتدفعهم إلى المسارعة بمنازلته، وقد ازدادت نبرة التوبيخ والاستهجان لموقفهم بهذا الاستفهام «أتخشونهم»؟ بما تضمنه من تقريرهم بهذه الخشية، وتوبيخهم عليها، ثم جاء التعليل بالفاء «فالله أحق أن تخشوه» مناديًا على غفلتهم عن حقيقة ما كان يجب أن تغيب عن بال المؤمن،

وهى أن الله أحق بالخشية. وإذا كان المؤمنون فى حقيقتهم لا ينكرون أو يترددون فى استيجاب الله خشيتهم، فإن الفاء تظهر التناقض بين أقوالهم وأفعالهم، فهم على حين يسلمون بأن الله هو الأحق بأن يخشوه، يفعلون نقيضه حين يخشون سواه، وفى ذلك من النكير عليهم ما ليس ينهض به حرف التوكيد الموحى بالتردد فى استحقاق الله هذه الخشية، وهو ما لا يلائم حال المخاطبين، وقد جاء قوله تعالى: «إن كنتم مؤمنين» تجسيداً للتناقض بين الأقوال والأفعال، فليس الإيمان دعوى، وإنما هو عقيدة تدفع إلى الحركة، ويقين يشكل الفكر والسلوك معًا.

وقد عدل النظم الكريم عن الواو إلى الفاء، فلم يقل: أتخشونهم والله أحق أن تخشوه. وهو موقع الواو كما جاء فى خطاب الله لرسوله عليه السلام يعاتبه على ما جرى بينه وبين زيد بن حارثة: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. فلما كان الرسول مستحضراً لهذه الحقيقة، غير خافية عليه جاءت الواو على معنى: أنك تخشى الناس حال علمك بوجوب اختصاص الله بها. وعدل عنها إلى الفاء فى توبيخ المتثاقلين عن القتال، إشعاراً بأن المؤمنين فى خشيتهم لعدوهم كانوا جاهلين بها، غافلين عنها، وهذا الفرق الدقيق، بين الواو والفاء أوضحه الزمخشرى في قوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام فى خطابه لرُسُل ملكة سبأ: ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾ [النمل: ٣٦]. قال صاحب الكشاف: (فإن قلت: ما الفرق بين قولك: أتمدنى بمال وأنا أغنى منك، وبين أن تقوله بالفاء؟ قلت: إذا قلته بالواو فقد جعلت مخاطبى عالمًا بزيادتى عليه فى الغنى واليسار، وهو مع ذلك يمدنى بالمال، وإذا قلته بالفاء فقد جعلته ممن خفيت عليه حالى، فأنا أخبره الساعة بما لا أحتاج معه إلى إمداده، كأنى أقول له: أنكر عليك ما فعلت، فإنى غنى عنه، وعليه ورد قوله تعالى: ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ﴾[1].

---

(١) الكشاف ٣/ ١٤٨.

فتصوير المؤمنين بصورة من خفى عليهم أن الله هو أحق بالخشية أليق بمقام التوبيخ، وهو سر التعليل بالفاء، دون الاستئناف بإن المشعرة بأن هناك شائبة إنكار عند المخاطبين.

وتأمل هذه الفاء وشدة لذعها في قوله تعالى تأنيبًا لمن لم يحقنوا بالشهادة دماء من نطق بها، حبًا فى الغنيمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء: ٩٤].

فقد نزلت هذه الآية حين قَتَل أسامةُ بن زيد مرداس بن نهيك الضميرى، واستاق غنمه في إحدى السرايا التى بعثه الرسول عليها، بعد أن أعلن مرداس إسلامه، مما أغضب الرسول ﷺ[١].

فكان للتعليل بالفاء فى قوله: «فعند الله مغانم كثيرة» طعم أشد مرارة فى مقام التأنيب، حيث أبرزت المخاطبين وقد أعماهم حب الدنيا وأعراضها عن رؤية ما ادخرهُ الله لهم من النعيم المقيم، وأنستهم رغبتهم فى الغنيمة العاجلة، ما وعدهم الله تعالى به من المغانم الكثيرة الآجلة. فلو قيل إن عند الله مغانم كثيرة، لما كان لها من الوقع ما للفاء بما أشاعته من تجهيل وغفلة. فمعها يظهر الله تعالى لهم ما جهلوا أو تجاهلوا، لعمرك إنه لذم ما بعده ذم أن يجهل المجاهدون فى سبيل الله حقيقة ما أعدّ لهم من الجزاء، وهو الذى من أجله خرجوا. وليس ذلك موضع حرف التوكيد.

وإذا كان عبد القاهر قد صرح بأن الفاء حين توضع موضع «إن» فى مثل قول بشار:

بكرا صاحبى قبل الهجير ... إن ذاك النجاح فى التبكير

تؤدى دورها فى الوصل، ولكنها لا تعيد إلى الجملتين ما كان بينهما من الألفة، فإننا بمثل ذلك نقول فى «إنَّ» حين توضع موضع الفاء، فإنها وإن كانت

(١) انظر أسباب النزول للواحدى ١٢٩.

تغنى غناءها فى الربط بين الجملتين، لكنك لا تجد لها من الحسن والأنسة ما للفاء في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۝٤٠ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٤١ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٠ -٤٢].

فقد أدخلت الفاء الأنس على رسول الله ﷺ، حين أسرعت إلى إبطال مكر الماكرين، وأعقبت محاولات الكافرين السابقة فى الكيد لأنبيائهم، بحصر المكر المؤثر فى مكر الله. وعدم الاعتداد بكل مكر سواه، على ما يدل عليه أسلوب القصر بالتقديم، فى قوله «فلله المكر جميعًا». وهذه الفاء وحدها هى التى ألقت فى روع الرسول ﷺ ألا يأبه بمكرهم فيما أفصحت عنه من معلَّل محذوف، على ما صرح به الجمل فى حاشيته حين قال: (فلله المكر جميعًا) تعليل لمحذوف تقديره: فلا عبرة بمكرهم، ولا تأثير له، فحذف هذا اكتفاء بدلالة القصر المستفاد من تعليله بقوله (فلله المكر جميعًا)[1].

وما للفاء من خصوصية الإلماح إلى معان مطوية يجعلها أثيرة فى مثل هذا الموضع. بحيث لو وضَعْتَ «إنَّ» موضعها فقلت: وقد مكر الذين من قبلهم إن لله المكر جميعًا، لبدت «إنَّ» غريبة نابية، وذهب ما بين الجملتين من الانسجام والائتلاف، وضاع ما أومأت إليه الفاء من معلَّل محذوف. ذلك أن الشأن فى حرف التوكيد أن يقع فى جواب سؤال مقدر، تنبئ عنه الجملة المعلَّلة، فإذا كانت هذه الجملة محذوفة، فإن استشعار السؤال ضرب من التنجيم، لا يقع مثله فى كلام فصيح، ولو ذكر هذا المعلل لضاع الغرض من الحذف والمبادرة إلى هذا القصر الذى أراح نفس الرسول عليه السلام، وربط على قلوب المؤمنين. إنه موضع الفاء، تتفرّد به فيما تفصح عنه من حذوف، سواء كان المحذوف سببًا كما ذكرناه فى مبحث طى الأحداث، أم كان المحذوف مسببًا كما فى هذه الآية.

---

(١) الفتوحات الإلهية ٢/ ٥١٢.

● الفاء والاستئناف بغير إنَّ:

درج علماء البيان على القول بأن الوصل بالاستئناف أبلغ أبدًا من الوصل بالفاء، لما فيه من تقليل اللفظ وتكثير المعنى بتقدير السؤال، وما يتبع ذلك من أغراض ذكروها في باب الفصل والوصل[1]. وقد صرح الزمخشري بذلك في مجال الموازنة بين الوصلين في مشتبه النظم، وذلك حين قارن بين الوصل بالفاء في قوله تعالى من سورة الأنعام: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥]، ومثله قوله في سورة الزمر: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [الزمر ٣٩ - ٤٠]، وبين الوصل بالاستئناف فيما أشبههما من قوله تعالى على لسان شعيب: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٢ - ٩٣].

قال الزمخشري: (فإن قلت: أي فرق بين إدخال الفاء ونزعها في «سوف تعلمون»؟ قلت: إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، ونزعها وصل خفي تقديري بالاستئناف، الذي هو جواب لسؤال مقدر، كأنهم قالوا: فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون، فوصل تارة بالفاء، وتارة بالاستئناف، للتفنن في البلاغة، كما هو عادة بلغاء العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف، وهو باب من أبواب علم البيان، تتكاثر محاسنه)[2].

وبالرغم من ضعف القول باختلاف أساليب الوصل للتفنن في البلاغة، لما فيه من إغفال الدواعي والأغراض التي تستتبعها فروق في النظم، فإن من جاء بعده

---

(١) يراجع مواهب الفتاح وعروس الأفراح، وحاشية الدسوقي، من شروح التلخيص ٣/ ٥٤.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٨٩.

من المفسرين ورجالات البيان لم يخالفـوه فى القول بأبلغية الاستئناف، وحاولوا الكشف عن سر تفوقه على الوصل بالفاء، فقال الرازى بعد أن علل حذف الفاء بتقدير السؤال: (فظهر أن حذف الفـاء ههنا أكمل فى باب الفظاعة والتهويل)[(١)] وفى تعليقه على عبارة البيضاوى: «فهو أبلغ فى التهويل» قال الشهاب الخفاجى: (وكونه أبلغ فى التـهويل، للإشعار بأنه مما يسـأل عنه، ويعتنى به)[(٢)]. ويضيف الألوسى: (والسـؤال المقدر يدل على مـا دلت عليـه الفاء، مع مـا فى ذلك من تكثير المعنى وتقليل اللفظ)[(٣)].

لكنهم على اتفاقهم مع الزمخشرى فى كون الوصل بالاستئناف أبلغ، فهم لم يقتنعوا بأن الاختلاف راجع إلى الافتنـان فى الأساليب، وحاول بعضهم البحث عن سر المخـالفة فى الوصل بالفـاء فى موضع، وبالاسـتئناف فى مـوضع آخر، فقال الشهـاب: (وأمـا اختـيـار إحـدى الطـريقين ثمة، والأخرى هنا، وإن كان مثله لا يسأل عنه، لأنه دورى، فلأن أول الذكرين يقتضى التصريح، فيناسبه فى الثانى خلافه)[(٤)].

غير أن هذا التفسير لم يضف إلى مـا قاله الزمخشرى شيئًا ذا بال، أولاً: لأن قوله: «لا يـسأل عنه لأنه دورى» هو التـفنن عينه، الذى قـال به الزمخـشرى، وثانيًا: لأن أول الذكريـن ما جاء فى سورة الأنعام، وهى فى ترتيـب نزولها بعد سورة هود[(٥)]، فكان حق النظم بناء على هذا القـول أن يأتى بالفاء فى «هود»، وبحذفها فى الأنعام، وعلى فرض إغفال ترتيب النزول، واعتماد ترتيب التلاوة، فإنه وُصل بالفاء فى سورة الزمر، وهى الأخيرة فى التـرتيبين، فلماذا صرح فيها بالفاء وهى المذكورة آخرًا؟

وعلل الألوسى هذه المغايرة فـى النظم بقـوله: (وكـأن الداعى إلى الإتيـان بالأبلغ هنا دون ما تقدم، أن القوم -قاتلهم الله تعالى- بالغوا فى الاستهانة به،

(١) تفسير الفخر الرازى ١٨/ ٥٢.
(٢) حاشية الشهاب ٥/ ١٣١.
(٣) روح المعانى ١٢/ ١٢٧.
(٤) حاشية الشهاب ٥/ ١٣١.
(٥) يراجع البرهان ١/ ١٩٣.

عليه السلام، وبلغوا الغاية فى ذلك، فناسب أن يبالغ لهم فى التهديد، ويبلغ فيه الغاية)[1] ويقول الشيخ ابن عاشور بعد أن علل الفصل بتقدير السؤال: (ولكونه كذلك كان مساويًا للتفريع بالفاء، الواقع فى آية الأنعام فى المآل، ولكنه أبلغ فى الدلالة على نشأة مضمون الجملة المستأنفة عن مضمون التى قبلها، ففى خطاب شعيب عليه السلام قومه من الشدة ما ليس فى الخطاب المأمور به النبى ﷺ من اللين «فبما رحمة من الله لنت لهم»)[2].

وبالرجوع إلى ما قاله صاحب الفرائد -وقد سبق ذكره[3]- نجده يجعل الوصل بالفاء وسطًا بين الاستئناف بإن، والاستئناف بغيرها، لأن فى الفاء على حدّ قوله «شائبة تأكيد» ولذلك كان قولك: «اعبد ربك فالعبادة حق له» دون قولك: «إن العبادة حق له» وفوق أن تقول: «العبادة حق له» وبمقتضى ذلك فإن الوصل بالفاء أقوى فى مقام التهديد، لما فيه من شائبة التأكيد هذه التى أشار إليها الجونفورى، يعضّد ذلك أن القول فى هود منسوب إلى شعيب، والقول فى الموضعين الآخرين أمر من الله تعالى لنبيه، والأمر من الله تعالى يكتسب من جلاله وكبريائه، ما يجعل التهديد به أشد وأفظع، ثم إن ما فى الفاء من معنى التعقيب، وما يومئ إليه من قرب العذاب يتصعد بالتهديد ويتسامى به.

ويشهد لذلك استخدام الوصل بالفاء فى مقام الترغيب والترهيب، حيث كان الأمر صادرًا من الله تعالى فى قوله: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]. قال الجمل: (وقوله: «فسيرى الله عملكم» أى خيرًا كان أو شرًا، تعليل لما قبله، وتأكيد للترغيب والترهيب. والسين للتأكيد)[4] فإذا كانت السين للتأكيد، فإن دخول الفاء عليها يزيد الجملة تأكيدًا، لما تحمله من دلالة على قرب ذلك اليوم الذى يجازون فيه على عملهم. فالفاء بهذا المقام أحق وأولى.

---

(١) روح المعانى ١٢/١٢٧.
(٢) التحرير والتنوير ٢/١٥٣.
(٣) راجع ص١٠٧ - ١٠٨ من هذا الكتاب.
(٤) الفتوحات الإلهية ٢/٣١٦.

أما حين يراد استمالة المخاطب، وحثه على التأمُّل، ودفعه إلى التساؤل، ليقع الجواب في نفسه موقع المتشوَّف إليه، المتعطش لسماعه، فإن الفاء تسقط من اللفظ، ليتحقق هذا الغرض. وهو ما نراه في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]. قال الزمخشري: (وقوله: «عسى أن يكونوا خيرا منهم»، كلام مستأنف قد ورد مورد جواب المستخبر عن العلة الموجودة لما جاء النهي عنه، وإلا فقد كان حقه أن يوصل بما قبله بالفاء)(١). فالمنهي هنا هم المؤمنون، وقد أريد استنفارهم، وحثهم على اجتناب هذه الرذيلة، وإشراكهم في البحث عن علة هذا النهي، ليكونوا أكثر حماسا في اجتناب ما نهوا عنه، وفي لفظ «عسى» ما فيه من احترام الفكر، وتهيئته للقبول وحسن الاقتناع.

ومثله ما جاء في خطاب المؤمنين أيضا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٣ - ٣٤]. فقد مهد القرآن للأمر «ادفع» بما حسّنه في نفس المخاطب، من الدعوة إلى الله والعمل الصالح، حتى إذا ما جاء قوله: «ولا تستوى الحسنة ولا السيئة» كان قد تهيأ لأن يسأل: ماذا يصنع إذا قُذف بالسيئة؟ فكان قوله «ادفع بالتى هى أحسن» وما رتبه عليه من النتيجة الطيبة التي جعلت العدو يستحيل صديقًا حميما، رعيًا لتنبّه السامع، وكمال فطنته، وهو في مثل هذا المقام أبلغ من الفاء، كما أشار إليه السعد حين قال: («ادفع» وصل خفى استئنافى هو أبلغ من «فادفع» بالفاء الصريح في الوصل)(٢). مع ملاحظة أن السعد يجعل الاستئناف أبلغ من الوصل بالفاء أبدا، ونحن نراه أبلغ فى مقامه، لا فى كل حال، كما دللنا على ذلك فيما مضى.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٦٥.

(٢) حاشية السعد ٢/ ٦٩٥.

الفاء بين الإحكام والإقحام

ليست هناك قولة تتناقض مع واقع لساننا العربي، كالقول بالزيادة. ففي الوقت الذي يجمع فيه أهل البيان على أن الإيجاز إلف عربي، وأنه ميدان السبق والتفوق بين المبدعين وفرسان البيان، يخرج علينا من يقول بإقحام كلمة لها دلالتها لتثقل اللفظ، دون أن تضفي على نسقها شيئا من معناها، ويكون إبقاؤها وإلقاؤها سواء. ولو أنهم ضربوا ذلك مثلا لما عيب به الكلام، وعدُّوه من هناته، لسلمنا لهم بما قالوا. أما أن يستشهدوا به على أنه من فصيح الكلام، ويستجيزوا وقوعه في النظم المعجز، فذلك من خطل الرأي، وفساد القول. والعجيب أن كل ما قالوا فيه بزيادة الفاء، هو من الإيجاز الذي تتكاثر فيه المعاني وتقل الألفاظ، وتؤدي فيه الفاء معنى جملة بأكملها.

● مبعث القول بزيادة الفاء

بنى النحاة القول بزيادة الفاء على أنها أداة ربط، فإذا وقعت بين أمرين فيهما من روابط الإعراب ما يغني عن الربط بالفاء حكموا بزيادتها، لأنها لم تفد من الربط ما هي حقيقة به، كما إذا وقعت بين المبتدأ وخبره، أو بين المفعول وفعله، أو كان هناك رابط غيرها، كالواو، وغير ذلك. يقول المرادي: «وأما الفاء الزائدة فهي ضربان: أحدهما الفاء الداخلة على خبر المبتدأ، إذا تضمن معنى الشرط. نحو الذي يأتي فله درهم، فهذه الفاء شبيهة بفاء جواب الشرط، لأنها دخلت لتفيد التنصيص على أن الخبر مستحق بالصلة المذكورة. ولو حذفت لا حتمل كون الخبر مستحقا بغيرها، فإن قلت: فكيف تجعلها زائدة، وهي تفيد هذا المعنى؟ قلت: إنما جعلتها زائدة، لأن الخبر مستغن عن رابط يربطه بالمبتدأ، ولكن المبتدأ لـمَّا شَابَه اسم الشرط دخلت الفاء في خبره تشبيها له بالجواب. وإفادتُها هذا المعنى لا تمنع تسميتها زائدة، وبالجملة فهذه الفاء شبيهة بفاء جواب الشرط، ولتضمن المبتدأ معنى الشرط صُوَرٌ مذكورة في موضعها. والثاني: التي

دخولها فى الكلام كخروجها، وهذا القسم لا يقول به سيبويه، وقال به الأخفش، وزعم أنهم يقولون: أخوكَ فوجد. واحتج بقول الشاعر:

وقائلة خولان فانكح فتاتهم وأكرومة الحيّين خِلوٌ كما هيا». (١)

بناء على هذا التقسيم للفاء الزائدة أصبح لدينا زيادة فى اللفظ، تتبعها زيادة فى المعنى، وهو ضرب من الإطناب لا يخل بفصاحة الكلام، وإن كان اسم الزيادة لا يليق بمثله، وخاصة حين يطلق على ما وقع منه فى الذكر الحكيم. وزيادة أخرى خالية من الفائدة، يستوى فيها دخول الفاء وخروجها، وقد مثلوا لذلك بالفاء فى قوله تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧]. وقوله عز وجل: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]. قال ابن الشجرى: «وقوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۝٨﴾ [الشرح: ٨]. جامعت الفاء الواو، و«إلى» متعلقة بما بعد الفاء، ولو وضعت «إلى» فى محلها الذى تستحقه لقيل: وفارغب إلى ربك، ومثله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ٤- ٥]. انتصب ما قبل الفاء بما بعدها، وهذا من عجيب كلام العرب، لأن الفاء إنما تعطف، أو تدخل فى الجواب، وما أشبه الجواب، كخبر الاسم الناقص، نحو: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٤]. وهى ها هنا خارجة عما وضعت له. ومثل ذلك دخولها فى الأمر المصوغ من كان، مع تقدم الخبر، كقول أبى الطيب:

ومثل سراك فليكن الطِّلابُ

وإنما جاءوا بها فى هذا النحو ليعلموا أن المفعول أو الخبر وقع فى غير موقعه، فإذا لم يكن فى الكلام الواو ولا غيرها من حروف العطف، كقولك: زيدا فاضرب، فقد قال أبو على: زيدا منصوب بهذا الفعل، وليس تمنع الفاء من العمل، قال: وتسمى هذه الفاء معلِّقة، كأنها تعلق الفعل المؤخر بالاسم المقدم،

---

(١) الجنى الدانى ٧٠

وكأنـها هنا شـبيهـة بالزائد، ويدل على أن العـامل هو هذا الفعل قـولك: بزيد فامرر، لو لم تكن معلقة بامرر هذا لم يجز، لأنه لابد للباء من شيء تتعلق به، ولو علقتها بفعل آخر لاحتجت لهذا الفعل إلى باء أخرى انتهى كلامه.

وأقول: إنها زائدة لا محالة في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ لأنك إن لم تحكم بزيادتها أدى ذلك إلى دخول الواو العاطفة عليها. وهي عاطفة»[1].

أطلت في النقل ليـتضح أن قـول النحـاة بزيادة الفاء، مـرجعـه إلى قواعـد الصناعة، لا إلي ما تفـيده الفاء في مواقعها من أسـرار البيان، بدليل أن المرادى أصـر علي تسمـيتهـا بالـزائدة، مع ما أفـادته من المعنى الـذى أوضحه، وبدليل ما ذهب إليه ابن الشجرى من وجوب القول بزيادتها في مثل: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ حتى لا يجتـمع عاطفان نظرا إلى أن المفعـول مقدم من تأخيـر، ولا يشفع لهذه الفاء تقدم المفـعول، وفصله بين العاطفين، ولا دلالتهـا على أن المفعول وقع فى غير موقعه، كما قال.

قواعد الصناعة التى دفعت النحاة إلى القول بالزيادة ما كان يحق لها أن تنتقل إلى البـاحثين فى أسرار الكتاب المجيد، خاصـة ما قالوا فيه بالتسوية بين دخولها فى الكلام وخروجها منه، مما يشعر بأنهـا لغو وتطوُّل، وهو ما يقدح فى فصاحة أى كلام، فضلا عن البيان المعجز.

وقد أحسن الطبرى حين قال: (وغيـر جائز إبطال حرف كان دليلا على معنى فى الكلام، إذ سـواء قيلُ قـائل: هو بمعنى التطـوُّل، وهو فى الكلام دليل على معنى مفـهوم. وقيلُ آخر في جميع الكلام الـذى نطق به دليلا على ما أريد به: هو بمعنى التطول)[2].

قال الشيخ محـمود شاكر تعليقا عليه: (أراد الطبـرى أن ينفى مالجَّ فيه بعض النحاة من ادعاء اللغو والزيادة فى الكلام، فهو يقول: إذا كان للحرف أو الكلمة معنى مـفهوم فى الكلام، ثم ادعيت أنـه زيادة ملغاة فجائز لغـيرك أن يدعى أن

---

(١) أمالي ابن الشجرى ٣/ ٨٩.

(٢) تفسير الطبري ١/ ٤٤٠.

جملة كاملة مفهومة المعنى، أو كلاما كاملا مفهوم المعنى، إنما هي زيادة ملغاة أيضا، وبذلك يبطل كل معنى لكل كلام، إذ يجوز لمدع أن يبطل منه ما يشاء بما يهوى من الجرأة والادعاء، وهذا تأييد لمذهبنا الذى ارتضيناه)[1].

● فاء مُحْكَمة لا مُقْحَمة

إن جلال النصّ القرآني، وإعجاز نظمه يفرضان على من يتعرض لأسرار بيانه، أن يجعل همته في البحث عما وشت به حروف المعاني فيما استرقته من مواقع، تبدو للنظرة العجلى أنها طارئة عليها. فإذا وقع على سرها، فذلك الدليل على بطلان القول بزيادتها، وإذا عجز عن الوصول إليه، فليقل: إن هناك سرا حجبه الله عنه، وسينزع الله هذه الحجب عن غيره.

بهذا اليقين نعرض للمواضع التى ينطبق عليها القول بزيادة الفاء فيها.

ونبدأ بالآيات التي ذكرناها أمثلة لما قالوا فيه بزيادة الفاء قال تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ (٥٤) هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾

[ص: ٤٩- ٥٧].

ففى الآية الأولى جاء قوله ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ مفصحًا فيه عن خبر اسم الإشارة، وفى قوله: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ طوى خبره، وكان ذكر الخبر قبلها مع اتحاد النسق فى الآيتين دليلا على أن لـ«هذا» خبراً محذوفا، يومئ إلى جزاء المتقين، ويستحضره فى ذهن المخاطب ليقابل به جزاء الطاغين، وكأنه قال هذا النعيم يقابله للطاغين عذاب أليم. ثم جاء قوله: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ مطويا فيه الخبر كذلك، وكأنه حاضر فى ذهن المتلقى، يومئ إليه اسم الإشارة

---

(١) هامش تفسير الطبرى ١/ ١٤٠.

ويجسده، ويمكن تقديره: هذا العذاب. وقوله ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ جملة أخرى ترتبت على هذا العذاب ترتب الجزاء على الشرط، للإشعار بملازمته لهم. وعدم الفرار منه. وقد ذكر المفسرون فى إعراب «هذا» عدة أوجه: أحدها: أن يكون مبتدأ خبره فليذوقوه، والثانى: أن يكون خبره «حميم» وجملة «فليذوقوه» معترضة بينهما، والثالث: أن يكون «هذا» خبرا لمبتدأ محذوف، تقديره: العذاب هذا، وجملة «فليذوقوه» مرتبة عليه ترتب الجزاء على الشرط، والرابع: أن يكون منصوبا بفعل مضمر يفسره المذكور، فيفيد الإضمار تكرار الذوق، كأنه قال: يذاقون العذاب إذاقة بعد إذاقة[1].

وأضعف هذه الأقوال هو الأول، لما يترتب عليه من زيادة الفاء، والوجهان الأخيران تظهر معهما بلاغة النظم، لما فى فاء الجزاء من التأكيد، وإيجاز الحذف، والدلالة على ملازمة الطاغين للعذاب، ولما فى الوجه الرابع من معنى تكرر ذوقهم العذاب، إلى ما فى الفاء -بمعنى التعقيب فيها- من الإيحاء بسرعة إلقائهم فى العذاب، وعدم إمهالهم.

وبمثل هذا فسّر البغدادى فى خزانته رأى سيبويه، حين قدر مبتدأ محذوفًا فى قول الشاعر: وقائلة خولان فانكح فتاتهم.

على أن المراد هذه خولان. قال البغدادى: (وعلى قول سيبويه، فالفاء إما لعطف الإنشاء على الخبر، وهو جائز فيما له محل من الإعراب، وإما لربط جواب شرط محذوف، أى إذا كان كذلك فانكح، قال سيبويه: قد يحسن ويستقيم أن تقول: عبد الله فاضربه، والهلال -والله- فانظر إليه.

وقال السيرافى: الجمل كلها يجوز أن تكون أجوبتها بالفاء، نحو: زيد أبوك فقم إليه، فإن كونه أباه سبب وعلة للقيام إليه، وكذلك الفاء فى «فانكح» يدل على أن وجود هذه القبيلة علة لأن يتزوج منهم، ويتقرب إليهم، لحسن نسائها وشرفها، وفيه إشارة إلى ترتب الحكم على الوصف)[2].

---

(١) يراجع: إملاء ما من به الرحمن ٤/٢٥٩، وحاشية الشهاب ٧/٣١٧.

(٢) خزانة الأدب ١/٤٥٥.

كلام السيرافي بالغ الجودة، لأنه يكشف عن دور الفاء في الربط بين الجملتين، ربط العلة بمعلولها، وما يصاحب ذلك من استثارة المخاطب، وحثه على المبادرة بفعل ما أمر به، لتحصيل ما يُرَغَّب فيه، كما في البيت، لذلك تكثر هذه الفاء في مقام الحث على فعل مرغوب، أو التحذير من تركه.

ففي مقام الترغيب تشير الفاء إلى الأسباب التي تدفع المخاطب إلى المبادرة بتحصيل ما أمر به، وتستحثه عليه، حين تعلق حصوله على مرغوبه بفعل المأمور به.

ومن أمثلته: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٢- ٢٦].

لما قدم من مظاهر النعيم ما تتوق إليه نفس كل عاقل، دخلت الفاء في قوله: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ لتربط بين الحصول على هذا النعيم، وبين العمل الجاد، والتسابق في سبيل تحقيقه، وكأنها تقول: إذا أردت أن تكون من هؤلاء المنعَّمين فبادر بالعمل، وسابق إلى الخيرات، وشمر عن ساعد الجد، فلا سبيل إلى هذه المنزلة بغير التنافس والسبق. ففي الفاء من الحث والإغراء ما لا يكون بحذفها، ولهذا قدم المعمول «في ذلك» على عامله لإفادة الحصر، والتأكيد على أن ذلك هو مجال التنافس الحقيقي، وما سواه لا يستحق التسابق عليه، ولك أن تقدر الشرط على طريقة أهل الصناعة: إن كان تنافس فليتنافس المتنافسون في هذا لا في سواه.

والحصر مع هذه الفاء أوكد من الحصر بغيرها، لما أن تقدير الشرط والجزاء بالفاء ضرب من التوكيد، والحصر نفسه توكيد، فكانت الفاء توكيدا على توكيد.

ومثله قوله تعالى على لسان أحد المنعَّمين في الجنة بعد أن شاهد قرينه في سواء الجحيم، وقارَنَ بين ما أنعم الله به عليه، وبين ما صار إليه قرينه: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ

الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٥٥- ٦١].

إن سعادة المؤمن بما صار إليه، ومقارنته بما أصبح فيه قرينه، جعلته يهيب بالعاملين أن يخلصوا لهذا الفوز عملهم، فهو الجدير وحده بالتسابق إليه، ولذلك قدم المعمول «لمثل هذا» لإفادة الحصر، مع ما في الإشارة إليه من زيادة الترغيب فيه، وما في الفاء من معنى الجزاء وإفصاحها عن شرط مقدر من تأكيد الاختصاص، والمعنى: إن كانوا عاملين فليكن لمثل هذا عملهم.

وعلى غراره جاء قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧- ٥٨].

فإن تقديم هذه الأوصاف الجليلة التى نعت الله بها كتابه المجيد، ودلت على أنه جامع لمنافع الدين والدنيا، مزيل لكل الأدواء التى تصاب بها الأنفس والصدور، هاد لطريق الحق واليقين، هذه النعوت العظيمة تستحضرها الفاء الأولى بالإشارة إليها وتربطها بما ترتبه عليها، وهو ما عناه أبو البقاء بقوله: الفاء الأولى مرتبطة بما قبلها[1]، أما الثانية فهى المفصحة عن شرط محذوف، تقديره: فإن فرحوا بشيء فليفرحوا بذلك، وتقدير الشرط بهذا العموم يوحى بأنه ليس هناك شيء يستحق المبادرة باغتنامه والفرح له إلا هذا القرآن، وهو تأكيد للحصر، المدلول عليه بتقديم الجار والمجرور «بذلك». فاجتمع فى هذا الأسلوب من عوامل التأكيد والحث على استقبال القرآن استقبالا يليق بفيوض الرحمة التى يغمر بها هذه الأمة ما يشهد لهذا الموصوف بالإعجاز.

ومثل هذا من جريان الأوصاف على موصوف للترغيب فيه، ببناء الأمر عليه موصولا بالفاء، وإن لم يكن مثله فى تقديم المعمول، قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي

(١) إملاء ما من به الرحمن ٢/٢٣٦.

أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. الفاء فى «فليصمه» تلميح إلى أن الأمر بالصيام مسبب عما تميز به هذا الشهر الكريم من نزول القرآن فيه، ليكون هدى للناس، فلهذا وجب شكر الله تعالى بصومه، لذلك ردّ الطيبى ما نقل عن الأخفش من القول بزيادة الفاء، فقال: «وأقول: يمكن أن يقال: الفاء ههنا للجزاء، فإنه تعالى لما بيَّن كون رمضان مختصا بالفضيلة العظيمة، التى لا يشاركه سائر الشهور فيها، فبيّن أن اختصاصه بتلك الفضيلة يناسب اختصاصه بهذه العبادة، ولولا ذلك لما كان لتقديم بيان تلك الفضيلة ههنا وجه، كأنه قيل: لما علم اختصاص هذا الشهر بهذه الفضيلة، فأنتم أيضا خصوه بهذه العبادة» (١).

وللفاء مذاق خاص حين تربط بين رسالات السماء، وتعكس ما بين شرائع الأنبياء من التواصل، وما بين النبيين من وحدة الغاية والهدف، وتستحث النبى عليه السلام على استكمال ما بدأه المرسلون، وبناء آخر لبنة فى صرح التوحيد: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [الشورى: ١٣ -١٥]. فالفاء الأولى فى قوله: «فلذلك فادع» هى التى تستحضر مع الإشارة وصية الله تعالى لنوح وإبراهيم وموسى وعيسى من الدعوة إلى التوحيد، ونبذ التفرق، لتصل دعوةَ النبى بدعوة إخوانه من الأنبياء السابقين، وتربط بين أولى العزم من المرسلين فى منهاج الدعوة، ووحدة ما يدعون إليه، ثم تجىء الفاء الثانية لتتعاون مع الحصر المفاد من تقديم المجرور، فى وجوب تكثيف جهود النبى الكريم، وتسخير كل طاقاته لاستكمال صرح التوحيد،

---

(١) فتوح الغيب ٢/ ١٥٣.

فيزداد الاختصاص توكيدا بقاء الجزاء المشعرة بشرط محذوف، يقدّر عاماً ليقع التركيز والاهتمام على جوابه، كأنه قيل: فإن كنت داعيا إلى شيء قادح لهذا التوحيد، وانبذ دواعى الفرقة التى بثها أهل الكتاب بغيا بينهم.

فانظر كيف كانت الفاء الأولى واسطة العقد بين فرائد النبوة، حين ربطت دعوة النبى عليه السلام بدعوة النبيين قبله، وأبرزت وحدة الغاية في دعوتهم، وكيف تعاونت الفاء الثانية بإفصاحها عن شرط عام، فى تركيز الاهتمام على الأصل الذى يجمع بينهم، وهو التوحيد، وحث النبى الكريم على حصر جهوده فى الدعوة إليه، أفيمكن مع هذا قبول القول بالزيادة؟

والمتأمل للنظم الحكيم لا يكاد يخطىء هذه الفاء فى مقامات الترغيب، وما تؤديه من دور فى إلهاب المخاطب، وتهييجه لتحصيل المأمور به، حين تجعله الغاية الوحيدة، التى تستحق أن يصرف همته وعنايته إليها.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٣ -٦٦].

فإن الغاية هى الدعوة إلى إخلاص العبادة لله وحده، وقد مهّد الله لذلك بمقدمة أعلن فيها اختصاصه بمُلك السموات والأرض. وهيمنته على ما خلق، ونعى على من يتوجهون بالعبادة إلى من لا يملك من الخلق شيئا، ثم حذر من الإشراك بالله على أبلغ صورة حين ساقه فى خطاب موجه إلى النبى الكريم، وإلى الأنبياء من قبله، بادئا بالتحلية قبل التخلية، مترقيا من النهى عن الشرك إلى الأمر بإخلاص العبادة لله، فكان قوله: «بل الله فاعبد» قمة أهداف النبوة، وغاية ما أرسل من أجله النبيون، فقدم المفعول لإفادة الحصر، وبه وحده يتحقق الغرض من نبذ الشرك، إذ لو قال: فاعبد الله لما تحقق المطلوب من القضاء على

عقـائد الشرك عند من يجـمعون بين عـبادته وعبـادة الوسائط، المقـرّبة إليه فى زعمهم، ثم جاءت الفـاء مؤكدة هذا الحصر حين أفـصحت عن شرط، تقديره: إن كنت عابدا فاعبد الله، إشعارا بأن عبـادة غير الله تعالى ليست بعبادة، بل هى عين الضلال والكفـر، حين تشرك من لايملك من الخلق شيـئا مع من له الخلق والأمر. يقول السعد فى حاشيتـه على الكشـاف: «وقد يؤكد الاختصاص بدخول الفاء فى الفعل، مثل: زيدا فـاضربه، وعليه قوله تعالى «بل الله فاعـبد»«فبذلك فليـفرحـوا» «وربك فكبـر» أى إن كنت عـابدا فالله اعـبـد، وإن فرحـوا بشىء فليخصوه بالفرح. وذكر المصنف فى قوله تعالى: «وربك فكبر» أى اختص ربك بالتكبير، ودخول الفاء لمعنى الشرط، كأنه قـيل: مهما يكن فلا تدع تكبيره، أى مهما يكن من شىء فلا تترك وصفه بالكبرياء»[1].

هـذه الفـاء التـى قـيـل بزيادتها آية مـن آيات الإعـجاز، فى قـوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ١- ٥]. وهو من أوائل مـا نزل على قلب الرسول من آيات التـحدى. وجرِّب -إن شئت- حذف الفاءات الثلاث الأخيرة، فسترى أن ذوبا من موسيقى اللفظ قد تفلت من سمعك، وتسرب مـن بين يديك معنى الاستنهاض والمبادرة، والإصرار على تجاوز كل العـقبات التى تعترض طريق تبليغ الدعـوة، والنفاذ بها إلى الأسماع والقلوب.

لقد أصاب الزمخشرى كل الإصابة فى جعل الفاء التى قيل بزيادتها فاء الجزاء فى قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ وقدر الشرط معها عـاما، فقال: (ودخلت الفاء لمعنى الشرط، كأنه قيل: وما كـان فلا تدع تكبيره)[2] فإن تقدير الشرط بهذا العموم: مهما يكن من شىء، فيه استنهاض للرسول عليه السلام، وحفزٌ له على تقويض ما أقامـه المشركون من قواعد الشـرك، وتقوية لروح الإصرار والتحـدى لما عساه يلقاه من صلف المشـركين وعنادهم، فكأنه يقول: مـهما صادفك من عـقبات،

---

(١) حاشية السعد ١/ ٣٢٣.

(٢) الكشاف ٤/ ١٨٠.

ومهما جابهك من قوى الشرك العاتية، فلا تدع ما أمرت به من تخصيص الله بوصف الكبرياء، وفي ذلك تهوين من شأن كبرياء قومه وغرورهم، فالله أكبر من كل كبير، وهذا يتلاءم مع روح الاستنهاض السارية في النص كله، بدءا من الوصف بالمدثر، المشعر بأنه لا وقت للراحة والنوم بعد الآن، فعليه أن يخلع ما يعوقه عن الحركة، ويشمر عن ساعد الجد، ومرورا بلفظ «قم» الدال على وجوب التأهب والاستعداد للمواجهة، والتحلي بالعزم والتصميم، وانتهاء بالدعوة إلى الصبر والتحمل لما سيتعرض له من أذى المشركين، ابتغاء رضوان الله، ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ هذا إلى جانب ما تبثه هذه الفاء في سياقها من المبادرة بتحقيق ما أمر به النبى الكريم.

ولعل روح الاستنهاض هذه هى التى دفعت الزجاج فيما حكاه عنه القرطبى إلى جعل الفاء من قوله «فكبر» فى معنى جواب الأمر، المنصوص عليه قبل الفاء في قوله «فأنذر». يقول القرطبى: (الفاء فى قوله «فكبر» دخلت على معنى جواب الجزاء، كما دخلت فى «فأنذر» أى قم فأنذر، وقم فكبر ربك)[1].

وليس ذلك بعيدًا عن أغراض النظم ودواعيه حين يُجعل التأهب المعبر عنه بالقيام وسيلة لتحقيق هذه الغاية العظيمة من تكبير الله تعالى.

إن هذه الفاء بحق هي ركبة البعير كما قيل، إن نزعت تلاشت من السياق هذه الحركة السريعة الدائبة التي تسرى فى النص الكريم كله، وتفككت أوصال النظم التى كانت الفاء تعقد بينها.

ومن عجيب أسرار هذه الفاء التي يقول النحاة بزيادتها، ما تراه فى دخولها على الأمر بالتهجُّد أو التسبيح، حين يكون الليل زمن وقوعه، فيحرص النظم الكريم على تخصيصه بما يميزه عن الأمر بالتسبيح فى النهار، فيقدم زمن الليل مجرورا بمِن على الأمر، ثم يدخل الفاء عليه، لتسبغ مزيدا من العناية والاهتمام على العبادة فى هذا الوقت، الذى لا تنشط فيه النفس للعبادة، مؤكدة

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٦٨٥٤.

فضل قيام الليل والذكر فيه، وهو ما لا تجد مثله حين يكون الأمر بالتسبيح فى النهار، وذلك ما رصدتُه بعد طول تأمل.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] قُدِّم الليل على الفعل، وسُلِّط التهجُّدُ على ضميره، للإشعار بتكرر التهجد، ودخلت الفاء للحث على التزام هذه العبادة، وكأن الليل سبب يرتبط بها، وذلك لما فى عبادة الليل من المشقة والكلفة، وثقلها على النفس، إلا من وفق الله لطاعته، وهو صريح قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

ثم انظر كيف تغيّر النظم إلى التقديم ودخول الفاء في تسبيح الليل بعد تركهما في تسبيح النهار من قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩- ٤٠] فلم يقل: وسبحه بالليل كما قال: وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، للتأكيد على فضل التسبيح والعبادة ليلا. ومثله قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)﴾ [الطور: ٤٨- ٤٩].

ففى الموضعين قدم الأمر بالتسبيح على زمنه، حين كان المطلوب إيقاعه نهارا أو قريبا منه، ولم يقترن الأمر بالفاء، وحين قُيِّد التسبيح بالليل غوير نسق النظم بتقديم المجرور، وأدخلت الفاء بينهما، ليتأكد الأمر بطريقين: هما التقديم، والفاء المفصحة عن شرط محذوف كأنه قيل: إن كنت مسبحا بحق أو متهجدا فخص الليل به، لأنه أعظم أوقات العبادة، وأكثرها تعرضا لنفحات ربك، وهى الجديرة بأن تبلغك المقام المحمود، أفيكون ذلك النسق المتكرر فى القرآن، الهادف إلى مغالبة هوى النفس وركونها إلى السهل اليسير قد جاء مصادفة، حتى يقال: إن الفاء فيه زائدة؟

وتأمل كيف تشعر الفاء بما فيها من معنى السببية، باستحقاق الله تعالى التوكل عليه، ووجوب إخلاصه له، وتشعر بما فيها من الربط، بالتأسى والاقتداء، حين

تربط توكل المؤمن بتوكل الأنبياء، وهم القدوة في توكلهم على الله تعالى، وقد تكرر ذلك في دعوة الأنبياء عليهم السلام. قال تعالى على لسان يعقوب: ﴿يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧].

وقال على لسان الرسل الذين كذبتهم أقوامهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

فقد حققت الفاء في قوله ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ عدة أغراض، أولها: تأكيد الاختصاص المدلول عليه بتقديم المجرور، بإفصاحها عن شرط محذوف، فيكون في تأكيدها للتلازم بين الشرط والجواب تأكيد للحصر، وثانيهما: دلت عليه بمعنى التعقيب فيها، وهو المبادرة بإخلاص التوكل على الله تعالى، والثالث: بدلالتها على الترتيب والتسبيب، فيكون ترتيب توكل المؤمنين على توكل المرسلين، مشعرا بضرورة الاقتداء والتأسي بهم في توكلهم، الذي يخصون به ربهم، ولا يدعون في قلوبهم شائبة اعتماد على سواه. وبهذه النكتة الأخيرة صرح الشهاب في الآية الأولى، فقال: (قصد الاختصاص أوجب تقديم الصلة عليه، وقد دخل عليها العاطف، فلما قصد تسبب توكلهم على توكله، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مقتدى بهم، وجب دخول الفاء لبيان التسبب)[1].

وفي مقام الترهيب تكسب الفاء مدخولها ضربا من التهويل، وتبث في نفس المخاطب من الخوف والرعب ما لا تنهض به جمل عدة قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٥- ١٦].

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ١٩٣.

الفاء فى قوله «فاتقون» تُضاعف الأمر بالخشية، وتتصعّد به حتى تبلغ القلوب الحناجر، باستحضارها صورة الخاسرين يظللهم العذاب من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، فتَلْفِت المأمورين بالتقوى إلى ما ينتظرهم من مثل هذا الجزاء إن هم اجترءوا على الله تعالى، واستهانوا بعقابه، فلم يتقوه. فهى فى عرف أهل الصناعة فاء الجزاء المفصحة عن شرط محذوف، يمكن تقديره: إن أردتم تجنب هذا العذاب فاتقون. وهى فى ذوق أهل البيان تثب بالمخاطب المأمور بالتقوى لتضعه على حافة العذاب، يسمع صرخات المعذبين، ويرى ما ينزل بهم، لتقول له: هذا مصيرك إن لم تتق الله. فإذا ما جردتَ الأمر من الفاء، فقلت: يا عباد اتقون، افتقدتَ ما كان له مع الفاء من التلويح بعذاب كعذاب الخاسرين، وصار مجرد أمر بالتقوى مبتوت عما قبله، وضاع معه التهديد بالعذاب.

ويشتد لفح هذه الفاء فى مثل هذا المقام من التحذير، حين يُقدم معمول الأمر، ويشتغل الفعل بضميره، فتدخل الفاء، لتكسب الاختصاص بالتقديم توكيدا، ويؤدى اشتغال الفعل عن المقدم بضميره إلى إفادة تكرير التحذير، فيجتمع فى هذا الأسلوب من وسائل المبالغة فى التحذير ما يشهد بإعجاز النظم الحكيم، وهذا ما تراه فى فاصلتى الآيتين من قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤٠- ٤١].

لم يكن لبنى إسرائيل عهد، ولم يفوا مع الله بوعد، حتى قال فيهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ [المائدة: ١٣] فأعقب أمره بالوفاء تحذيرا من الاجتراء على الله، والاستهانة بعهوده ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾، كما أعقب الأمر بالإيمان بكتابه، والنهى عن الكفر به، وتحريفه للتكسب من ورائه، تحذيرا آخر، وبنفس الأسلوب ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ وفيهما قدم المفعول «إياى» لإفادة التخصيص، ودخلت الفاء على الأمر، دالة على شرط محذوف، تقديره: إن

كنتم راهبين شيئا فإياى ارهبوا، وإن كنتم تتقون شيئا فإياى اتقوا، ليزداد الاختصاص توكيدا، بما يدل عليه هذا الشرط من أن الله هو الحقيق بالرهبة والتقوى، وتشعر الفاء معه بوجوب المبادرة بالفعل. ثم إن اشتغال الأمر بالعمل فى الضمير المتصل المحذوف، وهو ياء المتكلم يستوجب تقدير فعل آخر يعمل فى الضمير المنفصل المقدم، والأصل: فإياى ارهبوا ارهبونى، ومفاده تكرير الأمر بالرهبة، كأنه قال: ارهبونى رهبة بعد رهبة، وهى زيادة فى المعنى ومبالغة فى التحذير، أشاعتها الفاء بتعليقها الفعل بعدها عن العمل فيما قبلها. وذلك ما ألمح إليه الزمخشرى وفصَّله شراحه، كما جاء فى حاشية قطب الدين التحتانى على الكشاف: («إياى» منصوب بفعل مضمر يدل عليه «فارهبون» كما فى باب الإضمار، لا أنه فرد من ذلك الباب، كما يقال، «ومنه» إذا كان مشابها له نوع مشابهة، وهو أوكد فى الاختصاص، لأن تقدير الكلام (وإياى ارهبوا فارهبونى) وإنما يقدر الفعل مؤخرا، لأنه لو قدمناه لكان فى الكلام تغيير آخر، وهو جعل الضمير متصلا منفصلا. ففيه وجهان للتخصيص، أحدهما: تقديم المفعول، والآخر: تكرر تعلق الرهبة بالمتكلم، فإن تكرار الفعل لشىء يدل على مزيد اختصاص له به، فإن قلت: كيف عطف «فارهبون» على «إياى ارهبوا» مع اتحادهما فى المفهوم، والعطف يقتضى المغايرة؟ فالجواب أن الفاء تقتضى أن تكون الرهبة المستفادة من «فارهبون» بعد الرهبة المستفادة من «إياى ارهبوا». وليس معنى الكلام إلا: ارهبونى رهبة بعد رهبة، فيكونان متغايرين قطعا، وهذا كما قال المصنف فى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ [القمر: ٩] أى كذبوا تكذيبا بعد تكذيب ففيه إشعار بمزيد الاختصاص، وقوله: «وهو أوكد فى الاختصاص»، لأن الاختصاص فيه يفهم من وجهين: أحدهما من تقديم المفعول، والثانى من الفاء الجزائية فى قوله «فارهبون» فإن التقدير إن كنتم راهبين شيئا فارهبونى، ولا شك أن هذا تخصيص لاستلزام الرهبة المطلقة حينئذ رهبة الله، فتكون رهبتهم محصورة فى الله تعالى»[(١)].

---

(١) حاشية قطب الدين التحتانى على الكشاف ١/٩-٢.

وبذلك تتفاوت هذه الأساليب في دلالتها على الاختصاص، تبعا لاقترانها بالفاء أو تجردها منها، وقد حصرها صاحب التحرير والتنوير في أربع مراتب، أوكدها ما اقترن التقديم فيه بالفاء، والمقترن بالفاء مرتبتان، أبلغهما ما جاء في الآيتين السابقتين (فتحصَّل أن في التعبير عن مثل هذا الاختصاص في كلام البلغاء مراتب أربع: مجرد التقديم للمفعول، نحو: إياك نعبد، وتقديمه على فعله العامل في ضميره، نحو زيدا رهبته، وتقديمه على فعله مع اقتران الفعل بالفاء، نحو «وربك فكبر»، وتقديمه على فعله العامل في ضميره، مع اقتران الفعل بالفاء، نحو: «وإياى فارهبون»[1].

وفي مقام التشنيع على الذين يؤذون الضعفاء، ولا يدعون إلى الخير، دخلت الفاء لتجمع بينهم وبين منكري الجزاء في قرن، وتجعلهم عين المكذبين بالدين، في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١-٣] فقد ربطت الفاء بين المكذب بالدين، وبين من يدعُّ اليتيم، وأفرغتهما إفراغا واحدا، وعلقت رؤية الأول برؤية الثاني تعليق الجزاء بالشرط، على معنى: إن لم تكن رأيت المكذب بالدين وعرفته، فهو ذلك الذي يدع اليتيم، وليس هناك تفظيع لحال من ينهر اليتيم ويؤذيه، ويمنع الخير عن الناس، أشد من وصفه بالتكذيب بالجزاء، وهو كفر صراح. وكأن مثل هذا الفعل من إيذاء اليتامى وترك الحض على الإطعام، لا يكون من شأن المسلم أبدا، وأنك إذا ما رأيته في امرئ فاحكم بأنه ليس من أهل الإيمان.

ومن روائع مواقع هذه الفاء التي قيل بزيادتها، ما تدخل فيها على الخبر، فتربط بينه وبين المبتدأ برباط التسبب، لتحقيق أغراض تتنوع بتنوع السياق ودواعي النظم، فإن قال النحاة بزيادتها لوقوعها بين جزأي كلام يرتبطان ارتباطا معنويا لا يحتاج إلى رابط لفظي، فإنهم يُغفلون ما أدته الفاء من ارتباط خاص

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٤٥٧.

زائد عن ارتباط الخبر بالمخبر عنه، وهذه الخصوصية الزائدة هي الغرض ومناط فائدة الكلام، لذلك تجد من تفاوت الأسرار البيانية مثلما تجد من تفاوت اللفظ، بين ما نسق فيه الخبر بالفاء، وما نسق بغيرها. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩٠- ٩١].

فإنك لتعجب كيف خولف نسق الخبر عن الكافرين، فعُري عن الفاء في الآية الأولى ﴿لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ ثم اقترن بها في الثانية ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾، مع أن صوغ المبتدأ، وهو الموصول المنسوخ بإنَّ في الآيتين واحد، ولا يزول عجبك إلا بعد التأمل في أعطاف النص، وإنعام النظر فيما عطف على الكفر في الآيتين، فأنت تجده في الأولى ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾، وفي الثانية ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، فهو في الأخيرة قطع باستحقاقهم عدم القبول، واستيجابهم العذاب لموتهم على الكفر، وانقطاع الأمل في إيمانهم، فدخلت الفاء، للإشارة إلى أنهم استحقوا بموتهم على الكفر عدم قبول التوبة، وتبعه الحكم عليهم بعذاب النار ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أما في الأولى فلم ينقطع الرجاء في إيمانهم، وإن كانوا قد ازدادوا كفرا، إذ لو تابوا قبل موتهم لقبلت توبتهم، فهم لم يستوجبوا بَعْدُ عدم قبول التوبة استيجاب من ماتوا على الكفر، ولذلك حكم عليهم بالضلال، ولم يوجب لهم العذاب. وقد أوجز أبو حيان الفرق بين الخبرين فقال: (ولم تدخل الفاء في ﴿لَن تُقْبَلَ﴾ هنا، ودخلت في ﴿فَلَن تُقْبَلَ﴾، لأن الفاء مؤذنة بالاستحقاق بالوصف السابق، وهناك قال: ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ وهنا لم يصرح بهذا القيد)[1].

وهذان خبران آخران: الأول بيان لجزاء المؤمنين، والثاني جزاء للكافرين، تدخل الفاء في الأول لتشير إلى المبالغة في تحققه، بما في الفاء من معنى السببية

---

(١) البحر المحيط ٢/٥١٩

الدال على ارتباطه بالمخبر عنه، ارتباط العلة بالمعلول، وتَسْقُط من الثانى، دليلا على تسامح الله فى وعيده. وذلك فى قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥- ٣٦]. قال البيضاوى فى تعليل دخول الفاء فى قوله ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ وسقوطها فى ﴿أُولَٰئِكَ﴾، وكلاهما خبر عن موصول: (وإدخال الفاء فى الخبر الأول دون الثانى، للمبالغة فى الوعد، والمسامحة فى الوعيد)(١) وفسّر الشهاب وجه المبالغة بقوله: (ووجه المبالغة فى الوعد، لعدم تخلفه جعله سببًا عن التقوى والعمل الصالح، المشعر بأنه لا ينفكّ عنه، إذ المعلول لا يتخلف عن العلة غالبا، بخلاف الوعيد، فإنه يجوز تخلفه)(٢) والعجيب -والقرآن لا تنقضى عجائبه- أنك تجد هنا نكتة استوجبت دخول الفاء فى جزاء المؤمنين، وطرحها من جزاء الكافرين، وتجد فى موقع آخر منه نكتة استوجبت عكس ذلك، فتدخل الفاء فى جزاء الكافرين، وتسقط فى جزاء المؤمنين، مما لا تملك معه إلا أن تخرّ ساجدًا لعظمة من أنزل هذا الكلام. فإذا كانت الفاء فى المثال السابق قد أدت دورها فى المبالغة فى تحقيق الوعد، وأدّى سقوطها إلى المسامحة فى الوعيد، فإنها فى قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الحج: ٥٦- ٥٧] دل طرحها على أن دخول الجنة بفضل الله تعالى، لا بسبب عملهم الصالح، على ما جاء فى حديث الرسول عليه السلام: «لن يدخل أحدكم الجنة عمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته» فألقيت الفاء التى تربط بين المبتدأ والخبر برباط السببية لهذه النكتة، ودخلت الفاء فى جزاء الكافرين، للإشارة إلى عدل الله فى العقاب، فما كان هذا الجزاء الأليم إلا بسبب كفرهم وتكذيبهم بآيات الله،

(١) تفسير البيضاوى ٤/ ١٦٦. (٢) حاشية الشهاب ٤/ ١٦٦.

وهذا ما أفاض الله به على قلب البيضاوى: (فإدخال الفاء فى حيِّز الثانى دون الأول، تنبيه على أن إثابة المؤمنين بالجنات تفضل من الله تعالى، وأن عقاب الكافرين مسبب عن أعمالهم، ولذلك قال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ ولم يقل: هم فى عذاب)[1].

وقريب من هذا إدخال الفاء وطرحها فيما اشتبه نظمه من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

لفَت دخولُ الفاء على قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ فى الآية الثانية دون الأولى، نظر الزمخشرى، فحاول بيان السر فى ذلك: (فإن قلت: أى فرق بين قوله ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وقوله فيما بعد: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾؟ قلت: الموصول لم يضمَّن ههنا معنى الشرط، وضمنه ثمة، والفرق بينهما من جهة المعنى: أن الفاء فيها دلالة على أن الإنفاق به استحق الأجر، وطرحها عار عن تلك الدلالة)[2].

لكن الزمخشرى لم يقل لنا ما سر اختصاص كل منهما بموضعه، ولم دخلت الفاء لتدل على ما دلت عليه فى الثانية دون الأولى؟ ولعمرك هذا هو عمل البلاغيين، وما قاله الزمخشرى تحرير للمعنى. لا تفسير لبلاغة النظم.

ثم تقدم البيضاوى خطوة حين أشار إلى أن ترك الفاء أبلغ فى وصف المنفقين، فقال: (لعله لم يدخل الفاء فيه، وقد تضمن ما أسند إليه معنى الشرط، إيهاما بأنهم أهل لذلك، وإن لم يفعلوا فكيف بهم إذا فعلوا)[3].

وبنى عليه أبو حيان، ولكنه لم يضع اللبنة الأخيرة فى بلاغة هذا التركيب، فقال: (والجملة من قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ خبر، ولم يضمَّن المبتدأ معنى اسم

(١) تفسير البيضاوى ٦/٣٠٨.

(٢) الكشاف ١/ ١٩٤

(٣) تفسير البيضاوى ٢/ ٣٤٢.

الشرط، فلم تدخل الفاء فى الخبر، وكأن عدم التضمين هنا، لأن هذه الجملة مفسرة للجملة قبلها، والجملة التى قبلها أخرجت مخرج الشىء الثابت المفروغ منه، وهو تشبيه إنفاقهم بالحبة الموصوفة، وهى كناية عن حصول الأجر الكثير، فجاءت هذه الجملة كذلك، أخرج المبتدأ والخبر فيهما مخرج الشىء الثابت المستقر، الذى لا يكاد خبره يحتاج إلى تعليق استحقاقه بوقوع ما قبله، بخلاف ما إذا دخلت الفاء، فإنها مشعرة بترتب الخبر على المبتدأ واستحقاقه به)(١).

تمام هذا الكلام أن يقال: لماذا أخرج الخبر فى هذه الآية مخرج الشىء الثابت المفروغ منه، ولماذا كان غير محتاج إلى تعليق بالفاء؟

وهو فيما أرى -والله أعلم- أن ما وصف به المنفقون فى الآية التى عريت عن الفاء أعظم وأبلغ مما وصفوا به فى الثانية، فهو فى الآية الأولى صرّح بإخلاص نفقتهم لله تعالى بقوله ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، واكتفى فى الثانية بما يدل على كثرة إنفاقهم وتنوُّعه بين السر والعلانية، ثم زاد فى الآية الأولى ﴿ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى﴾ وهذه درجة عالية فى سماحة النفس واعتيادها على هذا العمل الجليل، حتى ألِفَتْه، وجادت به سخية نشطة، وكانت «ثم» دليلا على أن هذا الوصف أبلغ من الإنفاق ذاته، بما دلت عليه من التفاوت الرتبى، إيماء إلى أن الجود عن سماحة ورضا يحولان بين المنفق وبين إتباع نفقته بما يبطلها هو أعظم ما فى الإنفاق، فكان هذا دليلا بينا على ثبات أجرهم واستحقاقه، حتى لم يعد للفاء المؤكدة للاستحقاق مكان، لنصل إلى النتيجة التى قررها أبو السعود وإن لم يذكر أسبابها، وهى أن (تخلية الخبر عن الفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها للإيذان بأن ترتب الأجر على ما ذكر من الإنفاق، وترك اتباع المن والأذى أمر بيّن لا يحتاج إلى التصريح بالسببية)(٢) فهذه نتيجة ذكرنا نحن مقدماتها وأسبابها.

ويلفت السعد التفتازانى إلى نكتة لطيفة فى الفاء من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ

(١) البحر المحيط ٢/ ٣١٠.

(٢) تفسير أبى السعود ١/ ٢٥٨.

اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ (١٥٩) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٥٩- ١٦٠] فقد ألقيت الفاء من الخبر في الآية الأولى، ودخلت في خبر التائبين تعظيما لتوبتهم وتأكيدا على أنها السبب الذي استحقوا به رحمة الله تعالى وغفرانه، فعلل السعد طرح الفاء في الأولى بقوله: (ولم يأت بالفاء في الخبر، أعني ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ لئلا يتوهم أن لعنهم إنما هو بهذا السبب، بل له أسباب جمة)[١].

رحم الله السعد!! لقد كنت على وشك أن أقول إن إلقاء الفاء هو من باب المسامحة في الوعيد، وإن اقترانها بالخبر في قوله ﴿فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ هو من باب المبالغة في تحقق الوعد، كما كان في مثله من آيتي الأعراف السالفتين، لكن السعد كان أصدق حساً حين رأى أن هؤلاء الذين ارتكبوا جناية الكتمان، وأتبعوها جنايات أشد ترتبت على هذا الكتمان طواها القرآن هنا، ونشرها في مواضع أخرى، وهي تحريف كلام الله، ولَبس الحق بالباطل، والتكسب بذلك، على ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤١- ٤٢] فكان طرح الفاء من قوله ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦١] إشعارا بأنهم استحقوا هذه اللعنة بهذا الذي وصفوا به وبغيره مما لم يذكر، ثم جاءت الفاء في قوله ﴿فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إشعارا بأن الله تعالى تسبق يده إلى التائب، فور إقباله على ربه بالتوبة، وأن الله تعالى لا يغلق الباب دون من لجأ إليه صادقا في توبته.

ومن دقائق الحس في فقه بلاغة القرآن ما التقطه الطيبي من إشارة الفاء في قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

---

(١) حاشية السعد ١/ ٤٤٦.

فالذين تنسب إليهم الآية قتل الأنبياء، وقتل الهداة الصالحين، الآمرين بإقامة العدل بين الناس، هم من غبر من أسلاف اليهود، والمأمور بأن يبشر بالعذاب هو رسول الله ﷺ، وليس من سبيل لتبشير الأجيال الغابرة منهم، فوجب أن يكون تبشيره بالعذاب لمن عاصروه من أخلافهم، فدخلت الفاء لتذكر اليهود الحاضرين بأن عذابا من الله ينتظرهم، إن هم مضوا على سنة أسلافهم، وهموا بقتل النبى وصالحى هذه الأمة، ولولا هذه الفاء التى ربطت الخالف بالسالف، والحاضر بالماضى لما انتظم فصل الآية مع صدرها فى سلك، وهذا ما كشف عنه الطيبى فى قوله: (وفى دخول الفاء على الخبر ههنا بعد دخول «إنَّ» على المبتدأ إشارة لطيفة، وهى أنهم إن بقوا على ما كانوا عليه، وأصروا عليه من الارتضاء بما فعل المقدمون منهم، والعزم على ما هموا به من قتل النبى ﷺ والمؤمنين فبشرهم، لأنهم مستحقون للتبشير بذلك، وإن رجعوا عن الله وأسلموا لم يستحقوا ذلك، فكانوا كسائر المؤمنين، ولا تحصل الإشارة بدون الفاء)(1).

إنه عدل الإسلام وسماحته، يجسده الله تعالى فى هذه الفاء، حين تنادى على أن الجزاء مرهون بالعمل، وتربط الأسباب بمسبباتها، لا أثر لعصبية عرقية، أو ثقافية، ولا تحمل خالفة عن سالفة وزرها، فليس من قانون الوراثة فى الإسلام أن يُلعن الأبناء بتاريخ آبائهم، إلا إذا كانوا هم صفحة فى هذا التاريخ بما سطروه بأيديهم.

ومن روائع مواقع الفاء التى قيل بإقحامها بين المبتدأ والخبر، ما أوجزه البيضاوى وبسطه الشهاب فى قوله تعالى خطابا لليهود: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨] فقد أشعرت الفاء بمفاجأة المخاطبين بعكس ما سعوا إليه، وباغتتهم بالهلاك فيما ظنوه سببا للنجاة، فهم يفرون من الموت ليجدوا أنفسهم فى قبضته، فكان تعكيس الحال الذى أبرزته الفاء، وما جسده من المرارة وخيبة الرجاء، هو سر دخولها فيما لا يلزم الدخول فيه. قال البيضاوى:

---

(1) فتوح الغيب ١/ ورقة ١٥٨

(﴿فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾ لاحق بكم لا تفوتونه، والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط باعتبار الوصف، وكأن فرارهم يسرع لحوقه بهم)[1] وعلق الشهاب على ذلك فقال (قوله: «وكأن فرارهم يسرع لحوقه» أي الموت بهم، هو من الفاء في قوله ﴿فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾ فإنها تفيد تعقيب ملاقاته المفسّرة باللحوق فيما مر، وليست هذه الفاء لازمة كالتي في الجواب الحقيقي، فإقحامها لنكتة تليق بالمقام، وهي ما ذكر، فكان الفرار الذي أعدوه سببا للنجاة سببا للهلاك تعكيسا للحال)[2].

ففي هذه الفاء رائحة الاستعارة التهكمية حيث يشبه ما يفترض أنه سبب للنجاة بما هو سبب للهلاك، ولذلك حمل بعض رجالات البيان مثل هذه الفاء على اللام في قوله تعالى ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]. وذلك عند تفسير كلام الزمخشري للفاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٥ - ٤٩]. فقد جعل الزمخشري قوله: «فإذا مس الإنسان ضر دعانا» معطوفا على «اشمأزّت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة»، ومسبّبا عنه، وهو خلاف الظاهر، لأن الاشمئزاز لا يتسبب عنه اللجوء إلى الله، بل الظاهر هو العكس، قال الزمخشري (فإن قلت: من أي وجه وقعت مسببة، والاشمئزاز عن ذكر الله ليس بمقتض لالتجائهم إليه، بل هو مقتض لصدوفهم عنه؟ قلت: في هذا التسبيب لطف، وبيانه أنك تقول: زيد مؤمن بالله، فإذا مسه ضر التجأ إليه، فهذا تسبب

---

(١) تفسير البيضاوي ٨/ ١٩٥.

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ١٩٥.

ظاهر لا لبس فيه، ثم تقول: زيد كافر بالله، فإذا مسه ضر التجأ إليه، فتجيء بالفاء مجيئك به ثمة، كأن الكافر حين التجأ إلى الله التجاء المؤمن إليه، مقيم كفره مقام الإيمان، ومجريه مجراه في جعله سببًا في الالتجاء، فأنت تحكي ما عكس فيه الكافر، ألا ترى أنك تقصد بهذا الكلام الإنكار والتعجب من فعله)[1].

وعلق السعد عليه بقوله: (حاصله الدلالة على تعكيس الكافر الأمر، وجعله ما هو أبعد الأشياء عن الالتجاء إلى الله سببًا للالتجاء ووسيلة إليه، ولهذا صحّ القصد بهذا إلى الإنكار والتعجب، وليس المراد بالسببية ههنا هو الغرضية، ليكون على منوال «فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزنًا» على ماتوهم)[2].

وهذا هو نفس المعنى في دخول الفاء في قوله: «فإنه ملاقيكم» وإن افترقت الفاءان في كون هذه مشبهة للجزائية، وتلك عاطفة، فلا مجال لأن يقول أحد بزيادتها، وإن كانت وضعت موضع الواو، لإبراز التناقض في الفكر والسلوك عند هؤلاء الذين ينفرون من ذكر الله في السراء ويهرعون باللجوء إليه في الضراء.

ولما كانت الفاء تدل على المبالغة، وتأكيد الربط بين المحكوم به والمحكوم عليه، والمسارعة في تنجيز الحكم وعدم التهاون فيه، كثر دخولها في آيات القرآن، المتضمنة أمرًا بتنفيذ أحكام الله تعالى، لتشير إلى خطر ما أمر به، ووجوب مسارعة أولى الأمر في تطبيق حدود الله وشرائعه. وهذا هو سر دخولها في الحدود التي تتضمن أحكامًا شديدة، قد تدفع المجاملة إلى التخاذل والتهاون في تنفيذها، كما في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]. حيث اقترنت الفاء بالأمر بقطع الأيدي، لتنفخ فيه من روح الجد والمسارعة في إقامة ما حدّه الله، وتأكيد الالتزام به وعدم المراوغة فيه، ما يقطع كل سبيل إلى دعوى الشفقة والمماطلة،

---

(١) الكشاف ٣/٢٠٤.

(٢) حاشية السعد ٢/ ٦٣٠.

والممالأة فى التطبيق، فليس هناك ما هو أرحم، ولا أعلم بما يصلح خلقه ممن خلق، لتعاون الفاء مع أنفاس النصّ الملتهبة، من مثل قوله «جزاء بما كسبا» وقوله: «نكالاً من الله»، والتذييل المشحون بالغضب والتهديد «والله عزيز حكيم». وكأنه يقول: إن ثبتت سرقتهما فبادروا بإقامة حد الله تعالى عليهما دون تثاقل، وهذا هو سر دخول الفاء، الذى ضاع فى زحمة الجدل، والمعارك التى دارت في أروقة النحاة، ما بين مقدّر للمبتدأ خبراً يترتب عليه ما بعد الفاء، كما هو مذهب سيبويه، أو القول بزيادة الفاء كما هو رأى الأخفش.

إن القرآن بهذه الفاء يحسم الدعاوى المتسترة وراء الرحمة المصطنعة، للافتيات على شرع الله فيما يزعمون من قسوة الحدود، من مثل ما نسمعه اليوم فى ضجيج دعاة حقوق الإنسان، الذين كانوا هم أول من أهدرها حين جعلوا دماء الكلاب أرفع قدراً عندهم من دماء الإنسان في الشعوب المغلوبة على أمرها، فيقيمون الدنيا إذا ما اعتدى على حيوان فى بلادهم، ويضحكون ملء أفواههم، وهم يشاهدون دماء المسلمين تخضب الأرض في شتى بقاع العالم.

هذه النبرة الحادة، وتلك الفاء بما فيها من الحسم والإلزام هى التى نجدها فى قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النور: ٢].

فمتى ثبتت جريمة الزنا على المرء -بعد أن أحاطها الله بكل الضمانات فى الإثبات حتى لا يؤخذ بريء بشبهة- فلا سبيل إلى التهاون والمماطلة فى تنفيذ حكم الله، الا ترى كيف أعقب ذلك الحسم ووجوب المسارعة قوله: «ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله» ذلك أن الحرص على إقامة شرع الله وحماية الأعراض، هو الذى يجب أن يكون مناط التعاطف، بل إن الحدَّ نفسه هو الرأفة عينها، وإن بدا مؤلما كمبضع الطبيب حين يتعين سبيلاً وحيداً لاستئصال الداء، ثم انظر كيف يلهب القائمين على أمر الله، ويستثير حماسهم الدينى فى الإسراع بتنفيذ حدود الله، بقوله: «إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر».

وللفاء حين تدخل على ما كان الشأن فيه أن يقع جوابًا للشرط بغيرها إشارات مدهشة، على ما نراه في مشتبه النظم الحكيم، من مثل قوله تعالى في قصة موسى مع الخضر عليهما السلام: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧١- ٧٤].

فقد كان المتوقع أن يقول: حتى إذا لقيا غلامًا قتله، قياسًا على قوله: «حتى إذا ركبا في السفينة خرقها» ليمضي النظم على نسق واحد فيما هو كالغاية الواحدة، لكن حين يفجأ السامع بهذا الاختلاف، وتسرى أنسام هذه الفاء في عروقه، يدرك سر هذه المغايرة. ذلك أن التلازم بين الشرط والجزاء، وترتب الثاني على الأول ليس بلازم أن يتعقب فيه الجوابُ الشرط، لزوم الفاء فقد يقع الجواب بعد الشرط بزمن طويل، كما تقول: إن تسلم تدخل الجنة، فإن دخول الجنة لا يعقب الإسلام، فكان إلقاء الفاء الدالة على موالاة المعطوف للمعطوف عليه، مشعرًا بأن الخضر عليه السلام في أمر السفينة انتظر حتى تحيّن الفرصة في اختفاء الأنظار، ليكون خرقها في غيبة عن الأعين، حتى لا يحال بينه وبين تحقيق ما أراد، إذ لو شاهده أصحابها لمنعوه، أو لبادروا إلى إصلاح الخرق، فيفوت ما كان يرمي إليه، ثم جاء القول مفصولاً متولدًا عن الفعل، لا مسببًا عنه.

أما عطف قتل الغلام بالفاء، ففيه دلالة على المسارعة بقتله، وتركيز على ردّ فعل موسى بعد أن اعتذر في الأولى، وكأن هذا الفعل الغريب من الخضر كان متوقعًا بعد أن مهدت الحادثة الأولى له، فلم يكن ينتظر المتلقي المترقب لاختبار إرادة موسى وصبره، حين سمع «حتى إذا لقيا غلامًا» إلا فعلاً من جنس خرق السفينة، فهو أشد تلهفًا لمعرفة رد الفعل من الفعل نفسه، لذلك دخلت الفاء لتمرر القتل بسرعة، وصولاً إلى ما يرقبه المتلقي من تصرف موسى ورد فعله.

وهذا ما جلاّه الألوسي، وأنقله كاملاً لتكتمل الفائدة: (وكان العطف بالفاء التعقيبية، ليفيد أن القتل وقع عقيب اللقاء من غير ريث، كما يشعر به الاعتراض، إذ لو مضى زمان بين اللقاء والفعل، أمكن نظراً للأمور العادية إطلاع الخضر فيه من حاله على ما لم يطلع عليه موسى عليه السلام، فلا يعترض عليه هذا الاعتراض،ولا يضر فى هذا ادعاء أن الخرق أيضًا كذلك، لأن المقصود توجيه اختيار الفاء دون الواو أو ثم بعد توجيه اختيار أصل العطف، بأن ذلك يتأتى جعل الاعتراض عمدة، والحاصل أنه لما كان الاعتراض فى القصة الثانية معتنى بشأنه وأهم، جعل جزاء لإذا الشرطية، وبعد أن تعيّن للجزائية، لذلك لم يكن بدٌّ من جعل القتل من جملة الشرط بالعطف، واختيرت الفاء من بين حروفه ليفاد التعقيب، ولما لم يكن الاعتراض فى القصة الأولى مثله فى الثانية جعل متسأنفًا، وجعل الخرق جزاء)[1].

---

(١) روح المعانى ١٥/ ٣٤٠.

الفصل الثانى

مواقع (ثم) وأسرارها

خصائصها وإثراء القرآن لمعانيها

● **طبيعة هذا الحرف**

«ثم» أداة ربط رقيقة، تسوس الألفاظ برفق، وتشد عراها في أناة، وتجمع أباعدها ومتنافرها في يسر ولين. وذلك ما ينم عنه أصلها الذى تنتسب إليه فالثَّمُّ: إصلاح الشيء وإحكامه، وثَمَّ الشيء يثُمه: جمعه وقول الشاعر:

.... وثمُّوا الأوطب النواشجا

أراد: أنهم شدوها وأحكموها[1]. فالفاء والميم -كما قال ابن فارس- أصل واحد، هو اجتماع الشيء في لين[2]، وقال السهيلى: (لاغرو أن يتقارب معنى الحرف من معنى الاسم المشتق المتمكن فى الكلام. فهذه «ثم» حرف عطف، ولفظها كلفظ الثَّم، والثَّم هو رمّ الشيء بعضه إلى بعض.... وأصله من ثممت البيت: إذا كانت فيه فرج فَسُدَّ بالثمام. وقال الشاعر:

وأما الرياح فقد غادرت   رواكد واستمتعت بالثمام

والمعنى الذى فى ثُم العاطفة قريب من هذا، لأنه ضم شيء إلى شيء بينهما مهلة، كما أن ثَمَّ البيت ضمٌ بين شيئين بينهما فرجة)[3].

ومن مفاتن هذه اللغة الشاعرة، ودقة مواءمتها بين اللفظ والمعنى، أنها اختارت الفاء، وهى حرف واحد لمعنى المسارعة، و«ثم» وهى ثلاثة أحرف للمهلة، ليواكب قصر الزمن فى النطق بالفاء التوالى السريع للأحداث، ويتناغم طول النطق بحرف المهلة مع التراخى فى وقوع الأحداث.

وما أثبته النحاة لهذا الحرف، من معانى التشريك، والترتيب، والمهلة، ملتفت إلى هذا الأصل، ومستمد منه. يقول المرادى فى تحديد مدلوله: («ثم» حرف

---

(١) ينظر: لسان العرب مادة: ثمَّ.
(٢) معجم مقاييس اللغة ١/ ٨.
(٣) نتائج الفكر ١٢٤.

عطف يشرك في الحكم، ويفيد الترتيب بمهلة، فإذا قلت: قام زيد ثم عمرو، آذنت بأن الثاني بعد الأول بمهلة)[١].

فامتازت عن الواو بالترتيب والمهلة، وعن الفاء بدلالتها على التراخي، فإذا قلت -والكلام لسيبويه-: (مررت برجل راكب وذاهب، استحقهما، لا لأن الركوب قبل الذهاب. ومنه: مررت برجل راكب فذاهب استحقهما، إلا أنه بيَّن أن الذهاب بعد الركوب، وأنه لا مهلة بينهما، وجعله متصلا به، ومنه: مررت برجل راكب ثم ذاهب، فبيَّن أن الذهاب بعده، وأن بينهما مهلة وجعله غير متصل به، فصيَّره على حدة)[٢].

والاتصال الذى يقصده سيبويه، اتصال زمن المعطوف بزمن المعطوف عليه فى الفاء، وانقطاعه فى حرف التراخى.

تلك هى خصائص هذه الحروف، حيث ترتدى ثوبها الذى نسجت اللغة خيوطه، ووثَّق عراه قدامى النحاة.

وقد لفتنا إمام النحاة إلى نكتة دقيقة، لم تأخذ حظها من الدراسة والتأمل فى الفرق بين حرفى التعقيب والتراخى. وكثيرا ما وطأ -رحمه الله- لعلم المعانى بما بثّه فى كتابه من إشارات صارت فيما بعد مباحث من أصول هذا الفن.

قال سيبويه: (ومن ذلك قولك: مررت بزيد فعمرو، ومررت برجل فامرأة، فالفاء أشركت بينهما فى المرور، وجعلت الأول مبدوءا به، ومن ذلك: مررت برجل ثم امرأة، فالمرور هھنا مروران، وجعلت «ثم» الأول مبدوءا به، وأشركت بينهما فى الجر)[٣].

كانت هذه الإشارة نواة التفرقة عند البلاغيين بين عطف غرضه تفصيل المسند إليه، وعطف آخر يهدف إلى تفصيل المسند، فمن الأول العطف بالواو، ومن الثانى العطف بالفاء وثم. وقد بنى البلاغيون ذلك على ما أشار إليه سيبويه من

---

(١) الجنى الدانى ٤٢٦.
(٢) كتاب سيبويه ١/ ٤٢٩.
(٣) كتاب سيبويه ١/ ٤٣٨.

أن المرور في قولك: مررت برجل وامرأة مرورٌ واحد، فالتفصيل حينئذ في الممرور به، وفي قولك مررت بزيد ثم عمرو مروران لامرور واحد، فالتفصيل في المسند، يقول السعد في المطول: (وأما العطف، أي جعل الشيء معطوفا على المسند إليه، فلتفصيل المسند إليه مع اختصار، نحو: جاءني زيد وعمرو، فإن فيه تفصيلا للفاعل، من غير دلالة على تفصيل الفعل، إذ الواو إنما هو للجمع المطلق، اي لثبوت الحكم للتابع والمتبوع، من غير تعرّض لتقدّم أو تأخر أو معية.. أو لتفصيل المسند، بأنه قد حصل من أحد المذكورين أولا، ومن الآخر بعده، متراخيا أو غير متراخ كذلك، نحو: جاءني زيد فعمرو، أو ثم عمرو. أو جاءني القوم حتى خالد، فهذه الثلاثة تشترك في تفصيل المسند، وتختلف من جهة أن الفاء تدل على أن ملابسة الفعل للتابع بعد ملابسته للمتبوع بلا مهلة، و«ثم» كذلك مع مهلة)[1].

ويعلق عليه السيد الشريف متكئا على عبارة سيبويه، فيقول: (يشير إلى أن تفصيل المسند، إنما هو بأن يشار إلى تعدده وامتياز بعضه عن بعض، بحسب الوقوع في الأزمنة، إما على التعاقب أو التراخي، فإن هذا هو المعتبر في باب العطف، دون ما عداه من الامتياز بحسب القوة أو الضعف، أو المحل، أو المتعلق، فإن المرور في قولك: مررت بزيد وحمار يعد عرفا مرورا واحدا، وفي قولك: مررت بزيد فحمار يعدّ مرورين)[2].

لكن ظاهر عبارة سيبويه -كما أثبتناها- لا يدل على أن المرور في العطف بالفاء مروران، بل هو مرور واحد متصل توالى على المرأة والرجل بلا فاصل زمني، فهو يقول: «فالفاء أشركت بينهما في المرور»، ولم يصرح بأنه مروران، كما صرح به في «ثم»، وغيَّر عبارة الإشراك في المرور مع الفاء، إلى الإشراك في الجر مع ثم، وليس مثل سيبويه من يغيّر عباراته بلا قصد.

---

(١) المطول ١٠١.

(٢) حاشية السيد على المطول ١٠١.

وفى كلام الرضى دليل على ما فهمت من كلام سيبويه، جاء فى شرحه للكافية: (قوله «وثم» بمهلة، أى مثل الفاء فى الترتيب، إلا أنها تختص بالمهلة والتراخى، ومن ثَمَّ قال سيبويه فى «مررت بزيد ثم عمرو» إن المرور مروران)[1] فأنت تراه يستدل بكلام سيبويه على اختصاص ثم وامتيازها عن الفاء بالمهلة والتراخى، ولا وجه لهذا الاستدلال لو كانت الفاء تشاركها ما استدل به.

ثم إن تفريقه بين الفاء وثم باتصال زمن المتعاطفين فى الأولى، وانقطاعه فى الثانية، يؤكد ما صرح به من جعل المرور مع «ثم» مرورين، لوقوعهما فى زمنين متباعدين.

وذلك ما فهمه، وصرح به عصام الدين طاشكبرى زاده فى شرح الفوائد الغياثية، فقال: (نقل عن سيبويه الفرق بين التعقيب والمهلة، أن الفعل فى الأول واحد، لعدم انقطاع الثانى عن الأول، بخلاف الثانى، إذ يتخلل بينهما التراخى)[2].

أصل بذلك إلى اللمحة الطريفة التى طيّرتها عبارة سيبويه، وهى تكثير الحدث وتنميته، والاتساع به زمنا ومعنى، بجعل المرور مرورين فيما عطف بحرف المهلة، وهو الذى قلت إنه لم يستثمر على المستوى النظرى، وإن كانت تطبيقات المفسرين ورجالات البيان على النصوص القرآنية لم تخل من الإفادة منه، فهم يقولون فى عطف المكرر بها، إن المعطوف أبلغ من المعطوف عليه، ولن يكون ذلك إلا إذا كان الثانى غير الأول، وإن كان أهل البيان يرونه ضربا من التجوز فى معنى الحرف، وهو ما سنعرض له فى موضعه.

- **أثر الدراسات القرآنية فى إثراء دلالاته:**

لقد أثرى القرآن حرف التراخى بما خلعه عليه من حلل المجاز، التى لم نره فيها بعيدا عن محيط الدراسات القرآنية، فكان القول بالتفاوت الرتبى،

---

(١) شرح الكافية ٢/ ٣٦٧. (٢) شرح الفوائد الغياثية ٩٢.

والاستبعاد، وهما ضربان من التجوز في معنى الحرف وليد هذه الدراسات وحدها، حتى صرح أبو حيان أكثر من مرة في تفسيره بأنه لم يسمع هذا المعنى لثُمَّ إلا من جار الله الزمخشري في كشافه. وفي ذلك الدليل على أن القرآن نفخ في الدراسات التي دارت حوله من روح الإعجاز في نظمه ما جعلها جديرة بتمثل معانيه وإدراك أسراره.

وإذا أردت دليلا على ما نقول، فانظر كيف عولج معنى هذا الحرف بعيدا عن محيط الدرس القرآني، وكيف عولج نفس الحرف في نفس البيت من الشعر عند الاستشهاد به على دلالته في النص القرآني، وكأنما يعاد استكشاف معناه لأول مرة. ففي شرحه لقول جعفر بن علبة الحارثي:

لا يكشف الغمّاءَ إلا ابنُ حُرة ... يرى غمرات الموت ثم يزورها

قال المرزوقي المتوفَّى في الربع الأول من القرن الخامس الهجري: (فإن قيل: لم عطف الزيارة على رؤية الغمرات بحرف المهلة، وهلا جعلها عقيب الرؤية؟ قلت: إن «ثم» وإن كان في عطفه المفرد على المفرد يدل على التراخي، فإنه في عطف الجملة على الجملة ليس كذلك. ألا ترى قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد: ١٢-١٧]، ولا يجوز تراخي الإيمان عن شيء مما عده وذكره)[1] هذا مثال لتناول معنى الحرف في محيط الدراسات الأدبية، وأنت تراه يخلع عن «ثم» معناها الأصيل الذي به تمتاز عن شقيقتها الفاء، وهو التراخي، ويستشهد لذلك بالنص القرآني.

قارن ذلك بما قاله الزمخشري في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [السجدة: ٢٢] واستشهد بالبيت نفسه، لترى كيف خلع على «ثم» في البيت ما فاضت به من المعاني في النظم الحكيم. وهو خير شاهد على

(١) شرح ديوان الحماسة ١/ ٥٠.

ما قلت من إثراء القرآن لهذا الحرف، وتفجير عيون من الدراسة حوله لم نشهدها بعيدا عن دراسات الإعجاز. قال الزمخشري: («ثم» في قوله «ثم أعرض عنها» للاستبعاد، والمعنى: أن الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها، وإرشادها إلى سواء السبيل، والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل، كما تقول لصاحبك: وجدت مثل تلك الفرصة، ثم لم تنتهزها، استبعادا لتركه الانتهاز. ومنه «ثم» في بيت الحماسة:

لا يكشف الغمّاء إلا ابن حرة ... يرى غمرات الموت ثم يزورها

استبعد أن يزور غمرات الموت، بعد أن رآها، واستيقنها، واطلع على شدتها)[1].

إن هذا الاستبعاد في العقل والعدل الذي وسوست به «ثم» في الآية، هو الذي كسى الإعراض غلالة من القبح، وأبرز جهل المعرضين، حين خالفوا بصنيعهم موجبات العقل وسنَن العقلاء، فأدبروا عما يستوجب الإقبال، وهو نفسه الذي بلغ بالشجاعة والصبر في بيت الحماسة حدا فاق تصور العقول، حين ألقى الحر بنفسه في قُحم الموت، وأقبل على خوض غمراته، بعد أن شاهد نذر الهلاك، إقبال الزائر المحب، الذي يرى سعادته في زيارة من يهواه، ليتعانق التجوز بالاستعارة في «ثم» مع التجوز بالاستعارة في الفعل «يزور» في رسم مشهد للجرأة والإقدام فاق كل تصور.

إن مثل هذا البيان الذي سرى إلى بيت الحماسة، من نبع الدراسة القرآنية، ما كنا لنرى مثله، لولا ما فجّره القرآن بنظمه السامي في عقول دراسية، وألقى على أذواقهم ذوبا من رحيق إعجازه. ليعاد على ضوئه النظر فيما كان مستورا من بيان لغتنا الشاعرة.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٤٦.

المهلة بين حقيقة الزمن والإحساس به

• تصوير الإحساس بالزمن

حقيقة «ثم» الدلالة على التراخي، وهو أن يكون بين المعطوفين مهلة، لكن هذا التراخي يخضع لاعتبارات نفسية وعقلية، وتقديرات في تصور المتكلم حينا، وفي عقل المخاطب وحسّه حينا آخر، ولأحوال ودواع تقتضيها مقامات الكلام وسياقاته حينا ثالثا، ووراء هذا تكمن أسرار الحرف، وبقدر استجابته لهذه الطموحات يتفاضل كلام على كلام.

وأهم ما يميز «ثم» قدرته على نقل تلك الأحاسيس من خلال تحريك زمن الأحداث، مدا وجزرا، وقبضه وبسطه بما يستطيع تصوير أحوال النفوس، وتجسيد ما يغمرها من فيض الشعور، وتمثيله في بُعْد حسي، تعكس عليه النفوس والعقول انفعالاتها وخواطرها.

وقد لمس الأستاذ الكبير محمود شاكر هذه الخصوصية في «ثم» برقة، وفي عبارة شديدة التركيز، حين قال تعليقا على قول الشاعر:

وفتوٌ هجَّروا ثم أسروا ليلهم حتى إذا انجاب حلوا

(ولم يعطف بالواو، فيقول: «هجروا وأسروا ليلهم» بل قال: «ثم أسروا» لأن العطف بالواو يجعل الكلام كأنه أخبار عن أفعال كانت في زمن وانقضت، ولا يراد غير الخبر. أما «ثم» فهي بطبيعتها تحمل معنى الحركة والتتابع، بلا نظر إلى الزمن المقيد، كما تقول: «صعد في الجبل، ثم وقف على قمته، ثم نظر، ثم رمى بنفسه، فهوى» ومعنى الحركة والتتابع ظاهر كل الظهور فيما ذكر الله سبحانه وتعالى من أمر الوليد بن المغيرة المخزومي، لما تعرض لرسول الله ﷺ، ثم سمع القرآن: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ

﴿هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٨-٢٥] وهذا موضع يحتاج إلى فضل تأمل منك وترداد، وهو من روائع هذه اللغة الشريفة الشاعرة، كما أسماها أستاذنا العقاد رحمه الله وغفر له، أما ما يقوله النحاة فى «ثم» من أنها حرف عاطف يقتضى الترتيب والتراخى والمهلة، فهو نظر نحاة يحتاج إلى بيان)[1].

الفرق بين قولك: صعد فى الجبل، ووقف على قمته، ونظر، ورمى بنفسه فهوى، وبين عطف هذه الأفعال بثم، هو الفرق بين مشهد مقروء، تقف فيه على أخبار منقضية، وبين مشهد ممثّل يعرض عليك حركة الصعود، وصعوبتها، ويريك ثقل الأرجل فى خطوات بطيئة عاثرة، كما يريك حركة التردد فى ذهن المنتحر، يبعث عليها حب الحياة، والتشبث بها، فى قوله «ثم نظر». فالحركة والتتابع تراها فى خطوات الصاعد، وتحسها فى خطرات فكره، ونبضات قلبه. وهذا ما عنيته بقدرة هذا الحرف على تصوير أحوال النفوس، والكشف عن مكنوناتها. وخير مثال لذلك ما جسّدت فيه «ثم» الصراع النفسى الذى احتدم فى نفس الوليد بن المغيرة، حين استمع إلى القرآن، فلمس ما سمعه شغاف قلبه، واقتحم عليه جدرانه المغلقة، والوليد عربى لا يستطيع أن يسدَّ مسام حواسه عن التأثر بروائع البيان. إنه زلزال يهز بعنف أركان نفس عنيدة، ويحطم معتقدات كان بالأمس يراها ثابتة عميقة الجذور، فتدور فى نفسه معركة بين الحق الغازى والهوى المتسلط، بين الخضوع لسلطان الحق والعقل، والتشبث بالزعامة والأثرة، وتأرجحت فى نفسه نتائج المعركة، وظهر أثر ذلك فى إقدامه وإحجامه، واعترافه بالحق، وردّته عنه، يؤيد ذلك ما جاء فى تفسير الطبرى من (أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل. فأتاه فقال: زُعِم أن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا، قال: لم؟ قال: يعطونكه، فإنك أتيت محمدا تتعرض لماله قال: قد علمت قريش أنى أكثرها مالا! قال: فقل فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال، وأنك كاره له، قال: فماذا أقول

---

(١) من مقال بعنوان «نمط صعب ونمط مخيف» منشور بمجلة المجلة -الحلقة الخامسة- العدد ١٥٥ نوفمبر ١٩٦٩، ص ٩.

فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منى، ولا أعلم برجزه منى ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذى يقوله شيئًا من هذا. والله إن لقوله لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يُعلى. قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه. قال فدعنى حتى أفكر فيه. فلما فكر قال: إن هذا إلا سحر يؤثر من غيره)[1].

فقد أبدع النظم الحكيم فى تصوير أطوار الصراع المحتدم فى نفس الوليد، وجسده فى حركات الجوارح. وملامح الوجه، وأبرز شتات فكره وتناقضاته، إنه فكَّر وأطال التفكير بحثا عن مغمز فى الكتاب الحكيم «ثم قتل كيف قدر. ثم نظر» وكأنه قد أعيته الحيلة بعد طول الفكر. فجلس شاردا مقطب الوجه، «ثم عبس وبسر»، وأخيرا وبعد ولادة متعسرة، وطول تردد وحيرة، «أدبر واستكبر» وكأنه فى كل هذا ينازع نفسه، ويستجمع قواه الخائرة، إلى أن خطرت له خاطرة رمى بها دون وعى أو فكر، وكأنه يلقى عن نفسه عبئا ثقيلا آذاه حمله، وشلّ تفكيره. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر، فأدت «ثم» دورها فى تعميق الصراع، وإبراز المعاناة، وتكاثف الحيرة، وصعوبة التخلص من آثار الهزيمة النفسية، التى خلفها سماع القرآن فى نفسه، كما أدت الفاء فى الآية الأخيرة دورها كذلك، فى الدلالة على التسرع والنزق فيما وصفَ به القرآنَ من السحر، وأنه لم يخضع قولته لفكر ونظر، ولم يقل ما قاله عن قناعة ويقين، وكأنه يسرع الهرب بعد أن ألقاها.

هذا التراخى الذى جسّد حيرة الوليد وتردده نجد مثله فى موقف المشركين، حين يلجم الله المتهم بحجته فى الحوار الذى حكاه القرآن ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٣].

فإن الجواب من شأنه أن يعقب السؤال، لا أن يتأخر عنه، خاصة إذا كان السائل هو الله العلى الكبير، ولو جرى الجواب على الظاهر، لقيل: فلم تكن

(١) جامع البيان ٢٩/ ٨٤ مطبعة الميمنية بمصر.

فتنتهم إلا أن قالوا. لكن حرف المهلة الذى افترض موقع الفاء، دل على ما أصابهم من الحيرة والدهشة، فطال بهم الزمن قبل أن تطاوعهم ألسنتهم بالجواب، وإن كان جوابا أفضل منه السكوت، قال الألوسى فى رده على من قال بدلالة «ثم»هنا على التراخى الرتبى: (وأنت تعلم أنه لا ضرورة للعدول عن الظاهر، لجواز أن يكون هناك تراخ فى الزمان، بناء على أن الموقف عظيم، فيمكن أن يقال: إنهم لما عاينوا هول ذلك اليوم، وتجلى الملك الجبار جل جلاله عليهم بصفة الجلال، كما تنبئ عنه الجملة السابقة، حاروا ودهشوا، فلم يستطيعوا الجواب إلا بعد زمان، ومما ينبىء عن دهشتهم وحيرتهم أنهم كذبوا، وحلفوا فى كلامهم هذا، ولو لم يكونوا حيارى مدهوشين، لما قالوا الذى قالوا، لأن الحقائق تنكشف يوم القيامة)[1].

وهذا حرف التراخى يجسد حالة الذعر والانهزام النفسى لفرعون، وخوفه من مواجهة موسى مع مكابرته ودعواه الربوبية، فتبرز تثاقله وتردده بعد أن جمع سحرته، وكأنه يرى عرشه يهتز من تحته، فلا يريد أن يتعجل نهاية ملكه، وهذا درس يجب أن يعيه أصحاب الحق، وهو أن الطاغية مهما كان مستبدا، فإنه يهتز من الداخل أمام كل صاحب صوت صادق، وإن تظاهر بغير ذلك، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴾ [طه: ٥٦-٦٤].

---

(١) روح المعانى ٧/ ١٢٣.

تأمل قوله «فجمع كيده ثم أتى»، وكيف أسرع إلى جمع كيده كما تعبر عنه الفاء، وكيف تثاقل عن الإتيان للقاء موسى، فأشعرت «ثم» بطول زمن الاستعداد وحشد الجموع، وعدم المبادرة باللقاء بعد أن جمع كيده، أفترى فرعونَ وقومه على يقين من أن موسى ساحر؟ وأي ساحر هذا الذى تحشد له كل هذه الجموع من قوم هم أرباب صناعة السحر؟ أو ليست «ثم» تشى بحالة الذعر التى انتابت فرعون وملأه، ودفعتهم إلى المبالغة فى الحشود، والمماطلة فى المواجهة؟ وهو ما يؤكده تنازع القوم واختلافهم «فتنازعوا أمرهم بينهم» فأى تنازع هذا وهم مجمعون على حربه والقضاء عليه، ومواجهته بنفس السلاح الذى زعموا أنه يحاربهم به؟ أليس ذلك دليلا على هزيمتهم النفسية بعد أن رأوا الآيات الناطقة بتأييد الله لنبيه؟

إلى هذه النكتة يشير قول أبى السعود: (وفى كلمة التراخى إيماء إلى أنه لم يسارع إليه، بل أتاه بعد لأى، وتلعثُم)[1].

وقد سرى هذا التردد والتثاقل من نفس فرعون إلى أنفس القوم، فهم يخشون مواجهة موسى فرادى، ويطيلون فترة الاستعداد، ويتواصون بأن يجتمعوا له صفا واحدا مهما طال بهم زمن الحشد والإعداد، وجاءت «ثم» مرة ثانية لتكشف عما انطوت عليه نفوسهم من الذعر والقلق «فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا»، وكأنى بهم وهم يطيلون زمن النطق بثم قبل الدعوة إلى لقائه يستهلكون الوقت، ويتهربون من المواجهة، ويتمنون ألا تكون.

وانظر كيف يصور حرف التراخى شدة وطأة الزمن، وثقل حركته على أنفس المسلمين إثر هزيمتهم المباغتة، وما أصابهم من الدهشة والذهول فى غزوة حنين، ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦].

---

(١) تفسير أبى السعود ٦/ ٢٤.

فقد كشفت «ثم» في قوله «ثم وليتم مدبرين» عن شدة وقع المفاجأة على المسلمين حين باغتهم العدو، فشتت فكرهم وجمعهم، وجسّدت حيرتهم وارتباكهم. إنها لحظات قلائل بعمر الزمن، بين مباغتة العدو للمسلمين، وتوليهم مدبرين، لكنها لحظات عصيبة، أبرز فيها حرف المهلة ما أصاب فكرهم من الشلل، وما غشيهم من الحيرة، فأعجزهم عن الحركة السريعة القادرة على استيعاب الحدث، وحسن التصرف في معالجته، وهو ما صورته الكناية في قوله «وضاقت عليكم الأرض بما رحبت»، فهو ضيق النفس، وضعف الحيلة، والعجز عن الحركة، وذهاب الفكر، ذلك الذى عكسه حرف التراخي في صفحة الزمن.

وجاءت «ثم» مرة ثانية في قوله «ثم أنزل الله سكينته» لتشير إلى عظم المصيبة، وشدة الابتلاء، ليمرّ الوقت ما بين إدبارهم وإنزال الله سكينته عليهم بطيئا بغيضا، يضغط وقع الهزيمة على نفوسهم، ويعتصرهم الألم، الذى ضاعفه أنهم لم يهزموا عن قلة. إنه لون من العقاب، وقسوة في التأديب، تلوح بها عصا الزمن، وينم عنها حرف التراخي.

وأحسب أن هذا التراخي الزمني أقدر على تصوير ضيق النفس ومعاناتها، من القول بالتراخي الرتبي، وهما وجهان ذكرهما ابن عاشور في قوله: (و«ثم» دالة على التراخي الرتبي، فإن نزول السكينة، ونزول الملائكة أعظم من النصر الأول يوم حنين، على أن التراخي الزمني مراد، تنزيلا لعظيم الشدة وهول المصيبة منزلة طول مدتها، فإن أزمان الشدة تخيل طويلة وإن قصرت)(١).

فإن القول بالتراخي الرتبي مبنى على أن «أنزل» معطوف على «نصركم» وأن المسلمين كانوا منتصرين في أول المعركة يوم حنين، وهذا العطف بعيد، والتكلف فيه ظاهر. وما قاله من التراخي الزمني وتفسيره له هو الأليق ببلاغة النظم.

وهذا المشهد نفسه كان قد تكرر مع المسلمين في غزوة أحد حين نال منهم المشركون ما نالوا، ونزل بهم من الغم ما نزل، فوقعت «ثم» كذلك مصورة تثاقل

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/ ١٥٧.

خطوات الزمن، وإحساس المسلمين بتجمده، وهم يئنون تحت وطأة الهزيمة: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ.. [آل عمران: ١٥٣-١٥٤].

فقد أشارت «ثم» إلى تأخر فرج الله تعالى، وطول احتباس أنفاس المسلمين تحت جذر الهموم المطبقة عليهم، جزاء ما خالفوا أمر رسولهم، سعيا وراء الغنائم.

وهذا السر نفسه يكمن وراء حرف المهلة الذي قال البعض بزيادته، في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٧].

فالآية تصور عقابا إيجابيا، قاطع فيه المجتمع المسلم ثلاثة من صادقي المسلمين، انتابتهم لحظة من لحظات الضعف البشرى، فتخلفوا بلا عذر عن الخروج للجهاد فى سبيل الله، فى غزوة العسرة، وكان العقاب قاسيا، والمقاطعة عنيفة، ألفى الثلاثة فيها أنفسهم معزولين عن الحياة والأحياء، فهجرهم أصدقاؤهم وأقرباؤهم. حتى أولادهم وأزواجهم، وظلوا يرقبون عفو الله بقلوب واجفة، يعتصرهم الحزن على حاضرهم، ويقتلهم الخوف من مستقبلهم، فدخلت ثم بين ضيق أنفسهم، وعفو الله عنهم، لتطيل زمن العقاب، وكأنها سوط التأديب، يلهب مشاعرهم، ومرارة الانتظار الطويل تغص بها حلوقهم.

إن هؤلاء الذين يقولون بزيادتها بين الشرط والجواب يميتون إشعاعها، ويذهبون بما أومأت إليه من إحساس المقاطعين بطول المعاناة، وقسوة العقاب، لأنه لا مهلة بين الشرط وجزائه، على ما صرح به الإمام عبد القاهر فى شرحه للإيضاح: (ولعمرى الفاء من التراخى وقع فى جواب الشرط، نحو: إن تأتنى

فأنا أكرمك، ولم يقع «ثم» نحو: إن تأتنى ثم أنا أكرمك، لأن الجواب من حقه أن يلحق بالشرط سريعًا»(١).

فإذا ما جعلت التوبة من الله عليهم جوابًا للشرط، ضاع الغرض من إبراز إحساسهم بقسوة الوحدة، وإطباق ساعات الليل والنهار على نفوسهم. وشدة ما عانوه فى نفوسهم.

إن الزمن إحساس ينبض به القلب، ويفيض به الشعور، قبل أن يكون دقات ساعة، وحركة عقارب، فيستقصر الطويل من الزمن فى لحظات السعادة، وليالى الأنس، وتطول الثوانى القليلة فى عين الضائق المهموم، لذلك تجد الشعراء العرب فى تعبيرهم عن نفثات صدورهم، وفيض شعورهم، يقيّدون الزمن، ولا يطلقونه، فيجعلون للمتكلم أو المخاطب ليلاً خاصًا به، يطول ويقصر فى نفسه، وذلك غاية الصدق وقمة البيان، حين يطوّع الزمن للتعبير عن انقباض النفس وانبساطها، كما تحسه فى قول امرئ القيس:

تطاول ليلك بالإثمد وبات الخلىّ ولم ترقد

فلم يقل: تطاول الليل، لأن التطاول ليس فى حقيقة الزمن، وإنما هو فى إحساسه به، لذلك أضافه إلى نفسه على سبيل التجريد، فحمّل ليله شحنة من المشاعر، امتدت به سعة وطولاً. وقريب من ذلك ما تجده فيما حكاه الله عن العزير:

﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

فعبر الله عن حقيقة الزمن بحرف التراخى، لطول ما بين الإماتة والبعث، وعبر العزير عن إحساسه بالزمن، وكان صادقًا حين قال: «لبثت يومًا أو بعض يوم».

فهناك إذًا فرق بين حقيقة الزمن، والإحساس به، فقد يكون الزمن طويلاً فى نظر شخص، وجدّ قصير فى عين آخر، وهو فى حقيقته زمن واحد لم يتغير، وهذا ما وسعته لغتنا الشاعرة، وبثّته فى حروف العطف، على نحو يشهد للغة القرآن بالعظمة والتفرد.

---

(١) المقتصد فى شرح الإيضاح ٢/ ٩٤١.

وقد كان للنحاة لفتة دقيقة، تعبر عن تنوع الإحساس بالزمن، واختلاف اعتبارات النظر إليه، وإن لم تصل إلى تمامها. قال الرّضى فى احتمال النص لحرفى التعقيب والمهلة، وترك تقدير ذلك للمتكلم فيما يريد أن يلقيه فى نفس المتلقى: (ثم اعلم أن فائدة الفاء للترتيب بلا مهلة لا ينافيها كون الثانى المترتب يحصل بتمامه فى زمن طويل، إذا كان أول أجزائه متعقبًا لما تقدم. كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣]، فإن اخضرار الأرض يبتدئ بعد نزول المطر، لكن يتم فى مدة ومهلة، فجيء بالفاء نظرًا إلى أنه لا فصل بين نزول المطر، وابتداء الاخضرار، ولو قال: ثم تصبح نظرًا إلى تمام الاخضرار جاز)[1].

وتمام الجواب فى صحة تعاور الحرفين هذا الموقع، أن يقال: إن اخضرار الأرض مترتب على نزول الماء ومسبب عنه، وأن زمن الاخضرار طويل وممتد، فإذا ما قصد بيان أثر الماء فى إحياء الأرض وتوقفها عليه، وقعت الفاء لتربط الثانى بالأول ارتباط السبب بالمسبب، والمسبب يتعقب سببه، وإذا قصد الإشارة إلى تمام النعمة والانتفاع بما أنبته الله تعالى فى الأرض، دخلت «ثم» للدلالة على امتداد أثر الماء حتى يكتمل اخضرار الأرض، ويتحقق كمال الانتفاع بما أنبتت من زروع وثمار. ولذلك كله دواع وأغراض يحددها السياق، وتوجب البلاغة كلا فى موضعه، وليس المراد أن «ثم» يصح استبدال الفاء بها بالفاء فى هذا الموضع من السياق.

• مَطْل زمن المعطوف عليه

تأتى «ثم» لمطل زمن الفعل قبلها، وتكثيف حدثه واستعارة طول الزمن وامتداده لقوة الفعل وتكرره، مُفَارِقَة حقيقتها الدالة على الانقطاع، وتخلل الزمن بين المتعاطفين.

من ذلك ما ألقت به مشاعر الغضب المتأججة على لسان موسى عليه السلام، فى مخاطبته للسامرى بعد أن فَتَن قومه وأضلهم، بما أخرجه لهم من عجل

(١) شرح الكافية ٢/ ٣٦٧.

اتخذوه من دون الله إلهًا ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧].

تأمل قوله ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ كيف ينم عن غيظ تفجر في صورة الانتقام والتشفي من هذه الآلهة المزعومة، ففاضت هذه المشاعر على الألفاظ، ونفخت فيها من روحها، ما أثقل وزنها، ومدد حجمها، ألا ترى إلى هذه التأكيدات المتتابعة، من القَسَم، ولامه، ونون التوكيد، وتضعيف الفعل «نحرّق» الدال على المبالغة والتكثير، وكأنه لا يكتفي بحرقه مرة، حتى يعيد إحراقه مرة ومرة، مما امتد معه زمن التحريق، فاستوجب حرف المهلة، لينقل إليك إحساسًا بالتشفي، ومعاودة الفعل وتكراره، حتى لا يبقى للمحروق أثر. فلو وضعت الفاء موضعه، لأفادت سرعة التخلص منه وإلقائه في اليم، ويضيع ما جسّدته «ثم» من الإفراط في التشفي والانتقام.

ومثله قوله تعالى على لسان فرعون يهدد السحرة بعد إيمانهم برب موسى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٣- ١٢٤].

فأكسبت «ثم» فعل التقطيع قوة وكثرة، ومبالغة فوق ما فيه من المبالغة بالتضعيف، وكأنه سيستمر على التقطيع حتى لا يبقى شيء يقطعه. إنه تمثيل لا تعذيب، يريك تفلت أعصاب فرعون وشدة حنقه، وخوفه من أن يكون إيمانهم هذا بداية انهيار مملكته.

هذه المبالغة تتجاوب مع نبرة التهديد التي ازدادت حدتها في هذه السورة عما أشبهها من النظم في سورتي طه والشعراء، وفيهما عطف التصليب بالواو، وسبق تهديده بالتقطيع والتصليب قوله ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾

فنسب إليهم التبعية لموسى، والتتلمذ عليه فحسب، أما فى سورة الأعراف، فقد جعلهم شركاء في التآمر عليه، وإسقاط حكمه، وإجلاء أصحاب الأرض عن ديارهم، وتلك تُهَمٌ يحلو للناس في كل عصر أن ينعتوها بالخيانة العظمى، التى تستوجب أقسى الأحكام، فتناغم حرف المهلة بما أضفاه من التكثير والمبالغة المُلَوَّحُ بطول زمن التصليب، مع هذا الإرعاد والإبراق في الوعيد والتهديد.

ومثل هذا فى الغرض وقوع حرف المهلة فى قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤- ٣٢].

فقد عهدنا القرآن يعقّب نزول الماء بالإنبات، وإخراج الثمرات، واخضرار الأرض، مستخدمًا حرف التعقيب، كما فى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٣٢] وقوله ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [النحل: ٦٥] لكنه هنا يتحدث عن مرحلة شق الأرض بين نزول الماء والإنبات، ويعطفها على صب الماء بحرف المهلة، مع أن تخلل الماء لتربة الأرض يعقب نزوله، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨] فعطف ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾ بحرف التعقيب وهو الظاهر.

فإذا فتشت عن سر العدول إلى حرف المهلة وجدته راجعًا إلى اختلاف الغرض فى الآية، حيث كان المراد لفت الأنظار إلى حقيقة تبدو غائبة عنها، يرى الناس آثارها، ولا يرون أعيانها، تلك هى تطويع مسام الأرض الصلبة، التي تستعصى على قبول الماء ونفاذه فيها، فضلاً عن جذور نبات تضرب فى أعماقها كجذور النخل، حتى إن الإنسان ليعجب كيف تصل بعض الأشجار

المعمرة إلى مسافات غائرة فى الأرض تحتاج أنت إلى معدات حديثة للوصول إليها، فكيف استطاعت هذه النباتات الرخوة الضعيفة أن تشق باطن الأرض بأيسر مما تقوم به هذه الآلات مستخدمة أشد أنواع المواد صلابة؟!

لذلك لم يعبر بالإنزال، واستبدل به الصب، وهو الموضع الوحيد الذى ورد فيه هذا اللفظ، معبرًا به عن نزول الماء، للدلالة على قوة اندفاعه، إذ الصبّ خاص بإراقة الماء من علٍ، وذلك أقوى فى تدفقه ونفاذه إلى غرضه، ومنه قيل للحيات الأساور: الصُّب، وذلك أنها إذا أرادت النَّكْل انصبت على الملدوغ انصبابًا، ثم أكد ذلك بالمصدر صبّا، وعطف الشق بثم ليطيل زمن الصب، فجمع له بين القوة والكثرة، كى يلفت الانتباه إلى أثر الماء فى شق ما يستعصى فى العادة شقه من الأرض، وتهيئته لما أراد الله تعالى من نبات تقرب جذوره من سطح التُّربة، وأشجار تغور جذورها فى أعماق الأرض. أما حين كان الغرض حفظ الماء فى أعماق الأرض فى قوله تعالى ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ لتكون مخزونًا احتياطيًا يستخدمه الإنسان وقت الحاجة، فقد دخلت فاء التعقيب لتدل على سرعة وصوله إلى مستودعه فى الأرض، وهو سر التعبير بالإسكان الدال على الاستقرار، ودخولُ «ثم» يفسد الغرض. لأن إطالة زمن بقائه قبل إسكانه فى الأرض تكون عاملاً من عوامل ضياع بعضه بالتبخر وغيره، مما يتنافى مع ما أراده النظم من التنبيه على رحمة الله بحفظ ما أنزله من السماء، لينتفع به الخلق وقت الحاجة. ولذلك ذيلت الآية بقوله ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾.

ويرمز حرف المهلة إلى طول المعاناة وشدة التحمل فى قوله تعالى على لسان نوح مناجيًا ربه، شاكيًا إليه سوءَ ما صنعه قومه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ⁽⁵⁾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ⁽⁶⁾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ⁽⁷⁾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ⁽⁸⁾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾[نوح: ٥- ٩].

فقد استنفد نوح عليه السلام كل فنون الدعوة، وهو يتنقل من طور إلى طور، ولم يتخلل ذلك انقطاع أو فتور، جرب معهم الإسرار بدعوته، ولم يدخر جهداً في ليل أو نهار، فلما أعياه ذلك انتقل إلى المجاهرة، وصبر على تكاليفها وتضحياتها، فلم يحقق بها ما أراد، ثم انتقل إلى المزاوجة في دعوته بين الإعلان والإسرار، فما كان ذلك بأسعد حظًا من التفرد بالإسرار أو الجهار، وحرف المهلة بين هذه المراحل يمطّ زمن المرحلة قبله، وكأنه يُعذر لنبى الله نفاد صبره مع قومه، فهو لم يتعجل الانتقال من طور إلى طور، بل كان دءوبًا صبورًا، يطرق كل باب، ويبذل كل جهد. ألا ترى قوله في الطور الأول: ﴿لَيْلاً وَنَهَاراً﴾ وقوله ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً﴾ مما يدل على مداومة الدعوة وتكرارها، وأنه كلما جدد معهم دعوة، جددوا صدا وكفرانا؟!

فالتراخى الزمنى هو الذى يشعر بطول معاناة نوح، وشدة صبره على أذى قومه، وهو أحب إلىّ من القول بالتراخى الرتبى الذى ذهب إليه الزمخشرى في قوله: (فعل عليه الصلاة والسلام، كما يفعل الذى يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر فى الابتداء بالأهون، والترقى فى الأشد فالأشد، فافتتح بالمناصحة فى السر، فلما لم يقبلوا ثنّى بالمجاهرة، فلما لم تؤثر، ثلّث بالجمع بين الإسرار والإعلان. ومعنى «ثم» الدلالة على تباعد الأحوال، لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الأمرين أغلظ من الإفراط فى أحدهما)[1].

فلست أظن أن الجمع بين الإسرار والمجاهرة أغلظ من إفراد المجاهرة، لما هو معلوم من أن المجاهرة بالدعوة تستثير المعاند، وتستنفر حميّته، وتدفعه إلى الإغلاظ للداعى وإيذائه، والتهكم به، فكيف تكون المداومة على المجاهرة أهون من الجمع بينها وبين الإسرار؟

لقد فرّ جار الله إلى القول بالتراخى الرتبى هروبًا من حقيقة «ثم» المستوجبة الانقطاع بين أطوار الدعوة، ونحن نرى أن المباعدة بحرف المهلة منظور فيها إلى بداية المرحلة، وهى طويلة طويلة بالنظر إلى المرحلة التى تليها، وهى وحدها

(١) الكشاف ٤/ ١٦٢.

القادرة على نقل الإحساس إلى القارئ بطول المجاهدة وشدة المعاناة، ولو قيل: فدعوتهم جهاراً. فأعلنت لهم وأسررت، لضاع ما أومأت إليه «ثم» واعتذرت به لنبي الله حين ضاق بهم، وجأر إلى ربه: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦- ٢٧].

وتقف «ثم» شاهدا على عظمة الإسلام، وروحه السمحة فى صيانة أرواح غير المسلمين، وتهيئة سبل الأمان لهم فى أرضه، وتمكينهم من التعرف على حقيقة الإسلام، وتدبّر آيات الكتاب الحكيم، فى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦] فقد وقعت بين الأمر بإجارة المشرك للاستماع إلى كلام الله، وبين الأمر بإبلاغه مأمنه، لتوجب عدم معاجلته واستمرار حمايته، وتمكينه من الإقامة الآمنة زمنًا رخيًا، يستطيع معه التعرف على أصول الشريعة وأحكامها، وتدبر معانى الكتاب المجيد، ومعايشة المسلمين، ليرى آثار الدين فى سلوكهم، لأنهم الترجمة الحقيقية والصورة الممثّلة للقرآن الحكيم. وفى تذييل الآية ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ إيحاء بأنه ليس المراد الاستماع إلى كلام الله فحسب، وإلا لكان ذلك موضع الفاء، ومعها ينتهى عهد الأمان بمجرد الاستماع، وإنما المراد إمهاله حتى يتدبر ويعى، ويعاود الاستماع، وهو مستمتع بالأمان، لأن الذى لا يعلم بحاجة إلى من يعلّمه، ويصبر عليه حتى يزيل جهله، وتلك حضارة الإسلام ورسالته التى أوجب الله على المسلمين حملها إلى البشرية، منذ أن اختتمت رسالات السماء بنبيهم الكريم، ولم يعد سواهم مؤهلاً لإشاعة نور الحق فى بقاع الدنيا، لذلك قال البيضاوى: («فأمّنه» حتى يسمع كلام الله»، ويتدبره، ويطلع على حقيقة الأمر)[1] فما فُهِم التدبُّر، والاطلاع على حقيقة الأمر إلا من نفث حرف التراخى. وقد تعاونت «ثم» مع «حتى» التى تمتاز عن «إلى» بامتداد الغاية معها، لتمتد حماية المسلمين للكافر المستجير بهم إلى تمام الاستماع، لأن «إلى» لا يدخل ما بعدها فى حكم ما قبلها، كما عليه أكثر

(١) تفسير البيضاوى ٤/ ٣٠٢

المحققين[1]، لذلك جاءت «إلى» فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]. لتدل على تعجيل الفطر، كما حثت عليه السنة المطهرة.

ومنه مجيئها فى قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك: ٣، ٤]. فإن «ثم» فيه دلت على شفع النظر بالتأمل وإجالة الفكر، وتدبر أحوال الخلق، وصولاً إلى الخالق، وكأن «ثم» هى الحاجز بين النظرة الحمقاء، التى لا ترى من الأشياء إلا أشكالها وألوانها، والنظرة النافذة إلى حقائق الأشياء، وإدراك غاياتها. إنها دعوة إلى التوقف بعد كل نظرة للتدبر فى أسرار الصنعة، والاستدلال بها على عظمة الصانع. يقول الزمخشرى: (فإن قلت: فما معنى «ثم ارجع»؟ قلت: أمره برجْع البصر، ثم أمره بألا يقتنع بالرجعة الأولى، وبالنظرة الحمقاء، وأن يتوقف بعدها، ويُجِمّ بصره، ثم يعاود ويعاود، إلى أن يحسر بصره من طول المعاودة، فإنه لا يعثر على شىء من فطور)[2].

● **الدلالة على سعة الرحمة**

كثيراً ما يرمز حرف التراخى إلى سعة رحمة الله، وعظيم عفوه، حين يمهل المذنب، فلا يعاجله بالعقوبة، ويفتح أمامه أبواب الرجاء، وإن طال أمد المعصية. قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] فإن عطف الاستغفار المنبئ عن التوبة والإقلاع عن الذنب بحرف المهملة، وتعقيب ذلك بقوله «يجد الله غفورا رحيما»، فيه إشارة إلى أن الله تعالى يسع برحمته كل من أقبل عليه، واستمطره عفوه، وأنه لا يوصد أبواب التوبة عن عبده، مهما أوبق نفسه بالمعاصى، ولئن كان ذلك شأنه مع العصاة الذين طال عصيانهم، فلأن تكون رحمته للمسارعين إلى التوبة أعظم. إنها يد الله ممتدة للعصاة، لا يقبضها حتى يملوا.

---

(١) ينظر الجنى الدانى ٣٨٥

(٢) الكشاف ٤/ ١٣٥.

وقد توالت الآيات مؤكدة على هذا المعنى، كما فى قوله تعالى: ﴿إلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل: ١١] وإن كانت الرحمة هنا أعظم وأوسع، بدلالة توالى التوكيدات فى وعد الله تعالى بالمغفرة والرحمة، ومقابلة تراخي عبده فى التوبة، بمسارعته إلى المغفرة، وهو مدلول الفاء فى الجواب، وذلك لأن درجة التائب هنا أعظم، فهو لم يقلع عن المعصية فحسب، ولكنه بدَّل حسنا بعد سوء، فذهبت حسناته بسيئاته، وبقى له فضل الله عظيما.

وعلى نحو منه فى الدلالة والدرجة، قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩] فهم مع طول زمن عصيانهم المعبَّر عنه بحرف التراخي قبل التوبة، وتأكيده بالظرف «من بعد ذلك»، فإن الله عظَّم هذه التوبة، وقابلها بمزيد من الغفران والرحمة، فحشد النظم الكريم من أدوات التوكيد والمبالغة ما يجلّل ذنوب التائبين ولو أتوا بقراب الأرض خطايا، ألا ترى إلى أداتي التوكيد: إنَّ واللام، واسمية الجملة ولفظ الرب، المشعر ببالغ العطف والحنّو، وإضافته إلى المخاطب، الدالة على الرضا والقبول، وصيغتي المبالغة فى صفتي الغفور الرحيم!! إن هذا الفيض الغامر من الرحمة استحقه التائبون مع طول عصيانهم، لأنهم عصوه عن جهالة، لا عن إصرار وهم يعلمون، ثم لم يكتفوا بالتوبة، بل شفعوها بالعمل الصالح، وبدلوا سيئاتهم حسنات، وهو ما دل عليه بقوله: «وأصلحوا».

ومثله قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٥٣] غير أنه عطف الإيمان على التوبة، والإيمان والإصلاح متلازمان. ولعلك تدرك سعة عفو الله وشمول رحمته مع هؤلاء الذين طال عصيانهم، إذا علمت أن الآية هنا تتحدث عن توبة عبدة العجل من بنى إسرائيل، حيث جاءت بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]

فإذا كان هذا عفو الله مع التائبين من أعظم الذنوب، فكيف تكون رحمته مع من تاب من قريب؟! يقول صاحب التحرير والتنوير: (وحرف «ثم» هنا مفيد للتراخي، وذلك إلجاء إلى قبول التوبة، ولو بعد زمان طويل، مملوء بفعل السيئات. وقوله «من بعد» تأكيد لمفاد المهلة، التي أفادها حرف «ثم». وهذا تعريض للمشركين بأنهم إن آمنوا يغفر لهم، ولو طال أمد الشرك عليهم)(١).

● **الإذلال والتحقير**

يكثر وقوع «ثم» بين مواقف الحشر، لتصوير إحساس أهل الموقف بطول الزمن والتعبير عن شدة ما يعانونه حينا، وللاستهانة والتحقير، بحبس الموقوفين، والإعراض عنهم، وإطالة زمن ترقبهم حينا آخر. من هذا قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢] وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ [يونس: ٢٨] وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠] فإن في إطالة زمن الانتظار بين حشر المشركين وسؤالهم قصدا إلى إغفالهم، والإعراض عنهم، تحقيرا لهم وإذلالا. وقد كانوا الكبراء والسادة في الدنيا، وهو لون من العقاب يضاف إلى مرارة الانتظار وترقب نزول العذاب، وذلك ما أفاده ابن عاشور عند تفسيره للآية الأولى: (وعطف «نقول» بثم، لأن القول متأخر عن زمن حشرهم بمهلة، لأن انتظار المجرم ما سيحل به أشد عليه، ولأن في إهمال الاشتغال بهم تحقيرا لهم. وتفيد «ثم» مع ذلك الترتيب الرتبي)(٢).

غير أن جمعه بين دلالتها على التحقير المفادة بالتراخي الحقيقي، وبين التراخي الرتبي هو من الجمع بين الحقيقة والمجاز، فضلا عن تصادمهما، لأن التراخي الرتبي لا يصار إليه إلا إذا استحال التراخي الزمني، ويكون عدم صحة المهلة

---

(١) التحرير والتنوير ج٩ الكتاب الأول ١٢٠.

(٢) التحرير والتنوير ٧/ ١٧٤.

الحقيقية قرينة المجاز والتراخي الزمني هنا ممكن، وبه دلّ حرف التراخي على التحقير، فلا مبرر للعدول إلى التجوز.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤] حيث يستمع الله إلى شهادة الشهداء، ويُعرض عن المشهود عليهم، ولا يعلنهم بعدم الاستماع إليهم، بل يتركهم يترقبون سؤالهم، يعتصرهم ألم الانتظار، وإذلال الإهمال، ثم يلقيهم بعد ذلك في النار دون أن يأذن لهم بالخطاب، ليكون حبسهم في الموقف بعد سماع الشهداء غاية في التحقير. وهذا هو سر العدول عن الواو أو الفاء -وهما الأصل في هذا الموقع- إلى حرف التراخي.

ومما هو ذاهب إلى هذا الغرض ما أومأت به «ثم» إلى طوله حبس الغالّ يوم القيامة، قبل أن يوفّى جزاءه، للتشهير به، وفضحه على رءوس الأشهاد، وهو يحمل على ظهره ما غلّه في دنياه، إنْ بقرةً لها خوار، أو بعيرا له رغاء، أو شاة لها ثغاء. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

فإذا كان الغرض من الإتيان بالغال حاملاً ما غلّه قُصد به فضحه أمام الخلق يوم المشهد العظيم، ففي إبقائه على هذه الصورة المزرية زمنا طويلا حتى يراه أهل الموقف جميعا غاية التهكم والازدراء.

وإمعانا في التحدي، وعدم المبالاة بكيد الخصوم، والاستهانة بجمعهم، أمر الله رسوله أن يخاطب المشركين بما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٤، ١٩٥].

فقد نشر حرف المهلة جوا من الاستخفاف وعدم المبالاة بكيد مَنْ دعاهم إلى كيده، ثقة فى معيّة الله تعالى، ويقينا بأنهم لن يستطيعوا كيده بعد أن عصمه الله منهم، لذلك أرخى لهم العنان، ليجمعوا كل ما يستطيعون جمعه من الأنصار والشركاء، وأملى لهم بما يمكنهم من حشد كل طاقاتهم قبل أن ينازلوه: «قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون»، وزيادة فى التحدى والاستخفاف، دخلت الفاء فى قوله «فلا تنظرون» إشارة إلى أنه يمهلهم ليستعدوا له، ولا يستمهلهم إذا ما أكملوا استعدادهم، وجمعوا جموعهم، وقرروا الإيقاع به. أترى احتقارا وازدراء أشد من هذا الاحتقار؟!

ومثله ما تحدى به نوح عليه السلام قومه، فيما قصّه الله تعالى فى كتابه: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس: ٧١].

ولما كان العناد فى قوم نوح أشد، وتماديهم على الكفر والاستكبار أطول زمنا مما بين محمد عليه السلام وقومه، جاء التحدى هنا أشد، والإملاء للمعاندين أرخى وأوسع، وكأن النظم الحكيم يقسّم سنوات الرسالة، وحجم المعاناة على ألفاظ التحدى. لقد مهّد نوح لتحديه بإخلاص توكله لربه، بما يعنى أنه يقوى عليهم بما يستمده من قوة الله، ويستعين على مكرهم بخير الماكرين، وقد زاد نوح على طلبه دعوة شركائهم مطالبتَهم بإجماع أمرهم، وهذا غاية الاستخفاف والاستهانة، حين يوجههم إلى حشد قواهم، ويهديهم إلى عوامل النصر والتغلب عليه، المتمثلة فى وحدة الكلمة، ووضوح الرؤية والهَدف «ثم لا يكن أمركم عليكم غمة» فإذا ما تأكدوا من تمام الاستعداد، وهيأوا لأنفسهم وسائل الانتصار، فليعجّلوا الإيقاع به.

أرأيت محاربا باسلا، يرسم لخصمه طرق التقوى عليه، ويرشده إلى العوامل التى تمكنه من تحقيق أهدافه؟ إنه هذا الذى جاء على لسان نوح، وقد بلغت «ثم»

بهذا التحدى مبلغا من الاستهانة لا ينطق به إلا من كـان على مثل ثقة نوح فى عون من أرسله. فقـد أمهلتهم أولا لحشد قـواهم وقوى آلهتهم، وأمـهلتهم ثانيا ليراجعوا خططهم وأهدافـهم، حتى لا يقدموا لمنازلته، وأمرُهم غـمة، وأمهلتهم ثالثا ليختاروا من الوقت ما يرونه مناسبـا لإنفاذ أمرهم. وقد أوجز الزمـخشرى هذا التحدى والاستهانة فى قوله: «فأجـمعوا ما تريدون من إهلاكى، واحتشدوا فيه، وابذلوا وسـعكم فى كيـدى، وإنما قال ذلك إظهـارا لقلـة مـبالاتـه، وثقـة بما وعده ربه، من كلاءته وعصمته إياه، وأنهم لـم يجدوا إليه سبيلا»[1].

ومما يمت إلى ذلك بسـبب قوله تعـالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥].

فانظر كيف تلاحم فعل المدّ، بما تضـمنه من طول المكان الممدود إليه السبب، مع طول الزمان المعبّر عنه بحرف التراخى، لتتعاون سعة الزمان والمكان فى إرخاء العنان لهذا المتبرم الخارج عن طاعة ربه، وتـتيحا له من هذا الفضاء الواسع ومن امتداد الزمن، ما يستنفد معه كل حيلة، ويسخر كل إمكاناته، فإنه لن ينتهى بعد كل هذا إلا إلى حتفه، ولن تخسر الدنيا بهلاكه شيئًا.

• **التلطف والمصانعة**

تشـعر «ثم» بإحكام الحـيلة، والمبالغـة فى الحذر، والتلطف فى الوصـول إلى الغرض، فى مـواضع عديدة من الذكر الحكيم، فـيبرز حرف المهلة دقـة الترتيب والاحتـيال فى البلوغ إلى الهـدف، وينزلهما منزلة طول الـزمن، لما أن مثل هذا الإحكام من شـأنه أن يحتـاج إلى طول الوقت. ومثـاله قوله تعـالى فى وصف المنافقين، وهم أكثر الناس قدرة على المخادعة والمداهنة ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٤٥.

فالمنافق بطبعه ينفر من كل دعوة إلى الحق، ويفر من تكاليف الوحى، فرار الحُمُر من الأسد، كما صوّره قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر:٤٩-٥١]، والآية التى معنا تكشف أثر نزول السورة من القرآن فى نفوس المنافقين، بما تَنم عنه أفعالهم وحركات جوارحهم، فهم يسترقون النظرات، ويتحيّنون الفرصة للانصراف حتى يتسللوا من بين الصفوف دون أن يشعر بهم أحد، فكان عطف الانصراف بحرف المهلة، إيذانا بالاحتيال والتلطف فى محاولتهم، ومخاتلة القوم، حتى لا يحسوا بانصرافهم، وهى بحساب الزمن لحظات خاطفة، لكنها بحساب الحذر المتوجس زمن طويل، فجسّد حرف التراخى هذه المداهنة، والمبالغة فى الحذر والتخفى، فى البعد الحسى المتمثل فى طول الزمن بين النظر والانصراف، وسواء فى ذلك أن يكون المراد الانصراف بالقلب عما دعوا إليه من الحق والهدى، أم انصرافا بالقالَب عن مجلس رسول الله الذى أنزلت فيه السورة. يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية: (إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ، «نظر بعضهم إلى بعض»، أى تلفتوا هل يراكم من أحد؟ «ثم انصرفوا» أى تولوا عن الحق، وانصرفوا عنه، وهذا حالهم فى الدنيا، لا يثبتون عند الحق، ولا يقبلونه، ولا يفهمونه، كقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١] وقوله تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: ٣٦، ٣٧])[1]: لاحظ كيف قرن الآية بموضعين، كل منهما ينطق بسرعة التولى والإعراض، كما فى تشبيههم بالحمر المذعورة تفرّ من الأسد، وكما فى التعبير «مهطعين». مما يدلك على أن المهلة هنا، أريد بها تحيّن الفرصة للتسلل فى غفلة من الجالسين.

ومما دلت فيه «ثم» على التلطف والمبالغة فى إحكام الحيلة، قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام، حين احتال على استبقاء أخيه بتسريقه، ودسّ الصواع

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٠٣.

فى وعائه، وإخراجه منه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦].

فلم يمض من الوقت بين التنقيب فى أوعية إخوته، والوعاء الذى دُسَّ فيه الصواع، ما يستوجب حرف المهملة، لكنه التطلف، والتمويه على المشاهدين، بتأخير البحث فى الوعاء المنشود، ومحاولة الانصراف عنه، لإظهار اليأس من وجود ما يبحثون عنه. كل هذه المصانعة والحذر من أن يتسرب الشك إلى نفوس الإخوة لو بدءوا به وتعجلوا استخراجه، هو الذى بسطه حرف المهلة، وأبرزه فى صورة زمن ممتد، ألا ترى كيف عدل النظم الكريم من أن يقول: أخرجها إلى «استخرجها» فأطالت هذه الزيادة فى الحروف زمن البحث، ومطَّته مبالغة فى إعمال الحيلة؟! هذا إلى جانب ما يصوره حرف المهلة من الخوف والترقب الذى كان يملأ نفوس إخوة يوسف، وهم يتابعون البحث فى أمتعتهم، انتظاراً لما يسفر عنه، فيضغط الزمن على نفوسهم، ويطول قصيره فى أعينهم.

وأحسب أن هذا هو السر فى قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩] فهؤلاء المحرّفون لصوص كلمة يتحيّنون الفرصة فى التخفّى، واستراق الأعين والعقول عند عرضها، وهذا هو الذى يومئ إليه حرف التراخى، معبراً بطول الزمن بين الكتابة بأيديهم، والزعم بأنه كلام الله، مع أنهما مقترنان فى الحقيقة عن الاحتيال، والمصانعة، وتزيين القول، وإحكام الحيلة، حتى لا ينكشف أمرهم، ويظهر باطلهم. فتُنزَّل المداهنة وخداع المشترى منزلة البعد الزمنى، للإشعار بإحكام الحيلة وإتقانها. ألا ترى إلى قوله تعالى يصف هذه المخادعة واستهواء الأسماع: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٨] وربما يكون هذا

الذى ذهبت إليه حملا للتراخى على الحقيقة أقرب من القول بالتراخى الرتبى الذى صرح به أبو السعود فى قوله: (و «ثم» للتراخى الرتبى، فإن نسبة المحرّف والتأويل الزائغ إلى الله سبحانه صريحا أشد شناعة من نفس التحريف والتأويل)[1] فإن هذا القول يجعل التحريف جناية، ونسبة المحرَّف إلى الله جناية أشنع، مع أنهما جناية واحدة ممتدة، لأن التحريف واقع فى كلام الله بداية، ولا يسمى تحريفًا مالم يكن منسوبا إلى الله، إنما التراخى فى إظهار ما حرّفوه، دليل على أنهم يتقنون الصنعة، ويدارون عوارها قبل ترويجها، ويتحينون الفرصة لتسويقها.

***

معانيها المجازية ومواقعها

• تحرير القول بالمجاز

إن أعظم مواقع «ثم» فى الكتاب الحكيم، ما جازت فيه معانيها الوضعية، إلى معان أخرى، تكسوها رداء الزمن، وتفيض عليها من البعد الحسى ما ينفخ فى روحها، ويملؤها حركة ونماء. وقد كان جار الله الزمخشرى أول من افتض عذرة معانيها المجازية، وأحس بأنفاس الزمن تسرى بين الأحداث المتواصلة، فتمطها، وتباعد بينها، لتبرز التفاوت فى الأوصاف والأحوال، وتجسّد أغراض الكلام ومراميه.

نعم. لقد سبقت الزمخشرى إشارات سريعة، ولمحات خاطفة، يمكن أن تكون قد مهّدت لما أسماه التراخى الرتبى، وأهمها -فيما عثرت عليه- قولُ الراغب الأصفهانى فى المفردات: («ثم» حرف عطف يقتضى تأخر ما بعده عما قبله، إما تأخيراً بالذات، أو بالمرتبة، أو بالوضع، حسبما ذكر فى قبلُ وفى أوّل)(١).

وما ذكره فى قبل، هو قوله: (قَبْلُ: يستعمل فى التقدم المتصل والمنفصل، ويضاده بعدُ... هذا فى الأصل، وإن كان يتجوز فى كل واحد منهما، فقبلُ يستعمل على أوجه، الأول فى المكان، بحسب الإضافة، فيقول الخارج من أصبهان إلى مكة: بغداد قبل الكوفة، ويقول الخارج من مكة إلى أصبهان: الكوفة قبل بغداد. والثانى فى الزمان، نحو: زمان عبد الملك قبل المنصور. قال: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: ٩١]. الثالث فى المنزلة، نحو: عبد الملك قبل الحجاج. الرابع فى الترتيب الصناعى، نحو: تعلُّم الهجاء قبل تعلُّم الخط)(٢).

---

(١) المفردات ١١.

(٢) المفردات ٣٩١.

فليس الترتيب والتراخى فى حرف المهلة، مقصورين على الترتيب والتراخى الزمانى، بل هناك ترتيب وتراخ فى المنزلة، وهو ما قال به الزمخشرى فى المواضع التى يستعصى فيها الترتيب الحقيقى، ثم إن الترتيب فى الرتبة ضرب من التجوز، على ما صرح به الراغب فيما ناظر به لحرف المهلة، من الظرف «قبلُ». وربما كانت مثل هذه الإشارة هى التى فجّرت عند الزمخشرى ينابيع المعانى المجازية، التى استخرجها لحرف التراخى.

توسّع جار الله فى التراخى المفهوم من حرف العطف، ليشمل به التباين فى الصفات، والتباعد فى الأحوال والمنازل، واستخرج من ذلك أسرارًا للإعجاز، لم يقع عليها قبله أحد.

● الفرق بين الاستبعاد والتراخى الرتبى

أدار الزمخشرى أمر المجاز فى «ثم» حول غرضين، فرّق بينهما بوعى ووضوح كاملين، وإن اختلطا على بعض من تابعه، فأفرغهما إفراغًا واحدًا، وهما الاستبعاد، والتراخى الرتبى.

ومفهوم الأول عنده: هو التباعد بين أمرين يمتنع ترتب ثانيهما على أولهما. ومفهوم الثانى: التفاوت بين المتعاطفين فى المنزلة، فيجعل المعطوف أرفع رتبة من المعطوف عليه، وليس بينهما من التناقض ما فى الاستبعاد.

وقد أحسن الدكتور أبو موسى تتبع الزمخشرى فى الموضعين سالفى الذكر، وميّز بينهما، حين قال: (أما «ثم» فإننا حين نتابع تحليله لمواقعها فى الكتاب العزيز يتضح لنا أصلان يرجع بمعنى «ثم» إليهما: الأول الاستبعاد، وذلك يكون إذا كان ما بعد «ثم» أمرًا مستبعد الوقوع بالنسبة لما قبلها، أو بعبارة أخرى: إذا كان ما قبل «ثم» من الأحداث والأفعال مهيئًا لعدم حصول ما بعدها...

الثانى بيان البعد بين الأمرين، وهذا غير الاستبعاد، إذ المراد أن الأمرين من جنس واحد، ولكن ما بعد «ثم» أعلى مرتبة فى هذا الجنس، وأبلغ مما قبلها،

فليس بين الأمرين منافاة، كما فى الاستبعاد، وإنما بينهما تفاوت، وهما من جنس واحد)[1].

هذه المنافاة بين المتعاطفين قائمة فى معظم ما ذكره الزمخشرى من الاستبعاد، وإن كان قد أطلقه نادراً على ما لا منافاة فيه بين الأمرين، كقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١١-١٤]. قال الزمخشرى: («ينجيه» عطف على «يفتدى»، أى يود لو يفتدى، ثم لو ينجيه الافتداء، أو من فى الأرض. وثُم لاستبعاد الإنجاء، يعنى: تمنى لو كان هؤلاء جميعًا تحت يده، وبذلهم فى فداء نفسه، ثم ينجيه ذلك. وهيهات أن ينجيه)[2].

فإن الاستبعاد هنا مفهوم من قرائن أخرى، لا من المنافاة بين الافتداء والإنجاء، إذ الشأن لو أن الافتداء قُبل لكان سبيلا إلى الإنجاء، ولكن لأمرين كليهما من المحالات، فلا هو يملك افتداء نفسه بمن ذكر من أقربائه وأهل الأرض جميعًا، ولا ذلك على فرض وقوعه بمنجيه.

المهم أن الحاجز الذى أقامه الزمخشرى بين الغرضين: الاستبعاد والتراخى الرتبى تهاوى عند البعض حتى لم يعودوا يفرقون بينهما، مما دعا قطب الدين التحتانى إلى التنبيه على هذا الخلط، عند قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٣، ٧٤] فذكر قول صاحب الكشاف: («ثم قست» استبعاد القسوة بعد ما ذكر ما يوجب لين القلوب ورقتها)[3] وعلق عليه بقول: (يعنى أن «ثُم» موضوعة للتراخى فى الزمان، ولا تراخى ههنا، إذ قسوة قلوبهم فى الحال، لا بعد زمان، فهى محمولة على الاستبعاد مجازاً، أى يبعد من العاقل قسوة القلب بعد ظهور تلك الآية العظيمة،

---

(١) البلاغة القرآنية ١٩٠.

(٢) الكشاف ٤/ ١٥٨.

(٣) الكشاف ١/ ٢٩٠.

كقولك لصاحبك: قد وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها. ومن الناظرين فى هذا الكتاب من حمل هذا الاستبعاد على التباعد فى المرتبة، وليس بذلك، فإن معناه أن مدخول «ثم» أعلى، كما فى قوله: «ثم استوى»[1]، والمراد ههنا أن مدخولها بعيد عن الوقوع)[2].

والغريب أن الشهاب الخفاجى وهو من الأئمة المدققين، يرفض أن يكون هناك فرق بين الاستبعاد والتفاوت الرتبى. فيقول فى تفسيره لهذه الآية: (وما ذكر من الفرق بين التفاوت فى الرتبة والاستبعاد ليس بشىء، لأنه بعد رتبى أيضًا، إلا أنه يعتبر فى الثانى العلو)[3] لكنه يقول فى موضع آخر: (والاستبعاد غير التفاوت الرتبى، بل عُدّ الشىء بعيدًا غير مناسب هنا لما عطف عليه، كما تقول: تسىء إلىَّ، ثم ترجو إحسانى، فتنزل البعد المعنوى منزلة البعد الزمانى)[4].

وهو -كما ترى- تناقض ظاهر، فهل عاد فى آخر حاشيته عما قاله فى أولها؟ أو أنه يقصد إلى البعد المعبر عنه بحرف المهلة بعد مجازى فيهما معا؟ ربما.

• الاستعارة بين معنى الحرف ومدخوله

للزمخشرى فى استعارة الحروف جهود رائدة، كان من ثمارها هذا الجدل الطويل، الذى نراه فى كتب البلاغيين حول إجراء الاستعارة فى معنى الحرف أو فى مدخوله، وكلا الفريقين يعتمد فى فهمه على نصوص من الكشاف، يدل ظاهر بعضها على إجرائها فى معنى الحرف، وظاهر بعضها الآخر على إجرائها فى مدخوله. يقول الدكتور أبو موسى: (أما الاستعارة فى الحرف فلم يلتفت إليها كثير من البلاغيين قبل الزمخشرى، وإن وجدت إشارات موجزة تومئ إليها فى كتب التفسير، وإذا كان البلاغيون متفقين على أن الاستعارة فى الأفعال والمشتقات تؤول إلى مصادرها، فإنهم اختلفوا فيما تؤول إليه الاستعارة فى

(١) يشير إلى قوله: «هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعًا ثم استوى إلى السماء» [البقرة:٢٩].

(٢) حاشية قطب الدين التحتانى على الكشاف ١/ ٢٤٠.

(٣) حاشية الشهاب ٢/ ١٨٦.   (٤) السابق ٨/ ٢٧٤.

الحرف، فقال السكاكي: إن الاستعارة في الحرف تابعة للاستعارة في متعلقه، وفسر المتعلق بقوله: «والمراد بمتعلقات الحروف، ما يعبر بها عنها، عند تفسير معانيها، مثل قولنا: «مِن» معناها الابتداء، و«في» معناها الظرفية.... وكان السكاكي يميل إلى تجريد الكليات، وهذه روح علمية مستقيمة، ولكن فاتها أن تدرك في هذا الموقف أن الذي يفهم من التعبير ليس هو ذلك التشبية والتصوير، الذي يجرى في المعانى التجريدية للحروف، وإنما هو تصوير يجرى في الأفق القريب لمدلول العبارة، فقولك: زيد في نعمة، تصوير للنعمة في صورة ظرف يحيط بزيد، ويغمره من جهاته، فيؤكد معنى فيوض النعمة التي هو فيها، والتي ملأت جوانب نفسه وحياته، ولهذا رأينا الخطيب وابن يعقوب يقرران أن الاستعارة في الحرف تابعة لتشبيه يجرى في مدخول الحرف، أي في مجروره...

وهذان الوجهان يمكن أن نرجع بهما معًا إلى كلام الزمخشري، فقد ذكر في بعض الصور ما يفيد أن التشبيه والاستعارة يجريان في مدخول الحرف، كما ذكر في غيرها أن الاستعارة تجرى في الحرف، وأنه مستعار كاستعارة الأسد للشجاع)[1].

وكأني بأستاذنا يقصر الحديث في هذا التحقيق على استعارة حروف الجر، بدليل قوله «في مدخول الحرف، أي مجروره» وهو رصد دقيق لكلام الكشاف، وفهم صحيح لمذهب السكاكي، لكن في إطار استعارة حروف الجر وحدها، أما فيما عداها، فإن السكاكي، خالف تطبيقُه تنظيرَه، فهو يقول عند التعقيد: (وفي الحروف متعلقات معانيها، فتقع الاستعارة هناك، ثم تسرى فيها، وأعنى بمتعلقات الحروف ما يعبر عند تفسيرها، مثل قولنا «مِنْ» معناها ابتداء الغاية، و«إلى» معناها انتهاء الغاية، و«كي» معناها الغرض..) إلى أن يقول: (وعلى هذا لا تستعير الحرف إلا بعد تقدير الاستعارة في متعلق معناه، فإذا أردت استعارة «لعل» لغير معناها قدرت الاستعارة في معنى الترجّي، ثم استعملت

(١) التصوير البياني ٢٢٣-٢٢٥ بتصرف.

هناك لعل)[1] لكنه عند التطبيق، وحين لا تظهر الاستعارة فى معنى الحرف يجريها في مدخول الحرف، فيقول: «فتشبه حال المكلف الممكّن من فعل الطاعة والمعصية، مع الإرادة منه أن يطيع باختياره، بحال المرتجى المخير بين أن يفعل وألا يفعل، ثم تستعير لجانب المشبه لعل، جاعلا قرينة الاستعارة علم العالم بالذّات، الذى لا تخفَى عليه خافية، يعلم ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، قائلا: خلق الله الخلق، لعلهم يعبدون، أو لعلهم يتقون، وعليه قول رب العزة علام الغيوب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]. ونظائره»[2].

هذا الكلام مستمد من الكشاف، وهو ظاهر فى إجراء الاستعارة في حال المشبه والمشبه به، لأن تشبيه الإرادة بالترجى مما لا يظهر معناه، ولا يتوصل إلى الغرض إلا إذا أجرى التشبيه فى حال مدخوله، وذلك ما نبه إليه السيد الشريف فى حاشيته على الكشاف، فقال: «وأيضا ليس تظهر المشابهة بين الإرادة والترجى إلا باعتبار حال متعلقهما، أعنى المكلف والمترجَّى منه، فذكر التشبيه بين حاليهما، لتظهر تلك المشابهة فى أن متعلق كل من الإرادة والترجى يترجح، أى يتردد بين أن يفعل، وألا يفعل، مع رجحان جانب الفعل»[3]. وهذا هو الذى كان يحكم الزمخشرى، فيجرى الاستعارة فيما يرى أنه يبرز الغرض المسوق له الكلام، سواء كان متعلق معنى الحرف أم مدخوله.

أما فى استعارة حرف التراخى للدلالة على التباعد فى الأحوال والمراتب، فإن الزمخشرى كان يجرى الاستعارة فى معنى الحرف، فى كل ما صرح فيه بالتجوز، لوضوح المشابهة بين المعنيين: الحقيقي والمجازى، ففى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥- ٤٦].

---

(١) مفتاح العلوم ٢٠٩

(٢) السابق ٢١٠

(٣) حاشية السيد على الكشاف ١/ ٢٣١

يقول صاحب الكشاف: «فإن قلت: ثم في هذين الموضعين كيف موقعها؟ قلت: موقعها لبيان تفاضل الأمور الثلاثة، فإن الثاني أعظم من الأول، والثالث أعظم منهما، تشبيها لتباعد ما بينهما في الفضل، بتباعد ما بين الحوادث في الوقت»(١). وهو واضح في أنه يجري الاستعارة في معنى حرف المهلة، تجوزا بالتباعد في الزمان عن التباعد في الفضل. ويقول في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣]، «ثم» للتراخي في الوقت، فاستعيرت للتراخي في الأحوال، والمعنى: أن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم، وإنما يعتدُّ الله بالمنافع الدينية. قال سبحانه: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧]. وأعظم هذه المنافع، وأبعدها شوطا في النفع «محلها إلى البيت العتيق»(٢).

أولا: مجاز الاستبعاد

دلالة «ثم» على الاستبعاد دلالة مجازية، يشبه فيها البعد المعنوي بالبعد الحسي، المقدر بالزمن، وهو لا يقع إلا في عطف الجمل، لأن المستبعَد هو وقوع مضمون الجملة المعطوفة. بالنظر إلى ما عطفت عليه، ولا يتصور ذلك في عطف المفردات، لأن المتعاطفات فيها معمولات لفعل واحد، ولا تباعد مع اتحاد العامل. يقول الشريف الرضي: «وقد تجيء في الجمل خاصة لاستبعاد مضمون مابعدها عن مضمون ماقبلها، وعدم مناسبته له، كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤]. وكقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، فالإشراك بخالق السموات والأرض مستبعد غير مناسب، وهذا المعنى فرع التراخي ومجازه»(٣).

ويلاحظ أن الرضي يطلق الاستبعاد على ما يشمل التراخي الرتبي، كغيره ممن يخلط بينهما، بعد أن ميّز بينهما الزمخشري تمييزا دقيقا. ولكي تعرف مدى ثراء

---

(١) الكشاف ٣/ ٩٤ (٢) الكشاف ٣/ ١٤

(٣) شرح الكافية ٢/ ٣٦٧

حرف المهلة فى مواقعه من الذكر الحكيم فاعرف أنها لم ترد فيه عاطفة لاسم مفرد على اسم مفرد، وهو العطف الملازم للحقيقة. وذلك ما أحصاه أستاذنا الشيخ عضيمة -رحمه الله- حين قال: (جاءت «ثم» فى (٣٣٠) موضعا فى القرآن الكريم، وجاءت فى هذه المواضع عاطفة للجملة، وللفعل المنصوب، والمجزوم، وللجار والمجرور، فلم تقع فى القرآن عاطفة اسما مفردا على اسم مفرد)(١).

وإذا كان الشيخ قد سها فى عَدِّه عن خمسة مواضع، زيدت فى معجم الأدوات والضمائر فى القرآن الكريم(٢)، فإنه كان أكثر دقة فى رصده لنوع ما عطف بها. وحين تكون جميع هذه المواضع من عطف الجمل أو الأفعال، فإن ذلك ينبئك عن تكاثف دلالاتها، وتزاحم أسرارها. وخاصة فيما حفت به من ضروب المجاز وهو كثير فى الذكر الحكيم.

والاستبعاد -فيما قرره رجالات البيان- هو ما يحكم العقل والطبع والعادة ببعد وقوع المعطوف، واستحالة ترتبه على ما شأنه أن يمنع وقوعه، فيشبه بعد الوقوع بالبعد الزمانى، لما أن الزمن أقرب إلى الحس، وأقدر على تجسيد التناقض بين المتعاطفين.

• أغراض الاستبعاد

الاستبعاد ضربان: تكذيبى وتوبيخى

الأول: الاستبعاد التكذيبى ويكون فيما لم يقع من الأفعال المستبعدة، لإنكار وقوعه، وتوبيخ من يدعيه، أو يتوهم إمكانه، بما يبرزه من تناقض بين المقدمة والنتيجة، فيكون بمثابة دليل على سفه المدعى وغفلته، وغياب وعيه، كما تراه فى قوله تعالى ردا على عبدة المسيح عليه السلام: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

---

(١) دراسات لأسلوب القرآن ق١ ج٢/١٠٢.

(٢) معجم الأدوات والضمائر ٢٢٢.

فقد حشد النظم الحكيم فى المقدمة من الأسباب ما يستحيل معه فى حكم العقول والطباع أن ينتج ما ادعوه من ربوبية المسيح، فهو بشر، والبشرية تناقض الألوهية، وهو يتقلب فى نعم الله تعالى التى يستحيل معها التمرد على المنعم، وما أوتيه من الكتاب شاهد على من أرسله، والنبوة رسالة، ولن يكون الرسول إلها، ثم إن الله وهبه من الحكمة ما لا يقع معه فى هذا الجهل الذى نسبوه إليه. فكان المجىء بثم بين نتيجة ومقدمات تتعارض معها، تجسيدا لهذا البعد والمفارقة، وهى بما تشيعه من حقيقتها، الدالة على البعد الزمنى تبرز إحالة تلاقيهما، كما يستحيل أن يتلاقى من تفصل بينهم الأزمان المطاولة. وفى هذا الاستبعاد تسفيه وتجهيل لمن ادعى ربوبية المسيح، وإظهاره بمظهر من يدعى الجمع بين المتناقضات.

وقد ذهب أبو حيان إلى أن الغرض من دخول حرف المهلة هنا تعظيم القول، وهو غرض من البلاغة صحيح، غير أن جعله ملزوم دلالة التراخى الحقيقى مما لا نسلم به. يقول أبو حيان: (أتى بلفظ «ثم» التى هى للمهلة تعظيما لهذا القول، وإذا انتفى هذا القول بعد المهلة كان انتفاؤه بدونها أولى وأحرى، أى أن هذا الإيتاء العظيم لا يجامع هذا القول، وإن كان بعد مهلة من هذا الإنعام العظيم)[1].

فلا أحسب أن هذه الأولوية تنسحب على نبى كريم أنعم الله عليه بنعم هى غضّة طرية لايجف نداها، بل تنمو وتتكاثر، ولا تضعف بتقادم العهد، كإيتاء الكتاب والحكم والنبوة، فليس آخرها بأضعف من أولها حتى يقال: إذا لم يقل ذلك بعد مهلة، فإن عدم القول على الفور أولى، فربما يكون ذلك صحيحا لو كان الإنعام بمال أو جاه، أو غيرهما مما شأنه أن يكون طول العهد من مظان نسيانه وإضعاف أثره.

ومن هذا الضرب فى الاستبعاد لإنكار وقوع ما يتوهم وقوعه، قوله تعالى: ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾

---

(١) البحر المحيط ٢/ ٥٠٤.

وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ﴾
[المعارج: ١١- ١٥]

فقد أبرزت «ثم» البون الشاسع بين الأوهام والواقع، وجسّدت بُعد نجاة المجرم بعد أن أتى من ألوان الكفر ما استوجب معه أشد العذاب، وقد مهد القرآن لهذه النتيجة المؤلمة بألوان من المبالغة، حيث علقها على محال، وهو افتداء النفس بأعز ما يملك من الأهل والأقربين ومن فى الأرض جميعا، وهى محالات ساقها يلو الامتناعية، وبالغ فى الامتناع والبعد بحرف المهلة، على فرض تحقق المحال الأول، وكأنه يقول له: حتى لو تحقق لك هذا المحال، وهو أن تقدم أهل الأرض جميعا فداء لك، وعتقا من النار، فإن ذلك لن ينجيك، ثم دل على ذهوله وفقدان وعيه حين قدم فى الفداء أحب الناس إليه وهم بنوه، وشأن الأسوياء وأصحاب العقول أن تكون أغلى الأشياء عندهم وأنفسها هي آخر ما يضحون به، لكنه هنا عكس الأمر، فإن أول من يضحى به هم أعز الناس إليه، مما يصور شدة هلعه حين رأى العذاب.

المهم أن المستبعَد هنا وهو الإنجاء أمر لم يقع، والاستبعاد لإنكار توهم وقوعه، وتوبيخ المجرم وتسفيهه على تمنى ما لا يمكن فى العقل والعدل حدوثه. لذلك كان الرد عليه بأداة الردع والزجر «كلا إنها لظى».

وقريب من ذلك تمني الوليد بن المغيرة ما لا يكون فيما قصه الله تعالى عنه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١١- ١٦]. فليس الطمع فى ذاته هو المستبعد، لأن الشأن في الإنسان أنه نهِم لا يشبع، وأن حبه للدنيا وزينتها لا يقف عند حد، حتى قيل: إن المال كالماء المالح، كلما شربت منه ازددت عطشا، وإنما المستبعد أن يطمع فى زيادة الله له وهو على هذه الحال من الكفر بمن يستزيده، وهو ما اقتضى ردعه وزجره عما طمع فيه «كلا إنه كان لآياتنا عنيدا»، فكان هذا العناد والكفران هو علة الاستبعاد، وإنكار طمعه

فيما لا يكون فدلت «ثم» على استبعاد وقوع ما طمع فيه بعد أن أتى من الاستكبار والعناد ما أغلق دونه أبواب رحمة الله.

الضرب الثاني: الاستبعاد التوبيخي

هو أكثر مواقع الاستبعاد في القرآن، وغرضه استنكار وقوع الفعل، والتعجب منه، وتوبيخ فاعله عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١] فإن اتخاذ بني إسرائيل العجل إلها لم يتراخ زمنه عن ذهاب موسى لميقات ربه، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٣ - ٨٥]. فما كاد موسى يتركهم للقاء ربه حتى أسرعوا إلى العجل الذى أخرجه لهم السامرى فعبدوه، فالتراخى فى حرف المهلة ليس حقيقيا، وإنما هو مجاز عن استبعاد العقل وقوع عبادة العجل، من قوم فضّلهم الله وكرّمهم، وأفاض عليهم من نعمه ما يستوجب الشكر، وآخرها تكريمهم بمواعدة موسى، لمناجاته وإلقاء التوراة عليه، وهو تشريف وتكريم لهم ولنبيهم، فالإعراض عن المنعم ولما يجف أثر نعمته فى أيديهم، مما يستبعده العقل وينفر منه أصحاب الفطرة السليمة، فكيف بمن لم يكتفوا بالإعراض حتى عبدوا العجل من دونه؟ أهناك بُعْد أعظم مما بين تكريم الله لهم على هذا النحو الذى استدعى فيه نبيهم، ليغرقهم بفيض وحيه، ويشرفهم بنزول التوراة، وبين أوقح صورة للعبادة، وأخس مَثَل للمعبودات؟ أو يكون دون «ثم» أداة تصور هذا البعد وعمق التناقض بين جلال النعمة ووقاحة الكفران بها؟

وهل هناك قبح أشد من قبح بنى إسرائيل بعد أن يأخذ الله ميثاقهم ألا يسفكوا دماءهم، ويقروا بما عاهدوا الله عليه، ثم تراهم يقدمون على قتل أنفسهم ولما يزل صوت إقرارهم ترجع أصداءه الآفاق: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ

لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون (٨٤) ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم﴾ [البقرة: ٨٤- ٨٥].

فهل يمكن أن يترتب في العقل قتل وإخراج بعد معاهدة المرء ربه على أن مثله لن يكون، وهل يمكن تصور إنسان يجمع بين الإقبال على الله تعالى، ووضع يده في يده، وإظهار القناعة والرضا، بله الحماس ووفور الهمة، لإنجاز عهده، على ما يظهره شفع الميثاق بالإقرار والشهادة، وبين نقض العهد، وخفر الذمة؟

ذلك ماتشي به «ثم» حين تفرغ أعمالهم من الوعي، وتباعد بينهم وبين صنيع العقلاء، وتكشف التناقض بين أقوالهم وأفعالهم، حتى لكأنهم أشخاص آخرون، غير هؤلاء الذين أخذوا الميثاق، وأقروه، وشهدوا عليه، فجمعت لهم «ثم» بين معنيين: استبعاد حدوث ذلك في حكم العقل والعادة؟ وإبرازهم في صورة من تغيرت ذواتهم بتغير صفاتهم، المعنى الأول بطريق التجوز بالبعد الزمني عن البعد المعنوي، والثاني بحقيقة اقتضاء العطف للمغايرة، والإخبار عن الضمير «أنتم» باسم الإشارة «هؤلاء» وكأنه يقول لهم «أنتم قوم آخرون غير المقرين» للدلالة على أن الوصفين محال عقلا اجتماعهما في مخاطب واحد، وذلك ما كشف عنه جار الله الزمخشري في قوله: («ثم أنتم هؤلاء» استبعاد لما أسند إليهم من القتل، والإجلاء، والعدوان، بعد أخذ الميثاق منهم، وإقرارهم وشهادتهم. والمعنى: ثم أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون، يعني أنكم قوم آخرون، غير أولئك المقرين، تنزيلا لتغير الصفة منزلة تغير الذات، كما تقول: رجعت بغير الوجه الذي خرجت به)(١).

وانظر كيف يجسد حرف المهلة انتكاسة الفطرة، واختلال الفكر، وغرابة السلوك، حين يقر الإنسان بأن الله هو الخالق والمنعم، ثم يتجه بالعبادة إلى غيره، في قوله تعالى: ﴿فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين (٨٢) يعرفون نعمت الله

---

(١) الكشاف ١/ ٢٩٣.

ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣] فلو أنهم ينكرون وجود الله، ويجهلون نعمه، وينسبونها إلى معبوداتهم، لقلنا إنه ضلال العقل، وغيبة الوعي، أما أن يشهدوا لله بما أنعم عليهم، ويقروا بفضله، ثم يسجدوا لمن هو أثر من آثار خلقه، فذلك موطن العجب، وغاية القبح. فأبرزت ثم هذا التناقض بين العلم والسلوك الذى لا يستقيم فى منطق الأشياء.

ومما جاءت فيه للاستبعاد، وأشاعت معانى التعجب والتوبيخ، قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١- ٢].

فما أبعد أن يضع المرء الكفر موضع الشكر، ويقابل الإحسان بالإساءة وما أعجب أن يتمرد المخلوق على خالقه، ويتنكر لمن يده فى فمه تطعم وتسقى! ذلك ما ينشره حرف المهلة ويفيض من بعد الزمن روحا من استبعاد الفعل، والتعجب من وقوعه وتوبيخ فاعله. هذا التعجب والتوبيخ ملزوم الاستبعاد، وهو معنى مجازى فى «ثم»، لأن فعل ما يستبعده العقل، وينكره الطبع والعادة أمر غريب عجيب يستوجب استنكاره وتوبيخ فاعله، وليس التعجب من المعانى الوضعية لهذا الحرف، كما ذهب إليه أبو البقاء الكفوى فى قوله: (وقد يجىء بمعنى التعجب، نحو: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾)[1].

وذهب ابن عطية إلى أن التراخى فى الآية حقيقى، والغرض من إيثار حرفه على الواو الدلالة على قبح عدل المخلوق بالله، وتوبيخ العادلين، لأن المهلة الزمنية تتيح للعاقل أن يتبين آيات الخلق، ويستدل بها على الخالق، فإذا ما استبدل الكفر بالحمد بعد التروى والنظر، كان ذلك أقبح مما لو تعجل الكفران، لأنه جاء بعد تمام المعرفة، وهو وجه من البلاغة صحيح، لو أنهم لم يسارعوا إلى الكفر،

---

(١) الكليات ٢/١٢٦.

ويبادروا إلى الافتراء، يقول ابن عطية: («ثم» دالة على قبح فعل الذين كفروا، لأن المعنى أن خلقه السموات والأرض، وغيرهما قد تقرر وآياته قد سطعت، وإنعامه بذلك قد تبين، ثم بعد هذا كله عدلوا بربهم، فهذا كما تقول: يا فلان أعطيتك وأحسنت إليك، ثم تشتمني، أى بعد مهلة من وقوع هذا كله، ولو وقع العطف في هذا ونحوه بالواو لم يلزم التوبيخ كلزومه بثم)[1].

لقد أحسن ابن عطية بيان سر إيثار حرف المهلة على الواو، لأن التوبيخ معها ألزم وأعظم، لكن ذلك لا يلزم أن يكون التراخي حقيقيًا، لأن المعروف أن المشركين بادروا بالكفر، فور دعوتهم إلى عبادة ربهم، فكان لابد من تأويل البعد في معنى الحرف بالبعد المعنوى، كما أن البعد في قول القائل: «أحسنت إليك ثم تشتمني» هو بعد مجازى أيضًا، لأن التوبيخ والتعجب من الإساءة يتضاءل فيما لو وقعت هذه الإساءة بعد زمن طويل، إذ الشأن معه النسيان بخلاف ما إذا أساء إلى المحسن ولما يجفَّ ندى نعمته في يده، فإن القبح حينئذ أشد، فكان لابد من حمل ثُم على المجاز بالاستبعاد.

وقد جعلها الإمام ابن عاشور للتراخي الرتبي، ذاهبًا إلى أن المعطوف أعجب وأغرب مما عطف عليه، قال: (و«ثم» للتراخي الرتبي، الدال على أن ما بعدها يتضمن معنى من نوع ما قبله، وهو أهم في بابه، وذلك شأن «ثم» إذا وردت عاطفة جملة على أخرى، فإن عدول المشركين عن عبادة الله مع علمهم بأنه خالق الأشياء أمر غريب فيهم أعجب من علمهم بذلك... والخبر مستعمل في التعجيب على وجه الكناية، بقرينة موقع «ثم» ودلالة المضارع على التجدد)[2].

كون «ثم» هى التى أومأت إلى التعجيب من شأن العادلين لا جدال فيه، أما أنها للتراخي الرتبى فذلك ما لا نسلم به، لأن التراخي الرتبى لا يتناقض فيه المعطوف مع المعطوف عليه، بل يكون أرفع منه درجة، وها هنا يهيئ المعطوف عليه لعكس الفعل المعطوف، فلا تلاقى بينهما حتى يكون هناك تفاوت فى

(١) المحرر الوجيز ٣/٦ (٢) التحرير والتنوير ١٢٨/٧.

الدرجة، والعجيب بحق أن يقول الشيخ إن التراخي الرتبي هو الدال على أن ما بعدها يتضمن معنى من نوع ما قبله، فهل الكفر بالله تعالى والعدل به من نوع المعطوف عليه وهو ثبوت الحمد لخالق السموات والأرض؟!

ثم انظر كيف تصل «ثم» بالتعجيب حدا يستسقط عقول المتعجَّب من فعلهم في قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٤٣]

فالمحتكمون إلى رسول الله عليه السلام لا يؤمنون به، وهو واحد من العجائب، ولدى المحتكمين حكم في كتابهم الذي يدينون به، والعدول عنه إلى ما لا يؤمنون به عجب آخر، والتولي عمن احتكموا إليه بعد الحكم غاية العجب، كل ذلك بسطته «ثم» في هذا البعد الحسي المتجوز به عن استبعاد العقل ترتب النتيجة على مقدمات تتناقض معها، مما يعكس اختلال الفكر والسلوك لدى القوم.

ومن ذلك قوله تعالى توبيخا للمشركين، وتعجيبا من إدبارهم، وتبهيتهم رسول الله ﷺ بعد ما رأوا من المعجزات الموجبة للإيمان: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ⁽¹³⁾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٣- ١٤] ففي المعطوف عليه ما يستوجب الإقبال على الرسول والإيمان به. بعد أن أراهم من الآيات ما يقطع برسالته، وفي المعطوف إغراق في الكفر، وإبعاد في الضلال، حيث لم يكتفوا بالإعراض حتى بهتوه، ووصفوه بالافتراء والجنون. فباعدت «ثم» بين الأمرين، على ما يوجبه العقل والعدل، وجسّدت بهذا البعد الحسي غرابة ما ادعوه والتعجب من صنيعهم، وتوبيخهم على فعل ما كان ينبغي أن يكون.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ [المجادلة: ٨] يتصاعد حرف المهلة بالتعجيب من صنيع اليهود والمنافقين

بعد التعجب بالاستفهام، ليدل على غاية القبح فيما ارتكبوه من أفعال نهاهم الله تعالى عنها، وحذّرهم منها، فتمادوا ولجوا فيما نهوا عنه، من التناجي بالإثم والعدوان. وقد حفلت الآية بوسائل الإنكار والتوبيخ، بدءا من الاستفهام بصيغته الدالة على التعجب ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، واختيار فعل الرؤية، لفضحهم فيما ظنوا أنه بمنأى عن اكتشافه، فهو لم يسمع ما قالوه فحسب، بل رأى في أعينهم، ولمحات وجوههم آثار تغامزهم، والمجيء بالي الموحية بالبعد النفسي بين المخاطب والمتناجين تحقيرا لهم، وازدراء لفعلهم، وإيثار حرف المهلة لإبراز البعد والتناقص بين موجبات الانتهاء، ودواعي الإقلاع عن التناجي، وبين استكبارهم وإصرارهم على فعل ما نهوا عنه.

- **بين دلالة الحرف ومفهوم السياق**

فجّر أبو حيان قضية حول الدلالة على الاستبعاد، أهي مفادة من حرف المهلة، أم مفهومة من سياق الكلام؟ فقال في تفسير قوله تعالى ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

(قال الزمخشري: معنى ﴿ثُمَّ قَسَتْ﴾ استبعاد القسوة بعد ذكر ما يوجب لين القلوب ورقتها، ونحو: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾. انتهى. وهو يذكر عنه أن العطف بثم يقتضي الاستبعاد، ولذلك قيل عنه في قوله ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾. وهذا الاستبعاد لا يستفاد من العطف بثم، وإنما يستفاد من مجيء هذه الجمل، ووقوعها بعد ما تقدم مما لا يقتضي وقوعها، ولأن صدور هذا الخارق العظيم، الخارج عن مقدار البشر فيه من الاعتبارات والعظات ما يقتضي لين القلوب، والإنابة إلى الله تعالى، والتسليم لأقضيته، فصدر منهم غير ذلك من غلظ القلوب، وعدم انتفاعها بما شاهدت، والتعنت والتكذيب)[1].

وقال أيضا عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، بعد أن ذكر رأي ابن عطية والزمخشري في معنى «ثم»: (وهذا الذي ذهب إليه

(١) البحر المحيط ١/ ٢٦٢.

ابن عطية من أن «ثم» للتوبيخ، والزمخشرى من أن «ثم» للاستبعاد ليس بصحيح، لأن «ثم» لم توضع لذلك، وإنما التوبيخ والاستبعاد مفهوم من سياق الكلام، لا من مدلول «ثم» ولا أعلم أحداً من النحويين ذكر ذلك، بل «ثم» هذه للمهلة فى الزمان، وهى عاطفة جملة اسمية على جملة اسمية)[1].

وقبل أن نناقش أبا حيان فيما رآه، يجب أن ننوه بأن ابن عطية حين قال بدلالة «ثم» على التوبيخ لم يخرجها عن حقيقة معناها. بل إن دلالتها على المهلة عنده هى التى أفادت التوبيخ، لأن من يعدل بالله تعالى غيره بعد زمن من تأمل خلقه وظهور الأدلة على وحدانيته، أحق بالتوبيخ والتسفيه ممن لم يتح له مثل هذا الزمن، من النظر والاستبصار. وقد أثبتنا نص كلام ابن عطية آنفا[2].

وقول أبى حيان: «إن ثم لم توضع لذلك» كلام صحيح، وإن لم يؤد إلى ما قصد إليه. ذلك أننا لا نقول، ولا قال الزمخشرى وغيره ممن تابعوه وهم كثير: إن دلالة ثم على الاستبعاد دلالة وضعية، وإنما هى ضرب من التجوز بالبعد الزمانى عن البعد المعنوى.

أما كون الاستبعاد مفهوما من مضمون الكلام، لا من حرف المهلة، فذلك أمر يحتاج إلى مناقشة، وليس بالأمر السهل على ما هونه الشهاب فى قوله: (إن منهم من جعل الاستبعاد مأخوذا من الكلام لا مدلول ثم، والأمر فيه سهل)[3].

وسبب أهمية ما أثاره أبو حيان -فى نظرى- أن إسقاط دلالة الحرف على معناه المجازى، ونسبته إلى إشارات السياق، لا يختص بحرف المهلة وحده -إذا ما قلنا به- بل إنه يسرى إلى غيره من الحروف، حين تخرج عن دلالاتها الوضعية، كحروف الاستفهام وحروف الجر، بل إن ذلك ينسحب على أفعال الأمر والنهى

---

(١) البحر المحيط ٤/ ٦٩.

(٢) انظر ص ٢٠٠ من هذا الكتاب.

(٣) حاشية الشهاب ٢/ ١٨٦.

حين تفارق حقائقها. فإن قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] يدل فيه الأمر ﴿اعْمَلُوا﴾ على حقيقته من الطلب. وهذا الفعل نفسه وقع في قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠] دالا على التهديد والوعيد. وفي قوله عليه السلام: «لعل الله عز وجل اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم» دل الفعل عينه على التشريف والتكريم، وبذلك صرح ابن حجر العسقلاني فيما نقله عن القرطبي فقال: (وقد ظهر لي أن هذا الخطاب خطاب إكرام وتشريف، تضمن أن هؤلاء حصلت لهم حالة غفرت بها ذنوبهم السالفة)(١).

فالفعل «اعملوا» تكرر في الأمثلة الثلاثة، فدل على الطلب حقيقة في المثال الأول، وعلى التهديد مجازا في الثاني، وعلى كمال الرضا والتشريف تجوزا أيضا في الثالث، والناطق بذلك هو السياق والقرائن، فهل نقول إن هذه الدلالات ليست للأفعال وإنما هي مدلول الكلام الذي وقعت فيه؟

ثم إن النحاة الذين جعلوا الهمزة للاستفهام، وهو معناها الحقيقي، أثبتوا لها معاني مجازية، وهذه المعاني من نشر السياق كذلك، لأن الهمزة لم تتغير من حيث هي، وإنما الذي تغيّر هو سياقها، ومع ذلك نقول: إنها دلت على التوبيخ أو التقرير، أو الإنكار، وغير ذلك من معانيها العديدة، فهل يقال كذلك إن هذه المعاني وليدة مضمون الكلام، فإليه تنسب، والهمزة دالة على طلب الفهم على ما هي موضوعة له؟

إن هذا لم يقل به أحد من النحاة، فهذا الخليل بن أحمد في كتابه الجُمل في النحو، يقول في قوله تعالى: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل: ٦٧] (إن هذه الألف ألف التعجب، لأن الكفار لا تستفهم)(١)، ويقول في قوله تعالى: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] (فهذه ألف التقرير، وقد علم الله أن المسيح عليه السلام لم يقل للناس ما قالوا فيه)(٢) فما الذي تغير في هذه الألف، وهي الموضوعة للاستفهام

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٨/٥١٥. (٢) الجمل في النحو ٢٤٦.

لتكون بمعنى التعجب والتقرير؟ أليس السياق هو الذى نشر عليها هذه المعانى؟ فهل يمكن القول بأن الهمزة فيه للاستفهام، والتعجب أو التقرير دل عليه مفهوم الكلام؟

الفصل فى هذه القضية هو أن يقال: هل يمكن للتعجب أو التقرير المصاحبين للهمزة، أو الاستبعاد المصاحب لحرف المهلة، أن يؤدى بغير الهمزة وثم؟

فإن أمكن ذلك -وهو ليس بممكن- كان مدلول الكلام لا مدلول الحرف، وإن لم يمكن كان قطعا من دلالات الحرف.

إذا كان ابن عطية قد قرر أن التوبيخ فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ لازم لحرف المهلة، وأنه لو وقعت الواو موقعه لما دلت عليه دلالته، فإننا نقول فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٧٢- ٧٤] ماذا لو قيل: فقست قلوبكم. أو وقست قلوبكم أيكون ذلك دالا على الاستبعاد؟ إذا لم يكن -وهو بالقطع لا يكون- فإنه يتعين أن يكون الاستبعاد مدلول حرف المهلة، ويكون ذلك سر إيثاره على أخويه في موضعه.

ثم ها هنا ما هو أضعف لحجة أبى حيان، فقد نقل فى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [السجدة: ٢٢] من سورة السجدة قول الزمخشرى: «ثم للاستبعاد، والمعنى أن الإعراض عن آيات الله فى وضوحها، وإنارتها، وإرشادها إلى سواء السبيل، والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد فى العقل والعادة» ولم يعلق عليه[1] مما يدل على أنه ارتضاه معنى لحرف المهلة. وفيما أشبهه من النظم فى سورة الكهف، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧] وقد حلت فيه الفاء محل «ثم» لم يقل أبو حيان ولا غيره. إن مضمون الجملة دل على الاستبعاد مع اتحاد النظم فى الآيتين والمغايرة فى العاطف فحسب، فلو لم يكن الاستبعاد ملزوم

---

(١) ينظر البحر المحيط ٧/ ٢٠٤.

حرف المهلة، لقال أبو حيان بالاستبعاد كما قال فى آية السجدة، والكلام هو نفس الكلام.

نصل بذلك إلى القول بأن الاستبعاد معنى مجازى من معانى «ثم»، وإذا كان النحاة قبل أبى حيان لم يذكروه من معانيها، فلأنهم معنيون بإثبات المعانى الوضعية، أما المعانى المجازية فهى صناعة أهل البيان.

ولأهل البيان كلام دقيق فى دلالة الكلمة على معان تتولد من دلالاتها الأصيلة بمعونة القرائن. قال السكاكى فى أدوات الاستفهام، بعد أن أوضح حقائقها: (واعلم أن هذه الكلمات كثيرا ما يتولد منها أمثال ما سبق من المعانى، بمعونة قرائن الأحوال، فيقال: ما هذا؟ ومن هذا؟ لمجرد الاستخفاف والتحقير، ومالى؟ للتعجب)(١) ثم كشف عن القرائن الدالة على التعجب فى قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فقال: (ووجه تحقيق ذلك هو أن الكفار فى حين صدور الكفر منهم، لابد من أن يكونوا على إحدى الحالين: إما عالمين بالله، وإما جاهلين به، فلا ثالثة. فإذا قيل لهم: كيف تكفرون بالله؟ وقد علمت أن «كيف» للسؤال عن الحال، وللكفر مزيد اختصاص بالعلم بالصانع، وبالجهل به انساق إلى ذلك، فأفاد: أفى حال العلم بالله تكفرون، أم فى حال الجهل به؟ ثم إذا قيد ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ والحال حال علم بهذه القصة، وهى أن كنتم أمواتا فصرتم أحياء، وسيكون كذا وكذا صيّر الكفر أبعد شيء عن العاقل، فصار وجوده مظنة التعجب)(٢).

فالتعجب هنا وليد استبعاد وقوع الكفر ممن يعلم أن الله أحياه بعد موت، وسيميته ويحييه، وهى قرائن خروج الاستفهام عن حقيقته، وحين ينسب البلاغيون والنحاة التعجب إلى كلمة الاستفهام، فإنما ذلك لأنه لا يؤدى بغيرها، ودور القرائن هنا وفى كل تجوز الدلالة على خروج الكلمة عن حقيقتها، ولا ترقى إلى أن تكون هى مصدر المعنى المتجوز به.

---

(١) مفتاح العلوم ١٧٥.

(٢) مفتاح العلوم ١٧٥

ثانيًا: التجوز فى الترتيب

مما امتازت به «ثم» عن الواو، دلالتها على الترتيب، بحيث يقع المعطوف بها بعد المعطوف عليه. تلك حقيقة هذا الحرف كما أثبتها النحاة.

لكن كثيرًا من النصوص فى فصيح لسان العرب وردت فيها «ثم» عاطفة ما رتْبَته التقدم فى الوجود، فاختلفت فى تفسيرها أقوال النحاة، وتصارعت حولها مذاهبهم، يقول المالقى: (واختلف الكوفيون والبصريون من النحويين: هل تعطى رتبة أو لا تعطى؟ فذهب الكوفيون إلى عدم الترتيب. واحتجوا بقول الشاعر:

إن من ساد ثم ساد أبوه   ثم ساد قبل ذلك جدّه

والصحيح مذهب البصريين، بدليل استقراء كلام العرب، أنها لا تكون إلا مرتبة، وما احتج به الكوفيون لا حُجَّة فيه بوجهين: أحدهما: أنه قد يحتمل أن يسود الوالدان بسيادة الولد، والجد بسيادة الوالد، وهذا موجود حسا، فلا يلزم أن تكون سيادة أحدهم قبل الولد، والثانى: أن تكون سيادة الجد قبل الوالد، والوالد قبل الولد ولا يعلم المتكلم بالإخبار السيادةَ، فيخبر على نحو ما علم، لا على الأصل، وما احتمل لا حجة فيه)[1].

حاول المالقى إيجاد وجه للترتيب الوجودى بجعل منشأه السيادة من الولد، ثم سرت إلى الوالد، ومنه إلى الجد، كما قال ابن الرومى:

فكم أب علا بابن ذرا شرف   كما علت برسول الله عدنان

لكن يكدر على ذلك أمران: أولهما أن ذلك يخلُّ بكمال المدح، حيث يعرّى أصله من الشرف والسيادة بجعل الممدوح بداية المجد والسؤود. وثانيهما: قوله «قبل ذلك» فإنها تدل على أن الجدّ قد سبق إلى هذه السيادة. وبه رد المرادى على ابن عصفور حين حمل البيت على سبق الابن بالمجد، فقال: (وما ذكره ابن

(١) رصف المبانى ٢٥٠.

عصفور في تأويل البيت لا يساعد عليه قوله «قبل ذلك»)[1] أما الوجه الثاني الذي ذكره المالقي فهو الذي اصطلح على تسميته بالترتيب في الذكر، أو ترتيب الإخبار.

وما يمس البلاغة في قضية الترتب بثم، هو العدول عن حقيقة الترتيب إلى مجازه، وأسرار هذا التجوز.

وإذا كان المالقي يرى أن الداعي إلى المخالفة يتعلق بحال المتكلم الذي رتّب كلامه في البيت، وفقًا لترتيب المعاني في ذهنه، حيث سبقت في علمه سيادة الابن سيادة أبيه، وسيادة أبيه سيادة جده، فدل بهذا الترتيب على سبق العلم بالخبر، لا على سبق الخبر في ذاته، فإن السهيلي ذهب إلى أن عكس الترتيب غرضه الاهتمام بالمقدَّم، فكأن المتكلم رتب المتعاطفات على حسب أهميتها، لا على وفق ترتبها في الوجود. مثلما قدم الله الإهلاك على مجيء الناس في العطف بالفاء[2]، وهي مثل «ثم» في دلالتها على الترتيب في قوله تعالى: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا ﴾ [الأعراف: ٤].

وجعلها الرضي للتدرج والارتقاء، والبدء بما هو أخص، فقال: (وقد يجيء «ثم» لمجرد الترتيب في الذكر، والتدرج في درج الارتقاء، وذكر ما هو الأولى، ثم الأولى، من دون اعتبار التراخي، والبعد من تلك الدرج، ولا أن الثاني بعد الأول في الزمان، بل ربما يكون قبله، كما في قوله:

إن من ساد ثم ساد أبوه ... ثم ساد قبل ذلك جده

فالمقصود ترتيب درجات معالي الممدوح، فابتدأ بسيادة نفسه، ثم بسيادة أبيه، ثم بسيادة جده، لأن سيادة نفسه به أخص، ثم سيادة الأب، ثم سيادة الجد، وإن كانت سيادة الأب مقدمة في الزمان على سيادة نفسه)[3].

• العدول عن ترتيب المخبَر به إلى ترتيب الإخبار

الترتيب في الإخبار يعني أن مرتبة الإخبار الثاني بعد مرتبة الأول[4] والزمخشري يجعله تدرجًا وارتقاء إلى ما هو أشد وأعظم، فهو ترتيب رتبي،

(١) الجنى الداني ٤٢٩.
(٢) ينظر نتائج الفكر ٢٥٠.
(٣) شرح الكافية ٢/٣٦٧.
(٤) ينظر تقرير الشربيني على فيض الفتاح ٢/٣٠٦.

يكون المعطوف فيه أعلى درجة من المعطوف، وتستعار فيه «ثم» من الدلالة على الترتيب في الوجود إلى الترتيب في الدرجة والمنزلة، وحينئذ لابد أن يكون الإخبار الثاني أعظم من الإخبار الأول.

من هذا ما جاء تبشيراً للمؤمنين بأن اليهود لن يظهروا عليهم في حرب، وأن الخذلان حليفهم أبدًا، في قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١] فقد تضمن العطف في قوله ﴿ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾ مبالغتين: أولاهما دل عليها رفع الفعل «ينصرون» بدلاً من جزمه عطفًا على ما قبله، حتى لا يكون عدم نصرهم مشروطًا بمقاتلتهم. والثانية عطفه بثم دون الواو -وهو موقعها- لأن عدم نصرهم ليس متأخراً عما قبله. وفي ذلك إشعار بأن الإخبار بهذا الخذلان الدائم أعظم في البشارة مما عطف عليه، فكان تأخيره ترقيًا في الإخبار، وتعظيمًا للبشارة الثانية، وهذا ما أفاده الزمخشري (فإن قلت: هلا جزم المعطوف في قوله ﴿ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾؟ قلت: عدل عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء، كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. فإن قلت: فأي فرق بين رفعه وجزمه؟ قلت: لو جزم لكان نفي النصر مقيدًا بمقاتلتهم، كتولية الأدبار، وحين رفع كان النصر وعدًا مطلقًا، كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها، وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون، منتف عنهم النصر والقوة، لا ينهضون بعدها بجناح، ولا يستقيم لهم أمر، وكان كما أخبر عن حال قريظة، والنضير، وبني قينقاع، ويهود خيبر. فإن قلت: فما الذي عطف عليه هذا الخبر؟ قلت: جملة الشرط والجزاء، كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. فإن قلت: فما معنى التراخي في ثم؟ قلت: التراخي في المرتبة؛ لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليهم الأدبار)[1].

ويوضح ابن المنير هذا التراخي ونوع التجوز فيه تعليقًا على ما جاء في الكشاف، فيقول: (وهذا من الترقي في الوعد عما هو أدنى إلى ما هو أعلى،

---

(١) الكشاف ١/ ٤٥٥.

لأنهم وعدوا بتولية عدوهم الأدبار عند المقاتلة، ثم ترقى الوعد إلى ما هو أتم في النجاح معه من أن هؤلاء لا ينصرون مطلقًا، ويزيد هذا الترقى بدخول «ثم» دون الواو، فإنها تستعار ها هنا للتراخي في الرتبة، لا في الوجود، كأنه قال: ثم ها هنا ما هو أعلى في الامتنان، وأسمح في رتب الإحسان، وهو أن هؤلاء القوم لا ينصرون البتة)[1].

الترتيب في الإخبار إذًا ضرب من التجوز في معنى الحرف، يستعار فيه التراخي في الزمن للتراخي في المراتب. وهو خاص بحرف المهلة، وبه يمتاز على الواو، ولذلك أوثر عليها هنا، وفيما أشبهه من النظم الكريم.

على أن القول بالترتيب في الذكر أو ترتيب الإخبار، ليس مما اخترعه الزمخشري، بل سبقه إليه النحاة والمفسرون، وعللوا به كل موطن تخالف فيه «ثم» حقيقتها من الدلالة على الترتيب الوجودي، سواء أكان المعطوف سابقًا للمعطوف عليه، أم واقعًا معه في آن واحد.

ففي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] تقدم خلق الأرض على خلق السموات، مع أن خلق السموات أسبق، على ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧- ٣٠] فقوله ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ صريح في تأخر خلق الأرض عن خلق السموات. فقال ابن عطية: (وقوله تعالى: ﴿ثم استوى﴾ ثم هنا هي لترتيب الأخبار، لا لترتيب الأمر في نفسه)[2].

لكن الزمخشري أضفى عليه جدة وطرافة، حين جعله ضربًا من التجوز بالترتيب الزماني عن الترتيب في المنزلة، وكشف عن أسرار هذا التجوز في مواقعه من النظم الحكيم، وأغراض العدول عن ترتيب المعاني المخبر بها إلى ترتيب الإخبار بها. وإذا أردت أن تعرف الفرق في المعالجة بين الزمخشري ومن سبقوه، فقارن بين ما قاله ابن عطية في الآية السابقة، وبين قول الزمخشري:

---

(١) الإنصاف ١/ ٤٥٥.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ١٦٠.

(«ثم» ههنا لما بين الخلقين من التفاوت، وفضل خلق السموات على خلق الأرض، لا للتراخى فى الوقت)(١).

فتقديم السموات على الأصل من الترتيب الوجودى يضيع الغرض من الدلالة على الارتقاء فى الذكر، من خلق عظيم إلى خلق هو أعظم منه، وهو السر الذى من أجله استعيرت ثم للتراخى الرتبى.

والغريب، أن الرازى -وهو من رجالات البيان- وممن تابع الزمخشرى فى القول بدلالة «ثم» على التراخى فى المرتبة، كما صرح به فى أكثر من موطن فى تفسيره(٢) نجده يقول فى عطف الاستواء بحرف المهلة («ثم» ليس للترتيب ههنا، وإنما هو على جهة تعديد النعم، مثاله قول الرجل لغيره: أليس قد أعطيتك النعم العظيمة، ثم رفعت قدرك، ثم دفعت الخصوم عنك، ولعل بعض ما أخره فى الذكر قد تقدم، فكذا ههنا)(٣) فإن مثل هذا القول يجرد «ثم» من دلالتها على الترتيب، ويجعلها والواو سواء، ويعرّى إيثارها فى مثل هذا الموضع على الواو من الفائدة، ولو أن الرازى يقول بمثل ذلك فى كل موضع وقعت فيه لكان أعذر له، أما أن يجعلها للترتيب حينًا، وينزع عنها هذه الدلالة حينًا آخر، فلا عذر له فيه. وقديمًا نعى الإمام عبد القاهر على من يقول بإفادة التقديم حينًا، وعدم إفادته حينًا آخر، فقال: (واعلم أن من الخطأ أن يقسم الأمر فى تقديم الشىء وتأخيره قسمين، فيجعل مفيدًا فى بعض الكلام، وغير مفيد فى بعض، وأن يعلل تارة بالعناية، وبأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب، حتى تطرد لهذا قوافيه، ولذلك سجعه، ذاك لأن من البعيد أن يكون فى جملة النظم ما يدل تارة ولا يدل أخرى)(٤) وهذا عين ما وقع فيه الرازى حين يوجب تقدم المعطوف عليه بثم فى موضع، ويجيز تأخيره فى موضع آخر.

وقد سبق ابن عطية إلى مثل هذا القول فى تعليل عطف الإفاضة الثانية بثم فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ

---

(١) الكشاف ١/ ٢٧١.

(٢) ينظر تفسير الرازى ٦/ ١٩٩.

(٣) السابق ٢/ ١٧٠.

(٤) دلائل الإعجاز ١١٠.

﴿كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٨- ١٩٩] قال ابن عطية: (المخاطب بهذه الآية قريش ومن ولدت من الحمس، وذلك أنهم كانوا يقولون: نحن قطين الله، فينبغى أن نعظم الحرم، ولا نعظم شيئًا من الحل، فسنّوا شق الثياب فى الطواف إلى غير ذلك، وكانوا مع معرفتهم وإقرارهم أن عرفة هو موقف إبراهيم لا يخرجون من الحرم، ويقفون بجَمْع، ويفيضون منه، ويقف الناس بعرفة، فقيل لهم أن يفيضوا مع الجملة، و«ثم» ليست فى هذه الآية للترتيب، إنما هى لعطف جملة كلام على جملة منها منقطعة)(١).

اندفع ابن عطية إلى سلب الترتيب من حرف العطف، لأن المعطوف عليه، وهو قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ ليس مما يسبق المعطوف، بل هما إفاضة واحدة، خوطب بالأولى عامة الناس، وبالثانية، قريش، فالترتيب الزمنى لا محل له، والقول بانقطاع الكلام قصد به أن «ثم» للاستئناف، وليست عاطفة لفعل على فعل، وإنما هى عاطفة لجملة كلام على جملة كلام آخر. ومثل هذا القول لا يَقنع به أهل البيان، لأنه لا يكشف عن سر العطف بحرف المهلة مع إمكان تأدية هذا العطف بالواو.

وفى جواب الزمخشرى يظهر سر المغايرة بين الإفاضتين، وسر إيثار حرف التراخى، لأن إيجاب المساواة بين قريش وعامة الناس، فى المكان الذى تبدأ به الإفاضة، أومأ إلى أن اختصاص قريش نفسها بالإفاضة من المزدلفة، دون عامة الناس الذين يفيضون من عرفات، ضرب من المخالفة فى النسك، فألمحت «ثم» إلى ما بين إفاضة صحيحة وأخرى باطلة. يقول الزمخشرى: (فإن قلت: كيف موقع «ثم»؟ قلت: نحو موقعها فى قولك: أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلى غير كريم، تأتى بثم لتفاوت ما بين الإحسان إلى الكريم، والإحسان إلى غيره وبعد ما بينهما، فكذلك حين أمرهم بالذكر عند الإفاضة

---

(١) المحرر الوجيز ٢/١٥٩.

من عرفـات. قال «ثم أفيضـوا» لتفاوت مـا بين الإفاضـتين، وأن إحـداهما صواب، والثانية خطأ)[1].

أصاب الزمخشرى هدفين بـسهم واحد، فدل على نكتة العطف فيما يبدو كما لو كان من عطف الشىء على نفسه، وعلى إيثار «ثم» على الواو فهو من عطف الخاص على العام أو من عطف المقيـد على المطلق، والغرض من حرف التراخى الدلالـة على التفاوت بين المتعاطفـين، قياسًا على قولك: أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلى غير كـريم، وقد فصل ابن المنير ما أجمله الزمخشـرى فقال: (وقد اشتملت الآية على نكتـين: إحداهمـا عطف الإفاضتين، إحداهما على الأخرى ومرجـعهما واحـد، وهو الإفاضة المأمور بهـا، فربما يتوهم متوهم أنه من باب عطف الشىء على نفسـه، فيزال هذا الوهم بأن بينهـما من التغاير مـا بين العام والخاص، والمخبر عنه أولاً الإفاضة من حيث هى غـير مقيدة، والمأمور به ثانيًا: الإفاضة مخصوصة بمساواة الناس، والثانية بعد وضوح استقامة العطف كونه وقع بحرف المهلة، وذلك يستدعى التراخى مضـافًا إلى التغاير، وليس بيـن الإفاضة المطلقة والمقيدة تراخ، فالجواب غير ذلك أن التراخى كما يكون باعتبار الزمان قد يكون باعتبار علو المرتبة، وبُعدها فى العلو بالنسبة إلى غيرها، وهو الذى أجاب به بعد مزيد تنشيط وإيضاح)[2].

غير أن قول الزمخشرى: «أن إحداهما صواب والثانية خطأ» يجعل قياس الآية على قولك: «أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلى غير كريم» قـياسًا غير صحيح، لأن الأول يتناقض فـيه المعطوف مع المعـطوف عليـه تناقض الصـواب والخطأ، والثانى فـيه تفـاوت فى درجة الاحـسان. ولعل الزمخـشرى قـصد التـشابه فى التـفاوت والبـعد، وفى كـونهمـا من عطف الخاص على العـام، وفى التـجوز بالتـرتيب الزمانى عن التـرتيب الرتبى، وهى وجـوه من المشابهـة تكفى لصـحة التشبيه، وليس المراد مطابقة المثـال للآية. ولعلنى بذلك أدفع اعتراض أبى حيان

(١) الكشاف ١/٣٤٩.

(٢) الإنصاف ١/٣٤٩.

فى قولـه: (وليست الآية كالمثال الذى مثله. وحاصل ما ذكـر أن «ثم» تسلب الترتيب، وأنها لمعنى غيره سماه بالتفاوت والبعد لما بعدها مما قبلها)[1].

والحق أن الزمخشرى لم يسلب «ثم» معناها من الترتيب، وإنما استعار دلالتها على الترتيب الوجودى للترتيب المعنوى.

ومما ثار حول الترتيب فيه جدل طويل، قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣- ١٥٥].

فإن إيتاء موسى الكتاب سـابق على ما وصى الله تعالى به فى القرآن، فذهب البـعض إلى أنه عطف على قـوله فى نهـاية قصـة إبراهيم ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [الأنعام: ٨٤] فكأنه من عطف القـصة على القصـة، ولكن الفاصل الطويل الذى يبلغ سـبعـين آية يضعف هذا القـول. وقال آخـرون: إن ثم بمعنى الواو لا تفيد ترتيبًا، وقد استسـقطنا مثل هذا القول من قبل، وقيل إنها للترتيب الإخبارى[2]. وقال الزجاج: (فأما دخول «ثم» فى قوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا﴾ وقد علمنا أن ثم لا يكون الذى بعدها أبدا معناه التقديم، وقد علمنا أن القرآن أنزل من بعد موسى، وبـعد التوراة. فـقال: «ثم آتينا مـوسى الكتاب» فـإنما دخلت «ثم» فى العطف على التـلاوة، والمعنى: (**قل تعـالوا أتل ما حـرم ربكم عليكم، أتل عليكم ألا تقتلوا أولادكم، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله، ثم أتلوا ما آتاه الله موسى**)[3].

وهـو كمـا ترى لا يعـدو أن يكون بحـثًا عن وجه لصحـة معنى الترتيب، ولا يظهر وجه إيثار «ثم» فيما هو موضع الواو.

وقد جعل صاحب التحرير والتنوير ذكر إيتاء موسى الكتاب تمهيدًا لذكر إنزال القرآن، فيكون مجموعهـما أعظم درجة من المعطوف، وثم للترتيب الرتبى، قال

---

(١) البحر المحيط ٢/ ٦٩.
(٢) ينظر روح المعانى ٨/ ٥٩.
(٣) معانى القرآن وإعرابه ٢/ ٣٣٦.

ابن عاشور بعد أن ذكر أقوال السابقين: (والوجه عندى أن «ثم» ما فارقت المعروف من إفادة التراخى الرتبى، وأن تراخى رتبة إيتاء موسى عليه السلام الكتاب عن تلاوة ما حرم الله في القرآن، وما أمر به من ملازمة صراط الإسلام، إنما يظهر بعد النظر إلى المقصود من نظم الكلام، فإن المقصود من ذكر إيتاء موسى عليه السلام الكتاب ليس لذاته، بل هو التمهيد لقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ ليرتب عليه قوله ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ إلى قوله ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ فمعنى الكلام: وفوق ذلك فهذا كتاب أنزلناه مبارك، جمع فيه ما أوتيه موسى عليه السلام، وهو أعظم مما أوتيه الأنبياء من قبله، وما فى القرآن الذى هو مصدق لما بين يديه ومهيمن عليه)[1].

وهذا الوجه مستمد من كلام الزمخشرى، وإن بدا من قوله «والوجه عندى» أنه مما افترعه، وهو لا يختلف فى مضمونه عما جاء فى الكشاف وإن اختلفا شكلاً فى المعطوف عليه، فهو عند الزمخشرى «ذلكم وصاكم به» وعند ابن عاشور: «قل تعالوا» ومضمون ما دُعوا إليه يستجمعه اسم الإشارة «ذلكم» وإليك نص الكشاف (فإن قلت: «كيف صح عطفه عليه بثم، والإيتاء قبل التوصية بدهر طويل؟ قلت: هذه التوصية قديمة، لم تزل توصاها كل أمة على لسان نبيهم، كما قال ابن عباس رضى الله عنهما: «محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب» فكأنه قيل: (ذلكم وصاكم به يا بني آدم قديمًا وحديثًا، ثم أعظم من ذلك، أنا آتينا موسى الكتاب، وأنزلنا هذا الكتاب المبارك)[2].

والعَلَمُ فيما عكس فيه الترتيب إيماءً إلى تعظيم المؤخر قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١١ - ١٧].

---

(١) التحرير والتنوير ق ج٢ ١٧٥.

(٢) الكشاف ٢/ ٦٢.

فمن الثابت أن أعمال البرّ من عتق وصدقة وغيرهما لا يدعى إليها إلا من آمن، فتقديمها على الإيمان، وعطفه عليها بحرف التراخي ضرب من التجوز في الترتيب، قصد به الترقي من أعمال الجوارح الظاهرة إلى عمل القلوب وهو الإيمان، إشارة إلى أن الله لا يعتد بعمل صالح ما لم يكن باعثه إيمان صادق، ونيّة تخلص هذا العمل لوجه الله الكريم. لذلك أبطل الله أعمال البر إذا ما قارنها الرياء، وجعلها كأعمال الكفار، الذين لا يقبل الله منهم صرفًا ولا عدلاً ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤] وهذا ما صرح به الزمخشري كشفًا عن سر مخالفة الظاهر في الترتيب. فقال: (جاء بثم لتراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة، لافي الوقت، لأن الإيمان هو السابق المقدّم على غيره، ولا يثبت عمل صالح إلا به)[١].

وللدكتورة بنت الشاطئ في تقديم فك الرقبة والإطعام رأى، تنحو به منحى التركيز على المقدّم والاهتمام به، وبيان قوة أثره في تحقق الإيمان، فإذا ما ضعف الشعور بالأخوة الإنسانية، وانعدمت الدوافع النبيلة، لفك العاني وإطعام الجائع، فلا قيمة لهذا الإيمان، فبين المتعاطفين من التلازم ما لا تصح معه المباعدة التي ترمز إلى التفاوت في الدرجة. تقول بنت الشاطئ: (عَطْف الإيمان بثم على ما قبله يبيح لنا أن نفهم أن تحقيق الكرامة الإنسانية بفك الرقبة، والعدالة الاجتماعية بإطعام يتيم ذي مقربة، أو مسكين ذي متربة، لازمان للإيمان وما بعده، من تواص بالصبر والمرحمة. الإنسان لا يكون مؤمنًا ما لم يكن له من نفسه وازع يرده عن الطغيان، ويلزمه حده، فلا يسترقّ بشرًا مثله، ولا يتجاهل حق يتيم ومسكين. وأنّى للإنسان أن يؤمن بوجود إله خالق قادر عليم، ما لم يتحرر أولاً من غرور جاهه وقوته وثرائه، ذلك الغرور الذي يعطل شعوره نحو

---

(١) الكشاف ٤/٢٥٧.

أخيه الإنسان، ويجعله يحسب أن لم يره أحد، ولن يقدر عليه أحد، فالإيمان بالله نعمة لا تتاح لقساة القلوب، غلاظ الأكباد، عُمْيِ البصائر لا يميزون بين الخير والشر. كل هذا مما يعطيه سبق فك الرقبة والإطعام، على الإيمان الذى جاء معطوفًا عليهما بلفظ «ثم». لكن المفسرين عطّلوا هذا الملحظ الجليل، بل عسكوا الوضع، فجعلوا «ثم» مقصوداً بها إبعاد الإيمان عن فك رقبة، وإطعام يتيم أو مسكين، فلا يكون الإيمان معهما فى مرتبة واحدة)[1].

ومع ما يبدو فى هذا التفسير من وجاهة فى التعليل لتقدم المعطوف عليه، فإنه يتغاضى عن بيان السر فى إيثار حرف المهلة، حيث كان العطف بالواو مؤديا إلى ما ذَهَبَتْ إليه. وإغفال الفروق بين معانى الحروف يذهب بأسرار النظم.

ولعلى أرى عكس ما قالت، ذلك أن حرف التراخي بما أومأ إليه من التباعد الرتبى بين المتعاطفين، ينبه إلى وجوب أن تجرد هذه الأعمال من التظاهر، وابتغاء المجد والجاه بها، فإن وراءها مرتبة أعظم، حين يكون الإيمان هو الذى يشيع الفضائل النفسية، ويشكل السلوك والدوافع النبيلة، لذلك جعل التفاضل بالإيمان مقرونا بالتواصى بالصبر والرحمة، وهما من الفضائل النفسية التى يكون فك الرقبة والإطعام من آثارها. وهذا ما أحسن التعبير عنه صاحب الظلال حين قال: (فالإيمان مفروض وقوعه قبل فك الرقاب وإطعام الطعام، وهو الذى يجعل للعمل الصالح وزنا فى ميزان الله، لأنه يصله بمنهاج ثابت مطرد، فلا يكون الخير فلتة عارضة ترضيه، كمزاج متقلب، أو ابتغاء مَحْمَدة من البيئة أو مصلحة، وكأنما قال: (فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيمًا ذا مقربة أو مسكينًا ذا متربة، وفوق ذلك كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة)[2].

ومن المواطن التى تبدو فيها مخالفة الأصل فى الترتيب، قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] ذلك أن خلق آدم كان بهذه الكلمة، وهى فى تصور العقل

(١) التفسير البيانى للقرآن الكريم ١/ ١٨٨.

(٢) فى ظلال القرآن ٦/ ٣٩١٣.

أسبق فى الوجـود، لأن الخلق متـرتب على أمر التكوين، وإن كـانا فى الحقيـقة يقعان فى آن، لأن أمر التكوين هو تعلق القدرة بتنجيز ما تعلقت به إرادته سبحانه وتعالى، وعلى أية حـال فليس الخلق بأسبق وجـودًا من الأمر بكَوْنه، فتـعين أن يكون التـرتيب مـجازيـًا، إشـارة إلى أن المعطوف أدل على قـدرة الله، وأعظم مما عطف عليه، فـإذا كان خلق آدم من تـراب عظيمـًا، فإن أعظـم منه أن يوجـد هذا الخـلق العظيم بالكلمة، لا بالمعالجة والصناعة، وليس ثمة ضرورة إلى تكلف القول بأن «خَلَقَهُ» مـعناه: ابتدأ خلقه، لأن المقام تعجيب وإظهـار لكمال القدرة، فلا يناسبه تجـزئة هذا الخلق، كما لا يناسبه القول بأنه خلـقه جسدًا من طين، ثم نفخ فـيه الروح فصـار بشرا، لأن المشـابهة بين عـيسى وآدم فى تـكوّنهمـا بهذه الكلمة، وإيجادهما بغير أب، وإن كان خلق آدم أغرب، لأنه وجد بغير أب وأم، فشـبه الغريب بالأغرب، فـالحديث عن هذا التطور يطعن فى تمام المشـابهة. هذا فضلاً عن أن خلقه جسدًا من طـين هو بأمر التكوين أيضًا، فلماذا يخص تصويره بشرًا بهذا الأمـر؟ لقد أصاب ابن عاشـور فى بيان سر العطف والتجـوز به حين قـال: (و«ثم» للتراخى الرتبى، فـإن تكوينه بأمـر «كن» أرفع رتبة من خلقـه من تراب، وهو أسـبق فى الوجـود. والتكـــوين المشـار إليه بكن هـو تكوينه على الصفة المقصـودة، ولذلك لم يقل: كوّنه من تراب، ولم يقل: كونه من تراب ثم أحيـاه، بل قال: «خلقـه ثم قال له كن». وقـول «كن» تعبـير عن تعلـق القدرة بتكوينه حيـًا ذا روح، ليعلم السامعون أن التكوين ليس بصنع يد، ولا نحت بآلة، ولكنه بإرادة وتعلق قدرة، وتسـخير الكائنات التى لها أثر فى تكوين المراد)(١).

وهذا ينسحب على العطف بثم فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَـلائِكَةِ اسْـجُدُوا لآدَمَ فَـسَـجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّـاجِـدِينَ ﴾ [الأعراف: ١١]؛ حـيث دلت «ثم» على أن خلق الله للإنسـان فى هذه الصورة البديعـة هو أعظم من الخلق ذاته، وهو مجـال الامتنان بما ميـز الله الإنسان من

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٢٦٣.

حسن الهيئة والشكل، وإن اشترك مع الحيوان في كونه مخلوقًا، وكأن الله تعالى أراد أن يلفت الإنسان إلى عظيم نعمته فيما أبدع من صورته، وتلك نعمة ظاهرة في الخلق، تقوده إلى نعم أخرى خفية، من كمال الإحساس، والقدرة على التمييز والتفكير والإبداع، ففي التصوير شرف الإنسان على سائر صور المخلوقين، وإليه أومأ حرف المهلة. أما ما ذهب إليه الأخفش من أن «ثم»: هنا بمعنى الواو[1]. هربًا من حقيقة أن التصوير لا يتراخى عن الخلق، فهو مما يمحو خصائص الحروف، وتمايز دلالاتها، لذلك خطّأه الزجاج قائلاً: (زعم الأخفش أن «ثم» ههنا في معنى الواو، وهذا خطأ لا يجيزه الخليل وسيبويه، وجميع من يوثق بعربيته. إنما ثُم للشيء الذي يكون بعد المذكور قبله لا غير، وإنما المعنى في هذا الخطاب ذكر ابتداء خلق آدم، فإنما المعنى: إنا بدأنا خلق آدم ثم صورناه)[2].

أحسن الزجاج في رده ما قال الأخفش، لكنه لم ينفذ إلى سر العطف بهذا الحرف، وكان تأوله الخلق بالبدء كلام نحاة يبحثون عن صحة المعنى فحسب، فإن التصريح بآدم في أمر الملائكة بالسجود له بعد الخطاب العام، دليل على أن المخاطبين أولا هم بنو آدم، ليطّرد الخطاب في هذه الآية مع الخطاب في الآية قبلها: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ۝١٠ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١٠] وليكون ذكر السجود لآدم تشريفًا لهذا الجنس. و«ثم» في الموضعين دلت على تفاوت صفات الخلق والتصوير والسجود، فالتصوير حالة كمال في الخلق، وسجود الملائكة لآدم أعظم تكريم للإنسان، يفوق التكريم الحسي المتمثل في جمال الخلق والتصوير.

وقد أبدع الطيبي في كشفه عن سر العطف بثم في قوله «ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» فيما نقله الألوسي عنه: (يمكن أن تحمل «ثم» على التراخي في الرتبة، لأن مقام الامتنان يقتضي أن يقال: إن كون أبيهم مسجود للملائكة أرفع

(١) معاني القرآن للأخفش ١/ ٢٩٤.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٢/ ٣٥٤.

درجة من خلقهم وتصويرهم، وفيه تلويح إلى شرف العلم، وتنبيه للمخاطبين على تحصيل ما فاز به أبوهم من تلك الفضيلة، ومن ثم عقب في البقرة الأمر بالسجود مسألة التحدى بالعلم)[1].

وبهذا تتناغم المتعاطفات متصعّدة في درج الارتقاء، من الخلق إلى التصوير الذى هو إبراز للجمال المادى، ثم إلى السجود الرامز إلى الجمال المعنوى الذى به شرف الإنسان الحقيقى، وهو العلم، حثاً على اكتساب ما به كان شرفه وغاية وجوده.

والعجيب أن الزمخشري يفسر الخلق هنا بخلق آدم طينًا غير مصور[2]، ليتسنى عطف التصوير بثم حملا على حقيقة معناها، فيجيء كلامه أشبه بكلام النحاة، ثم يحلق فى سماء البلاغة حين يعرض لقوله تعالى من سورة الزمر: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الزمر: ٦] فيقول: (فإن قلت: ما وجه قوله ثم جعل منها زوجها» وما يعطيه من التراخي؟ قلت: هما آيتان من جملة الآيات التى عددها دالاً على وحدانيته، وقدرته تشعيبَ هذا الخلق الفائت للحصر. من نفس آدم، وخلق حواء من قُصَيراه، إلا أن إحداهما جعلها الله عادة مستمرة، والأخرى لم تجر بها العادة، ولم تخلق أنثى غير حواء من قُصيْرى رجل، فكانت أدخل فى كونها آية، وأجلب لعجب السامع، فعطفها بثم على الآية الأولى، لدلالة على مباينتها لها فضلاً ومزيّة، وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية، فهو من التراخي فى الحال والمنزلة، لا من التراخى فى الوجود)[3].

الدلالة على أن المعطوف أغرب وأعجب هى التى أشاعها حرف المهلة هنا، وهو من لطيف المعانى التى كثيراً ما ينفرد بها جار الله، لكن ربما يعكر على هذا المعنى اللطيف، أن القرآن فيما أشبه هذا النظم من سورتى النساء والأعراف جاء

---

(١) روح المعانى ٨/ ٨٦.
(٢) انظر الكشاف ٢/ ٦٨.
(٣) الكشاف ٣/ ٣٨٨.

العطف فيهما بالواو، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١] وقال فى الأعراف: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

فلماذا أوثر الحرف الدال على أن المعطوف أعجب وأغرب فى سورة الزمر دون ما أشبهه من النظم فى سورتى النساء والأعراف.

أجاب الغرناطى بقوله: (وأما الجواب عن السؤال الثالث، وهو زيادة «ثم» فى سورة الزمر، فلما قصد من الامتنان والإنعام على هذا الجنس الآدمى، ولتفاوت ما بين الآيتين العجيبتين، من خلق الصنف الإنسانى من شخص واحد، وخلق زوجه منه، فجيء بثم المنبهة على معنى الاعتناء بذكر ما عطف بها، والتأكيد لشأنه للمزية على المعطوف عليه، القائمة مقام التراخى فى الزمان)[1].

والحق أننى لا أجد فى هذا التعليل مَقنعًا، فمقام الامتنان والإنعام بالواو ألصق، لأن الغرض منه هو تعديد النعم، لا إبراز التفاوت بينها، والتعديد أثير الواو من بين حروف العطف، أما إبراز التفاوت، والترقى من خلق غريب إلى خلق آخر أشد غرابة، فذلك مقام الإدلال بالقدرة والإبداع فى الصنع، توصلا إلى الإقرار بعظمة الصانع الحكيم. وذلك ما تنفرد به ثم، وهو الذى استوجبه السياق فى موقعها من سورة الزمر، ردًا على من ادعوا لله شريكًا، ونسبوا إليه الولد، فساق الله تعالى لهم من عجائب الصنع، ودلائل القدرة ما يشهد بتفرده وعدم احتياجه إلى ما نسب إليه. تأمل هذا السياق اللافح ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٤ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا

---

(١) ملاك التأويل ١/ ١٨٨.

زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٤-٦].

«إن هذا السياق الهادر يبدو وكأنه يصب فى آذان المفترين العذاب صباً. ألا ترى إلى هذه التعبيرات: «هو الله الواحد القهار» «ألا هو العزيز الغفار» «ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون» وكيف تساقط كلماتها وحروفها تساقط السياط الملهبة لظهور المفترين؟ ثم تأمل استدلاله على وحدانيته وغناه عما نسبوه إليه من الشريك والولد، كيف يسوق فيه من الآيات أعجبها، وأدلها على القدرة، من مثل: «يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل «وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج» مؤثرًا التجوز بالمسبَّب عن السبب فى وضع الأنعام موضع الماء، ليشيع جواً من الغرابة، ويثير العقول والمشاعر بما يخرجها عما ألفته من الارتباط العادي بين الماء والنبات والأنعام، إلى إنزال الأنعام، وكأنه يجذب العقول بعنف، ويدفعها إلى إعادة النظر في أسرار الخلق. وهذا الكشف عن عجائب الخلق في الأرحام ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾.

هذه العجائب من خلق الله الناطقة بعظيم الصنعة والقدرة يتناغم معها حرف المهلة، بدلالته على التفاوت بين نوع من الخلق عظيم، هو إيجاد البشر من نفس واحدة، وبين خلق أعجب وأغرب لبعده عما جرت به العادة من تناسل الناس وتكاثرهم، وهو خلق حواء من ضلع مَن خُلِقَ من تراب. وذلك ما تفردت به آية الزمر، واستحقت حرف المهلة، بخلافها فى الآيتين الأخريين، حيث كان الغرض فى آية النساء حث المخاطبين على التواصل والتواصى بصلة الأرحام، وإشاعة روح المودة بين يدى تشريع المواريث، حتى يقتلع من النفوس ما جلبت عليه من الأثَرَة وحب المال، مما يكون سببًا فى تقطيع الأرحام، والجور على ما شرعه الله لهم من حقوق، فكان قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١] تذكيرًا لهم بهذه الأرحام التى

تجمعهم، وصلات القربى التى تؤلف بينهم. وذلك بحاجة إلى حرف يقرب، لاحرف يباعد.

وفى سورة الأعراف كان الغرض من العطف بيان نعمة التكاثر إبقاء على الجنس، والتي هيأ لها بما أودعه فى نفس الإنسان من ميل فطرى بين النوعين، ليكون التناسل إرادة إلهية قادرة، يندفع إليها الإنسان بحكم غريزته وسكن الرجل إلى زوجه، وذلك فى معرض حكاية نشأة الخلق. ومثل هذا المقام الذى يبرز التقارب وشدة الائتلاف، ينافيه «ثم» بدلالتها على التفاوت والبعد.

• التقارض بين حرفى المهلة والجمع

مما التبس فيه موضع الواو بثم قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦] لما كانت شهادة الله على أفعال المشركين سابقة لرجوعهم إليه. اندفع بعض النحاة واللغويين إلى القول بأن ثم في هذه الآية بمعنى واو العطف، على ما صرح به الثعالبى فى فصل عقده لوقوع بعض حروف المعانى موقع بعض[(١)]. وتأول الزمخشرى والرضى وغيرهما الشهادة بالمجازاة على سبيل التجوز بالسبب عن المسبب. يقول الرضى: (وأما قوله تعالى: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ أى ثم يجازيهم بما عملوا، لأنه كان شهيداً على ما يعملون فأقام العلة مقام المعلول)[(٢)].

وظاهر كلام الزمخشرى أن التراخى هنا حقيقى[(٣)]، وهو ما صرح به السعد فى حاشيته على الكشاف حيث قال: (فإنه لا يستقيم معناه الظاهر، وهو كون شهادة الله على أفعالهم مترتبة على رجوعهم إليه، وإنما لم يحمله على التراخى فى الرتبة، بمعنى أن هذه أعلى رتبة من ذلك، لقلة الربط فى ذلك وكماله فيما ذكر، ولا خفاء فى أن التراخى فيما اختار من الوجهين على ظاهره، ليس فى أولهما ترتبى، لظهور أن عقابهم إنما هو رجوعهم إليه)[(٤)].

---

(١) ينظر فقه اللغة وسر العربية ٣٥٦.

(٢) شرح الكافية ٢/ ٣٦٧.

(٣) ينظر الكشاف ٢/ ٢٣٩.

(٤) حاشية السعد ٢/ ٥٥٢.

وأرى -والله أعلم- أن حملها على المجاز باستعارة معناها للترتيب الرتبي أليق بمقام التهديد، وذلك لأن قوله «فإلينا مرجعهم» وعيد بأنه سيأخذهم بسوء فعالهم، وتقديم المجرور المفيد للاختصاص تشديد في هذا الوعيد على ما صرح به الزمخشري في قوله تعالى ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥] فقال هناك: (فإن قلت: ما معنى تقديم الظرف؟ قلت: معناه التشديد في الوعيد، وأن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام)[1] وجاء قوله (ثم الله شهيد على ما يفعلون) بلوغًا بالتهديد إلى الغاية في الإحاطة بكل أفعالهم، ومجازاتهم عليها، لأنه يشاهدها ويحصيها، كما جاء قوله ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ تصعيدًا في التهديد، بعد قوله ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ حيث قال ابن المنير فيه: (ومعنى «ثم» الدلالة على أن الحساب أشد من الإياب، لأنه موجب العذاب وبادرته)[2] وإذا كان الزمخشري وغيره يفسرون الشهادة بالمجازاة، وهي لا شك أشد من المحاسبة التي هي بوادر العذاب فلم لم يقولوا هناك ما قيل هنا من الترقي في التهديد؟!

ومما عدل فيه عن الواو إلى «ثم» قوله تعالى في ختام قصة نوح عليه السلام: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦- ١٢٠] فالإغراق أسبق من إنجاء نوح ومن آمن به، لأن تمام النجاة باستواء السفينة على الجودي، بعد ابتلاع الأرض ماءها وإقلاع السماء عن صب جام غضبها، كما صورته سورة هود: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٢- ٤٤] فدل قوله ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ على سبق غرق ابن نوح مع

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٤٨. (٢) الإنصاف ٤/ ٢٤٨.

المغرقين قبل استواء السفينة ونجاة من فيها. فإن لم تكن النجاة متأخرة عن الإغراق، فلا أقل من أن تكون مقارنة له، وهو موضع الواو على أية حال، والدليل على ذلك وقوعها في قوله عز وجل ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤]. لذلك قال الشهاب: إن ثم هنا للتفاوت الرتبى[1]، لكنه لم يكشف عن وجه التفاوت، ولا عن سر وقوع «ثم» هنا، والواو هنالك. والمعروف أنهم حين يقولون بالتفاوت الرتبى، فإنهم يقصدون أن المعطوف أرفع درجة من المعطوف عليه. فهل إغراق قوم نوح أعظم من إنجاء موسى؟ أقول نعم، إنه أعظم فى تحقيق الغرض الذى سيقت من أجله القصة، وهو بث نذر الهلاك والوعيد فى نفوس المكذبين من المشركين، والتعريض بأنه ينتظرهم من العذاب مثلما وقع بأسلافهم من الكافرين. ثم إن إغراق أمة بأكملها دون أن ينجو منها أحد غيرَ مَنْ وعد الله بنجاته من المؤمنين. أدل على سوط القدرة، وأقوى أثرًا فى العقل والعادة من إنجاء فئة قليلة من الناس.

أما اختصاص هذه السورة بحرف المهلة، دون ما جاء فى سورة الأعراف، فلأن السياق هنا فيه مبالغة من المكذبين فى تحدى نوح عليه السلام، وهو قولهم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ فقوبلت هذه المبالغة فى التحدى بالمبالغة فى إهلاكهم بخلافها هناك، فإنه عقَّب تكذيبهم بإنجائه وإغراقهم، دون أن نجد للمكذبين حديثًا.

وهذا هو أيضًا السر فى العدول عن الواو إلى «ثم» فى قصة موسى مع فرعون. فقد عطف الإغراق على الإنجاء بالواو، فى قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٤٩] وعطف بحرف التراخى فى قوله تعالى من سورة الشعراء: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٢٢.

﴿٦٣ وأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ ٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٣- ٦٥] فكان للترتيب الرتبي دلالته على أن نعمة الإغراق كانت أعظم بعد هذا التحدى من فرعون الذى بلغ ذروته حين تعقب موسى ومن معه، وصار منهم قاب قوسين أو أدنى، مما ملأ قلوب أتباع موسى رعبا، كما يتطق به السياق ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ٥٣ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ٥٦ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٥٩ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ٦٠ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٥٣- ٦١]. فكان الإغراق بعد هذا التحدى والإرهاب، أعظم النعم على بنى إسرائيل. فلما لم يظهر لفرعون وقومه أثر فى سورة البقرة، وكان الغرض تعديد النعم وقعت الواو موقعها الذى لا يصلح فيه غيرها، كما وقعت ثم موقعها الذى أبرزت فيه هول الإغراق وجلال القدرة فى إهلاك هذه الجموع بعد أن كادت تطبق على قوم موسى حتى قال أصحابه ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾.

وانظر إلى هذه المباعدة وما تبعها من المبالغة في التجريم حين اقترضت «ثم» موضع الواو فى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥٢]، وكيف التقت المباعدة فى حرف المهلة، مع المباعدة فى الضلال التى عبر عنها قوله ﴿فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾؟!

قارن ذلك بقوله تعالى فى مجال تعديد الجرائم على المشركين فيما اشتبه نظمه بهذه الآية: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠].

تأمل موقع الواو فى قوله ﴿وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ وقوله ﴿فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ حيث لم يقل ثم كفرتم -ثم استكبرتم، لأن الغرض هو تعديد الجرائم وليس المباعدة بين المتعاطفين، كما هو الشأن فى آية فصلت. حيث

أزاحتها «ثم» هناك، لإبراز إغراق المكذبين بالقرآن فى الضلال، بعد أن فنّد أوهامهم وافتراءاتهم في قوله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١- ٤٤] فقابل بحرف البعد إبعادهم فى التكذيب والضلال، على ما صرح به فى تذييل الآيات ﴿أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ فكان ذلك ضربًا من الإعجاز فى الملاءمة بين الألفاظ ومعانيها.

قال الغرناطى فى بيان المغايرة بين الموضعين بحرفى المهلة والجمع: («ثم» للترتيب الزماني واقتضاء المهلة فيه. وتأتى أيضًا لبيان ما يعطف بها، وأن له موقعًا وخطرًا وبه اعتناء، وقد مر بيان ذلك، وأنَّ تفاوت الرتب كتفاوت الزمان. ولا توقُّف فى أن كفرهم بالقرآن، بعد علمهم أنه من عند الله كما هو، وكما قد علم من سعد بالإيمان، وإن كذبوا هم فلا شك أن ذلك مرتكب شنيع، وضلال بعيد. فجيء هنا بثم لتحرز عظيم اجترائهم، وشنيع مرتكبهم، فجاءت على ما يجب.

ولما قصد فى آية الأحقاف زيادة شهادة عليهم بتصديق من تقرر عندهم علم الكتاب المنزل قبل كتابنا ممن يُعْرف علمه، فشهد بما عنده من العلم أن هذا الذى جاء به محمد ﷺ إنما هو من عند الله، وكان ذلك أبين فى الحجة عليهم لم يرد بثم، لاقتضائها مهلة لم تقصد هنا)[1].

(١) ملاك التأويل ٨٤٦/٢.

ثالثًا: التجوز فى التراخى

• الفرق بين التجوز فى الترتيب، والتجوز فى التراخى

التراخى معنى من معانى «ثم»، وبه امتازت عن شقيقتها الفاء، ويقصد به تخلل الزمن بين المتعاطفين، فإذا ما قامت قرينة على عدم إرادة المهلة الزمنية تأولها رجالات البيان ببعد المراتب والأحوال. وقد التبس هذا التراخى الرتبى بالترتيب الرتبى فى كلام المفسرين ورجالات البيان، وأطلقوهما إطلاقًا واحدًا فى كل موطن عكس فيه الترتيب، أو تعذرت المهلة بين المتعاطفين. وإليك مثلاً من هذا الالتباس. فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ [الأنعام: ١٥٣ - ١٥٤]. وهو مثل واضح لعكس الترتيب يقول الشيخ ابن عاشور: («ثم» هاهنا عاطفة على جملة «قل تعالوا»، فليست عاطفة للمفردات، فلا يتوهم أنها لتراخى الزمان، بل تنسلخ عنه حين تعطف الجمل، فتدل على التراخى فى الرتبة، وهو مهلة مجازية)[(١)] فعبر بالتراخى الرتبى بدلاً من الترتيب الرتبى.

وفى قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٤]. والترتيب فيه على حقيقته، لتقدم الإنجاء على الإشراك، يقول: («وثم» من قوله «ثم أنتم تشركون» للترتيب الرتبى، لأن المقصود أن إشراكهم مع اعترافهم بأنهم لا يلجأون إلا إلى الله فى الشدائد أمر عجيب، فليس المقصود المهلة)[(٢)] فيطلق الترتيب الرتبى على ما هو تراخ فى الرتبة، إذ الدافع إلى حمل «ثم» على التجوز هو عدم إرادة المهلة الزمنية، مع صحة الترتيب الحقيقى. وهو فى نهاية العبارة يقول: «فليس المقصود المهلة الحقيقية». وهذا تعليل للتجوز فى التراخى لا فى الترتيب.

والفصل بين الضربين: أن الترتيب الرتبى نوع من التجوز باستعارة «ثم» الدالة على الترتيب الزمنى لمعنى التدرج فى المراتب. ويكون فيما تقطع القرائن

---

(١) التحرير والتنوير ج٨ ق١/ ١٧٥.
(٢) التحرير والتنوير ٧/ ٢٨٣.

بأن المعطوف يسبق المعطوف عليه في الوجـود، أو يواكبـه في الوقوع، فـيؤوَّل الترتيب بالتدرج والارتقـاء في المنزلة، ويكون القصد من تأخير ما حـقه التقديم الإشارة إلى علو منزلته. وبذلك نُبقي على معنى الترتيب في «ثم» ولكنه ترتيب معنوي لا حسي.

أما التراخي الرتبي فهو ضرب آخر من التجوز كذلك، يستعار فيه التراخي في الزمان للتـراخي في الرتبة، وهو يومئ إلى التـفاوت والبعـد بين منزلة المعطوف ومنزلة ما عطف عليه. ويكون فـيما يدل السياق على عدم إرادة المهلة الحقـيقية. فهناك يستعار التـرتّب الوجودي لترتب المنازل، إيماء إلى أن المعطوف أرفع درجة من المعطوف عليه. وهـنا يستعـار البعد الزمانـي للبعد بين المنزلتين، والتـفاوت الشـديد بينهمـا، فالفـرق بين الترقي والـتفـاوت هو الفرق بين التـرتيب الرتبي والتـراخي الرتبي. ففي الأول تـرقٍّ من أمر غـريب أو عظيم إلى ما هو أغرب أو أعظم. وفي الثاني يومئ البعد الزمني إلى عظم التـفاوت بين المتعاطفين. فهو مقارنة بين أدنى الدرجات وأبعدها. والمثال على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]. فإن «إذا» بدلالتها على المفاجـأة قرينة على عدم إرادة المهلة الحقـيقية بين الخلق من تراب، وصـيرورتهم بشـرًا يملأون الأرض حركـة وحـياة، فكـان لابد من تأويل التراخـي بالتفـاوت الرتبي. وهو ما رجحـه أصحاب الأذواق من أهل البيـان. قال الآلوسي: (وقال العلامة الطيبي: إنها للتـراخي الرتبي، لأن المفاجأة تـأبى الحـقيقي. ورد بـأنه لا مانع من أن يفاجئ أحدًا أمرٌ بعد مضي مـدة من أمر آخر، أو أحدهما حقيقي والآخر عـرفي. وتُعُقِّب بأنه على تسليم صحتـه يأباه الذوق، فإنه كـالجمع بين الضبّ والنون. فمـا ذكره الطيبي أنسـب بالنظم القرآني)[1] والتراخي الرتبي هنا يومئ إلى بعد ما بين التراب الذي هو منشأ الخلق، وهو مـادة ميتة، لا صلة لها بهذا الإنسان الذي يجري الدم في عروقه، ويملأ الأرض حـياة وحركة، فما أبعد

(١) روح المعاني ٢١/ ٣٠.

البشر في صورهم وهم ينتشـرون في الكون، من هذا التراب الجامد الذي يطأونه بأقدامهم، فالغرض من التراخي هو إبراز التفاوت، وبعد ما بين الخلقين.

أما التـرتيب الرتبي فإن الـغرض فيـه الدلالة على أن الثاني أعظـم درجة من الأول، كما تراه في قـوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ [الأنعام: ٢]. فـقد عطف «قضى أجـلاً» على «خلقكم من طين» والترتيب بينهما ليس حقيقـياً، لأن قضاء الأجل أسبق من الخلق، ولذلك جعله المفسرون ترتيبًا ذكرياً أو إخبارياً[١]، وهو استعارة للترتيب في المنازل، لأن قضاء الأجل في مجال التهـديد أشد وأعظم، لما فيه من التعريض بالحساب والعقاب، فهو تدرج وارتقاء، لا إبرازٌ للتفاوت.

• أسرار التراخي الرتبي

لخص صاحب البرهان الأغراض البلاغية للخروج من تباعد الزمن إلى التباين في الأحوال والصفات بقوله: (والحاصل أنها للتراخي في الزمان، وهو المعبر عنه بالمهلة، وتكون للتبـاين في الصفات وغـيرها، من غيـر قصد مهلة زمـانية، بل ليعلم موقع ما يعطف بهـا وحاله، وأنه لو انفرد لكان كافيًا فيمـا قصد فيه، ولم يقـصد في هذا ترتيب زمـاني، بل تعظيم الحال فـيمـا عطف عليـه، وموقـعه، وتحريك النفوس لاعتباره)[٢].

هذا كلام دقيق في توجيه الغـرض من التجوز بالمهلة عن تعظيم حال المعطوف بهـا، وتركيـز الاهتمـام عليه لإدراك مـا فيـه من الزيادة في الفضل أو الـشدة، واستقلاله بتحقيق الغرض من الكلام.

• التفاوت في الفضل

والزمخشري.. وهو رائد القول بالتراخي الرتبي تجـوزاً ببعد الزمان عن البعد في الحال والمنزلة، يذهب دائمًـا إلى الترقي، بحيـث يكون المعطوف أعلى درجة

---

(١) ينظر حاشية الشهاب ٤/ ١٣، وروح المعاني ٧/ ٨٧.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٤/ ٢٦٨.

فى الفضل أو الشدة، وذلك معنى اختَصَّ به حرف التراخى، بخلاف الفاء فإنه أجاز فيها أن يكون المعطوف أعلى درجة على سبيل الترقى، أو أدنى درجة فيكون تقديم اللفظ دليلاً على التقدم فى الشرف والرتبة، وقد فصلنا ذلك فى حديثنا عن الفاء.

ولعل السر فى ذلك أن الفاء تستعار للترتيب الرتبى فحسب، والترتيب لا يستوجب البدء بالأدنى، بل الأكثر أن يقدم الأشرف اعتناء به، ليومئ تقدم اللفظ إلى التقدم فى الفضل، ومن ثم استعيرت الفاء للترتيب المعنوى بنوعيه.

أما «ثم» فإن الترتيب يقترن فيها بالتراخى، والتراخى فسحة فى الزمن تتيح للمتأخر فرصة الإفادة من المتقدم والبناء عليه، فهى بالترقى والتصعد أحق وأجدر. وذلك ما تؤيده النصوص القرآنية، وتشى به أغراضها، وهو الذى جعل الزمخشرى يقول به أبدًا فى كل مواقع التجوز بحرف المهلة.

وأمّا ما ذهب إليه صاحب الإنصاف من أن علو درجة المعطوف أمر أغلبى لا كلى، معترضًا على صاحب الكشاف فإنه لم يَسْلَم له ما اعترض به. وذلك عند قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]. قال الزمخشرى: (وإنما عطف على قيام السموات والأرض بثم، بيانًا لعظيم ما يكون من ذلك الأمر، واقتداره على مثله، وهو أن يقول: يا أهل القبور قوموا، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر)[١].

إن تعظيم المعطوف مراعى فيه المخاطبون من المشركين الذين استبعدوا البعث وأنكروه، فردّ عليهم فى الآيات السابقة بقوله: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]. وضرب لهم أمثلة للحياة بعد الموت فيما يشاهدونه، ويتكرر على أعينهم ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩]. فشبه بعثهم وإخراجهم من

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٢٠.

قبورهم بما يرونه من صور الأحياء (فى كل لحظة يخرج حى من ميت، ويخرج ميت من حى، وفى كل لحظة يتحرك بُرعم ساكن من جوف حبة أو نواة فيفلقها، ويخرج إلى وجه الحياة، وفى كل لحظة يجف عود أو شجرة تستوفى أجلها، فتتحول إلى هشيم أو حطام، ومن خلال الهشيم والحطام توجد الحبة الجديدة الساكنة المتهيئة للحياة والإنبات، ويوجد الغاز الذى ينطلق فى الجو أو تتغذى به التربة، وتستعد للإخصاب، وفى كل لحظة تدبّ الحياة فى جنين، إنسان أو حيوان أو طائر، والحبة التى ترمى فى الأرض، وتختلط بالتربة، وتشحنها بالغازات هى مادة جديدة للحياة، وغذاء جديد للنبات)(١).

هؤلاء الذين استبعدوا البعث كيف إذا أُخبروا بأن الله يبعثهم بالكلمة، ولا يستغرق زمن بعث الأولين والآخرين أكثر من دعوتهم للقيام؟ إن قيام السموات والأرض بأمر الله يجرى مجرى العادة المتكررة على الحس، أما ما أخبر به عن كيفية البعث فهو غريب عجيب. فهذا التعظيم للمعطوف مراعى فيه حال المخاطب، وكون البعث يتم بأمر التكوين لا بالمعالجة، لذلك لم يقل «ثم تخرجون»، وإنما قال «ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون» فإذا كان البعث أمراً عظيمًا فى ذاته فإن كونه بهذه الكيفية أعظم وأعجب. وقد لفت الزمخشرى النظر إلى اختلاف المواقع والأغراض، وما تقتضيه من تهوين الأشياء أو تهويلها (فإن قلت: ما بال الإعادة استعظمت فى قوله «ثم إذا دعاكم دعوة» حتى كأنها فضلت على قيام السموات والأرض بأمره، ثم هونت بعد ذلك؟ قلت: الإعادة فى نفسها عظيمة، ولكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء)(٢).

لكن ابن المنير لم يقنعه جواب الزمخشرى، ولم يسلم بأن الإعادة أفضل من قيام السموات والأرض بأمر ربها، فقال: (والمخلص -والله أعلم- جعل «ثم» على بابها لتراخى الزمان، لا لتراخى المراتب، وإن سلم أنها لتراخى المراتب، فعلى أن تكون مرتبة المعطوف عليه العليا، ومرتبة المعطوف هى الدنيا، وذلك

---

(١) فى ظلال القرآن ٥/ ٢٧٦٢

(٢) الكشاف ٣/ ٢٢٠.

نادر في مجيئها لتراخي المراتب، فإن المعطوف حينئذ في أكثر المواضع أرفع درجة من المعطوف عليه)[1].

لقد كان الزمخشري أكثر نفاذًا إلى أغوار النص، وأرهف أذنًا في إصغائه لهمس السياق، في حين وقف ابن المنير يوازن بين خلق السماء والأرض، وبين بعث الموتى أيهما أعظم. دون التفات إلى أغراض النظم ودواعيه. وقد أجاد الشهاب في رده عليه، فقال: (والمراد عظمه في نفسه، وبالنسبة إلى المعطوف، وكونه أعظم من قيام السماء والأرض، لأنه المقصود من الإيجاد والإنشاء، وبه استقرار السعداء والأشقياء في الدرجات والدركات، وهو المقصود من خلق الأرض والسموات، فاندفع اعتراض صاحب الانتصاف بأنه -على تسليمه- مرتبة المعطوف عليه هنا هي العليا، مع أن كون المعطوف في مثله أرفع درجة أكثري لا كلي، كما صرح به الطيبي هنا، فلا امتناع فيما منعه، وهي فائدة نفيسة)[2].

ومما دل فيه التراخي على التفاوت في الفضل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥ - ٤٦].

قلت: إن «ثم» أداة رقيقة هامسة، تنساب معها المعاني إلى النفس في لطف، وتحرك الزمن في هدوء، وهذا معنى يصاحبها في حقيقتها ومجازها. والتعبير هنا (يرسم مشهد الظل، ويد الله الخفية التدبير، تمده في رفق، وتقبضه في لطف «ألم تر إلى ربك كيف مد الظل» «ثم قبضناه إلينا قبضًا يسيرًا». والظل هو ما تلقيه الأجرام من الظلمة الخفيفة حين تحجب أشعة الشمس في النهار، وهو يتحرك مع حركة الأرض في مواجهة الشمس، فتتغير أوضاعه وامتداداته وأشكاله. والشمس تدل عليه بضوئها وحرارتها، وتميز مساحته وامتداده

---

(١) الإنصاف ٣/ ٢١٩. (٢) حاشية الشهاب ٧/ ١٩.

وارتداده. ومتابعةُ خطوات الظل في مده وانقباضه يشيع في النفس نداوة وراحة، كما يشيع فيها يقظة لطيفة شفيفة)[1].

إنك لا تشعر بالظل وهو يفيض ببطء، ولا تحس به وهو ينحسر، وإنما يتخلل إليك وعنك في رفق ولطف، وهذا ما يناسب حرف المهلة بما فيه من مطل الزمن، لكن هذا لا ينسيك أن جعل ضوء الشمس دليلاً عليه لا يتراخى عن مد الظل، بل هو مصاحب له، فلا يظهر الظل ولا حركته إلا بضوء الشمس، فالمهلة مستعارة لإبراز فضل الشمس، وأثرها العظيم على الحياة والأحياء، فإذا كان الظل نعمة عظيمة فإن نعمة الضوء والحرارة في الشمس أعظم، ولولا الشمس لتحول الكون ظلامًا دامسًا لا يرى فيه للظل أثر. أما فضل القبض على المد المعطوف بثم، فإنه مرتبط بالوصف «قبضًا يسيرًا» (وفي هذا القبض اليسير شيئًا بعد شيء من المنافع ما لا يعد ولا يحصر، ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعًا)[2].

ومن روائع أمثلة التراخي الرتبي في الذكر الحكيم، قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٣].

فقد كان الظاهر أن يعطف ذكر النعمة بالفاء، لأن ذكر النعمة ضرب من الشكر، فيجب أن يعقب حدوث النعمة والانتفاع بها، كما تقول: أعطيته فشكر، ولا تقول: أعطيته ثم شكر، لكن العدول إلى حرف التراخي هنا وراءه نكتة لطيفة، هي الإيماء إلى أن شكر النعمة عند الله أعظم من النعمة نفسها، لذلك يثيب الله الشاكرين على شكرهم لنعمائه ﴿سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. مع أن أعظم الناس شكرًا لربه لا يستطيع أن يوفيه حق نعمة واحدة من نعمه، لكن الله بكرمه وفضله يعده من الشاكرين إحسانًا،

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٦٩.

(٢) الكشاف ٣/ ٩٤.

ويكافئه عليه مكافأة المحسنين، فكان العطف بثم في قوله «ثم اذكروا نعمة ربكم» تعظيمًا لأجر الذاكرين، ولهذا أوثر الذكر على الحمد والشكر، لأن الذكر عمل قلبي، وهو الذي يحرك الألسنة حتى تلهج بالثناء والشكر للمنعم. ففيه جمع بين الذكر بالقلب واللسان. وهذا المعنى للتراخي الرتبي هنا لم أجد أحدًا أشار إليه.

- **التفاوت في الشدة**

قال عز وجل: ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ**﴾ [الأنعام: ٨]. التراخي الزمني بين عدم الإنظار وإنزال الملك غير ممكن، لأن مدلول عدم الإنظار نفي للتراخي، فلابد من حمله على التراخي الرتبي، وبه تصير المفاجأة بالعذاب، لونا آخر من التعذيب أشد وأقسى من القضاء بالعذاب، وهو في مجال التهديد أقسى إيجاعًا مما لو دخلت الفاء المناسبة لعدم الإنظار، إذ لو قيل: «فلا ينظرون» لجعلته عقابًا واحدًا معجلاً، فتضيع معه المبالغة في إبراز شدة وقع المفاجأة على نفوس كانت تستعجل العذاب، وتسخر من التهديد به، وذلك ما لا يؤدى على وجهه بغير حرف المهلة على سبيل التجوز. ورحم الله الزمخشري حين قال: (ومعنى «ثم» بعد ما بين الأمرين: قضاء الأمر وعدم الإنظار، وجعل عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر، لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة)(١).

ومنه قوله تعالى على لسان إبليس: ﴿**فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾ [الأعراف: ١٦ - ١٧].

عطف «لآتينهم» على «لأقعدن» بحرف المهلة، والمهلة الزمنية ليست مرادة، لأن المقام مقام تحفز ومسارعة، لا مقام تريث وانتظار، فالتراخي مستعار للتفاوت بين القعود والإتيان، إذ الأول تزين ترصد واستهواء، والثاني مهاجمة بكل الوسائل، فالفرق بينهما كالفرق بين الجالس يحارب بالكلمة ويناضل باللسان،

(١) الكشاف ٢/ ٥.

والمنازل فى ساحة القتال بالسيف والسنان. ألا ترى كيف بالغ فى طرق المهاجمة وتنوع منافذها «من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم» حتى لا يترك وسيلة من الوسائل لتحقيق ما أراد. إنه تدرج في الكيد، وارتقاء في الوسائل، ومباعدة بين مراحل الحرب وتطوراتها.

ومنه قوله تعالى: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٠ - ١٣].

فليس بين تعذيب الأشقى فى النار، وبين ما يكون عليه من حال تنعدم فيها الحياة والموت انقطاع ولا مهلة، لأنها حال مصاحبة للصّلْى بالنار، والمهلة الزمنية تعنى انقطاع العذاب بين المتعاطفين، وهو ما يأباه مقام التشديد فى الوعيد، فدل التراخى بمعناه المجازى على أن الترجح بين الحياة والموت لون آخر من العذاب أشد وأقسى من الصلى، حتى إن الكافر ليتمنى الموت ليستريح من العذاب والإحساس بآلامه، ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وانظر إلى ما توسوس به «ثم» فى قوله تعالى: ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٠]. حيث خولف الظاهر من عطف الإجلاء، المعبر عنه بعدم المجاورة بالفاء، المشعرة بتعجيل طردهم من المدينة وعدم إمهالهم بها، ووضعت «ثم» موضعها، لتدل على أنه يجمع لهم بين التنكيل بهم فى المدينة وإجلائهم عنها، وأن الإجلاء شر ما ينتظرهم وأقسى عقوبة تنزل بهم، بخلاف الفاء التى تدل بما فيها من معنى التعقيب على أنها عقوبة واحدة هى الطرد من البلاد. وذلك ما حققه الزمخشرى: (فإن قلت: أما كان من حق «لا يجاورونك» أن يعطف بالفاء، وأن يقال لنغرينك بهم فلا يجاورونك؟ قلت: لو جعل الثانى مسببًا عن الأول لكان الأمر كما قلت، ولكنه جعل جوابًا آخر للقسم معطوفًا على الأول، وإنما عطف بثم، لأن الجلاء عن الأوطان كان أعظم عليهم، وأعظم من جميع ما أصيبوا به، فتراخت حاله عن حال المعطوف عليه)[1].

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٥.

ومن التفاوت في الشدة والمباعدة في الدرجة بين عذاب وعذاب أعظم منه، قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ [غافر: ٧٠ - ٧٤].

إن مقام التهديد بإيقاع أشد العذاب بالمكذبين يأبى التراخي الحقيقي بين سحبهم مغللين في النار على وجوههم، وسَجْرهم فيها، وإنما هو التفاوت بين طور من العذاب، وطور أشد وأعظم، لأن السَّجْر معناه أن تغطيهم النار، وتحيط بهم من كل جانب، فيحرقوا ظاهرًا وباطنًا، من سَجَر التَّنُّورَ إذا ملأه إيقادًا، ولا شك أن ذلك أشد من السحب في النار، ثم كان تأكدهم من خذلان شركائهم وضياعهم، وذهاب ما كانوا يؤملون نفعه أقسى من العذاب نفسه، لأنهم حينئذ يوقنون بخلودهم في النار، وتنقطع كل آمالهم في النجاة.

وعلى غراره جاءت ثم من قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٧ - ٤٩]. . ذلك أن صب الحميم على رؤوسهم تصهر به بطونهم وجلودهم يفوق في شدته جرهم إلى النار، ألا ترى كيف سلط الصب على العذاب بدلاً من الحميم على سبيل الاستعارة، وكأن الذي يصب عليهم هو العذاب، لا أسبابه ووسائله، وذلك ما لا يقاس به هولا وفظاعة سحبُهم إلى النار، وهو الذي جسّده حرف المهلة، وكأنه يقول: خذوهم فجروهم جراً عنيفًا حتى تلقوهم في وسط النار، بل اصنعوا بهم ما هو أشد وأفظع، وهو أن تصبوا عليهم العذاب صبا.

التراخي المجازى فى عطف المكرر

• عطف التوكيد بين النحاة والبلاغيين:

يقول ابن قتيبة: (أعلمتك أن القرآن نزل بلسان القوم، وعلى مذاهبهم. ومن مذاهبهم التكرار إرادة التوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز، لأن افتنان المتكلم والخطيب فى الفنون، وخروجه عن شىء إلى شىء، أحسن من اقتصاره فى المقام على فن واحد. وقد يقول القائل فى كلامه: والله لا أفعله، ثم والله لا أفعله. إذا أراد التوكيد وحسم الأطماع من أن يفعله)(١).

هذا الإلف العربى فى توكيد المعانى وتقريرها بتكرير المفردات والجمل، تختلف طرائقه وأغراضه فى النظم الكريم، تدق أسراره ووجوه بيانه. قال صاحب الطراز: (اعلم أن ما نورده فى هذا القسم ينبغى إمعان النظر فيه، لغموضه ودقة مجاريه، ومن أجل ورود التأكيد من جهة اللفظ والمعنى، والتكرير فى كتاب الله تعالى، ظن بعض من ضاقت حوصلته، وضعفت بصيرته عن إدراك الحقائق، والتطلع إلى مآخذ الدقائق أنه خال عن الفائدة، وأنه لا معنى تحته إلا مجرد التكرير لا غير، وهذا خطأ وزلل، فإن كتاب الله تعالى لم يبلغ حد الإعجاز فى البلاغة والفصاحة سواه من بين سائر الكلمات، ولو كان فيه ما هو خال من الفائدة بالتكرير لم يكن بالغًا هذه الدرجة، ولا كان مختصاً بهذه المزية)(٢).

وأول ما يلاحظ فيما تكرر من ألفاظ القرآن أنه يأتى فى مقامات تقتضى زيادة تقرير المعانى، وتتطلب مزيدًا من الحسم وقطع الأطماع. وأكثرها يأتى فى مواطن التهديد والوعيد. وهى مواطن يكون التكرير فيها بمثابة تتابع قرع الأجراس، وزيادة الضغط على مواطن الإحساس، للتنبيه على ما يحدق بالمخاطبين من الأخطار. مثل قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ التى تكررت فى سورة

---

(١) تأويل مشكل القرآن ٢٣٥.

(٢) الطراز ٢/ ١٧٧.

المرسلات، وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ فى سورة القمر، وقوله: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧]. وقوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤ - ٣٥].

وثانى هذه الملاحظات، وهى لب حديثنا هنا أن الجمل التى تكررت بألفاظها، تأتى تارة مفصولة بلا عاطف بين الجملتين المكررتين، وأخرى تأتى موصولة بالواو، وثالثة بالفاء ورابعة بحرف التراخى.

وإذا كان الغرض الأصيل من التكرار هو توكيد المعانى وتقريرها، فإن الفصل هو الأحق بها على ما قرره علماء المعانى، وفى مقدمتهم شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر فى قوله: (واعلم أنه كما كان فى الأسماء ما يصله معناه بالاسم قبله، فيستغنى بصلة معناه له عن واصل يصله، ورابط يربطه، وذلك كالصفة التى لا تحتاج فى اتصالها بالموصوف إلى شىء يصلها به، وكالتأكيد الذى لا يفتقر كذلك إلى ما يصله بالمؤكَّد، كذلك يكون فى الجمل ما تتصل من ذات نفسها بالتى قبلها، وتستغنى بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها، وهى كل جملة كانت مؤكّدة للتى قبلها ومبينة لها، وكانت إذا حصلت لم تكن شيئًا سواها)(١) ثم يقول وهو يوجز أحوال الجمل فصلاً ووصلاً: (فاعلم أنا قد حصلنا من ذلك على ثلاثة أضرب، جملة حالها مع التى قبلها حال الصفة مع الموصوف، والتأكيد مع المؤكَّد، فلا يكون العطف فيها البتة، لشبه العطف فيها لو عطفت بعطف الشىء على نفسه)(٢).

هنا مكمن الإشكال، ذلك أن لسان العرب حافل بأمثلة عطفت فيها جملة التوكيد على الجملة المؤكَّدة، مما أدى إلى تضارب الآراء فى إجازة مثل هذا العطف أو منعه، أو إجازته بحرف المهلة وحده، دون سواه من حروف العطف، أو إجازته فى «ثم» والفاء ومنعه مع الواو. يقول العلوى فى حاشيته على الكشاف: (قال المصنف فى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ [القمر: ٩]. أى كذبوا تكذيبًا عقب تكذيب.

---

(١) دلائل الإعجاز ٢٢٧.

(٢) السابق ٢٤٣.

وفي الكتاب العزيز: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧ - ١٨]. وفيه: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣ - ٤]. فقد عطف التأكيد في الآيتين على المؤكَّد، وكأنه إنما يمنع عطف التأكيد على المؤكَّد إذا كان بالواو)[1].

ولست أدري كيف ينسب العلوي إلى الزمخشري منع العطف بالواو، مع أن الزمخشري قال بالتوكيد أكثر من مرة فيما كان معطوفًا بالواو!! ففي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٩ - ١٥٠]. قال في الكشاف: (وهذا لتأكيد التكرير في أمر القبلة وتشديده، لأن النسخ من مظان الفتنة والشبهة، وتسويل الشيطان، والحاجة إلى التفصلة بينه وبين البداء، فكرر عليهم ليثبتوا ويعزموا ويجدوا)[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ [البقرة: ٢٥٣]. قال الزمخشري: «ولو شاء الله ما اقتتلوا» كرره للتأكيد)[3].

وليس الزمخشري وحده من بين المفسرين الذين يقولون بالتوكيد فيما عطف بالواو، فإن كثيرًا منهم، ومنهم رجالات البيان قالوا به في الكتاب العزيز، وإن رفضوه في مؤلفاتهم البلاغية. فهذا الفخر الرازي يقول في كتابه «نهاية الإيجاز»، وهو يعدد مواطن الفصل: (فالقسم الأول: هو أن تكون إحدى الجملتين كالتوكيد للجملة الأخرى، أو كالصفة لها.. على ما سيأتي أمثلتها، فلا يجوز إدخال العاطف عليه، لأن الصفة والتوكيد متعلقان بالموصوف والمؤكد لذاتيهما. ولما كان التعلق الذاتي حاصلاً، استغنى عن لفظ يدل على ذلك التعلق)[4].

---

(١) تحفة الأشراف ١/ ٢٥٣.
(٢) الكشاف ١/ ٣٢٢.
(٣) الكشاف ١/ ٣٨٣.
(٤) نهاية الإيجاز ٢٢٧.

هذا الرفض لدخول العاطف بين التوكيد والمؤكَّد -كما أملته قواعد الصناعة- لا نجده عند الرازي بهذا الحسم في تطبيقاته على النص القرآني. ففي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١]. يقول في أحد وجوه ذكرها في الغرض من عطف الأمر بالتقوى على مثله، وهو الذي قدمه على سواه: (الأول تأكيد للأمر والحثّ عليه، كقولك للرجل: اعجل اعجل، فيكون أبلغ من قولك: اعجل)[١].

وقال البيضاوي في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]. قال البيضاوي: («واتقوا الله» تكرير للتأكيد)[٢].

وحين يقول بعطف التوكيد أمثالُ الزمخشري والرازي والبيضاوي وهم من أهل الذوق والبيان، فإن ذلك يقلل من أهمية القول بأن إجازة عطف التوكيد هو قول المفسرين والنحاة على حد ما صرح به الشهاب: (والمؤكَّد قد يعطف، كما صرح به المفسرون والنحاة، وتصريح أهل المعاني بمنعه، لما بينهما من شدة الاتصال مخالف له بحسب الظاهر)[٣].

على أن جمهور النحاة لم يصرحوا بجواز عطف المؤكّد بالواو، وإنما صرحوا بجوازه إذا كان العاطف «ثم» كما قال ابن مالك في التسهيل: (وفصل الجملتين بثم إن أمن اللبس أجود من وصلهما)[٤].

وقال الشيخ محيي الدين عبد الحميد في عدة السالك: (نص أبو حيان في الارتشاف على أن حرف العطف الذي يعطف الجملة المؤكَّدة على ما قبلها هو «ثم»، ولكنه لم يصرح بأنه لا يجوز العطف بغير هذا الحرف)[٥].

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٩/ ١٧١.
(٢) تفسير البيضاوي ٨/ ١٢٨.
(٣) حاشية الشهاب ٨/ ٣٩٤.
(٤) تسهيل الفوائد ١٦٦.
(٥) عدة السالك إلى أوضح المسالك ٣/ ٣٣٦.

أما الرضى فقد أجازه فى ثم والفاء، وإن جردهما من حقيقة التعقيب والتراخى حين يعطفان الجملة المكررة. وعبارته: (وقد تكون ثم والفاء أيضًا لمجرد التدرج فى الارتقاء، وإن لم يكن الثانى مترتبًا فى الذكر على الأول، وذلك إذا تكرر الأول بلفظه، نحو: بالله وتالله ووالله ثم والله. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾. وقال تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾)[١].

والغريب أن المرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدى يجعل ترك العطف بين التوكيد والمؤكد هو رأى النحاة، وأن البلاغيين تابعوهم فى ذلك، وليس وراء الفصل فى كمال الاتصال أغراض بلاغية، وإنما هى قوانين النحاة. يقول رحمه الله: (ومثل هذا الفصل لما يسمونه كمال الاتصال، وهو أن تكون الجملة الثانية تأكيدًا للأولى، أو بدلاً منها، أو عطف بيان لها، فترك العطف في هذا لا يرجع إلى مقام يقتضيه، وإنما يرجع إلى امتناع العطف فى النحو بين التأكيد والمؤكَّد، والبدل والمبدل منه، والبيان والمبيِّن، لأن العطف يقتضى التغاير بين المعطوف والتأكيد عين المؤكَّد)[٢].

وهذا عكس ما صرح به الشهاب فيما نقلناه عنه من أن إجازة عطف التوكيد رأى النحاة، وأهل المعانى يمنعونه، كما أنه يناقض ما ذكرناه من أقوال النحاة.

والظاهر من كلام البلاغيين أنهم يمنعون العطف ما لم يكن فى المعطوف زيادة يغاير بها معنى ما عطف عليه، وإلا كان من عطف الشيء على نفسه، كما أثبتوه فى حديثهم عن كمال الاتصال، يستوى فى ذلك أن يكون العاطف ثم أو غيرها من حروف العطف، لأن المدار على ما يتضمنه المعطوف من زيادة فى المعنى. وهذا ما يفهم من كلام العصام فى قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣ - ٤]. قال: (ولما استشعر أن يستبعد كون الكلام تكريرًا، لأن العاطف يستدعى كون المراد بالثانى غير الأول، قال لدفعه: (وفى

---

(١) شرح الكافية ٢/٣٦٧.

(٢) البلاغة العالية ١٠٦.

«ثم» دلالة على أن الإنذار الثانى أبلغ من الأول، يعنى أن «ثم» مستعار من التراخى الزمانى إلى التدرج فى درج الارتقاء من غير اعتبار التراخى والبعد بين تلك الدرج. فإن قلت: إذا كان الإنذار الثانى أبلغ لم يكن تكريراً، قلت: كونه أبلغ باعتبار زيادة اهتمام المنذَر به، لا بأنه زاد فى المفهوم شيئًا)(١).

لقد أطلت الحديث فى تحقيق آراء النحاة والبلاغيين، لأن مثل هذا العطف إذا لم يكن له غرض سوى التوكيد يصبح دخول العاطف فيه ضربًا من الزيادة العارية عن الفائدة، وهو فوق مصادمته لقوانين أهل الفن، لا ينبغى القول بمثله فى الكتاب العزيز.

وإذا كان هذا العطف ثابتًا فى الذكر الحكيم، وخاصة فى عطف الجمل المكررة، وبحروف العطف الثلاثة: الواو والفاء وثم، فإن الجهود يجب أن توجه إلى البحث عن أسراره. وما أضافه دخول العاطف فيما كان الظاهر عدم دخوله، وقد حاولت استجلاء أسرار العطف بالواو فى كتاب لى تحت عنوان «الإعجاز فى نسق القرآن».

ويهمنى هنا الكشف عن بلاغة العطف بحرف المهلة، وهو الأثير فى الدخول بين الجمل المكررة، حتى جعله البعض خاصاً بها دون سواه من حروف العطف، وهو الذى كثر وقوعه فى الذكر الحكيم.

وإذا كانت الفاء قد جاءت عاطفة للجملة المكررة كذلك، فإن الفرق بين العطفين يرجع إلى خصائص الحرفين التى تصاحبهما عند استعارتهما، من الترتيب والتعقيب فى الفاء، أو الترتيب والتراخى فى «ثم» ذلك أن الحرف عند استعارته لا تنمحى دلالاته الوضعية تمامًا، بل يبقى منها ما ينم عليها ويذكّر بخصائصها على ما قرره بدقة بالغة أبو البقاء الكفوى حين قال: (كل حرف كان له معنى متبادر، كالاستعلاء فى «على» مثلاً، ثم استعمل فى غيره، فإنه لا يترك ذلك المعنى المتبادر بالكلية، بل يبقى فيه رائحة منه، ويلاحظ معه)(٢).

---

(١) الأطول ٢/ ٤٤.

(٢) الكليات ٥/ ١٤٨.

ويبدو هذا الفرق حين نقارن بين قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ [القمر: ٩]. وبين قوله عز وجل: ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣ - ٤]. قال الزمخشرى فى بيان سر العطف بالفاء: (كذبوه تكذيبًا عقب تكذيب، كلما مضى منهم قرن مكذّب تبعه قرن مكذب)[1]، فأشاع معنى التعقيب فى هذا العطف، الدلالة على تتابع التكذيب واستمراره على مدى قرون وأجيال، مما يبرز الإصرار والعناد، وعدم جدوى الدعوة معهم، تمهيدًا لأخذهم بجزمهم، وإنزال العذاب عليهم.

وفى الآية الثانية يقول صاحب الكشاف: (و «ثم» للدلالة على أن الإنذار الثانى أبلغ من الأول وأشد، كما تقول للمنصوح: أقول لك، ثم أقول لك: لا تفعل)[2] فتجاوز الزمخشرى القول بالتأكيد -وهو الذى يمكن أن يؤدى بغير عاطف- إلى استلهام معنى الحرف، واستعارة التراخي الزمانى للتراخى فى الرتبة، ليكون الإنذار الثانى أشد وأبلغ، فكشف بذلك عن نكتتين، إحداهما: المغايرة بين المتعاطفين لتفاوتهما في الشدة، وثانيتهما: إيثار حرف المهلة على غيره من حروف العطف، لأنه وحده هو الذى يمايز بين التهديدين، ويباعد التفاوت بينهما بقدر ما فيه من اتساع الزمن وبعده.

وقد كشف السبكى عن السر فى كون الإنذار الثانى أبلغ من الأول، فى قوله: (وسره أن فيه تنبيها على أن ذلك تكرر مرة بعد أخرى، وإن تراخي الزمن بينهما، ومن شأن ذلك أنه لا يكون إلا فى شىء لا يقبل أن يتطرق إليه تغيير، بل هو مستمر على تراخى الزمان)[3].

فقوله: «وإن تراخى الزمن بينهما» هو الخيط الدقيق الفاصل بين الفاء وثم. وإن كانا معًا يستعاران للدلالة على التفاوت في المنازل، وبه اختص حرف المهلة فى صورته المجازية بالإيماء إلى ثبات الموقف، وحسم الأطماع على حد تعبير ابن قتيبة.

---

(١) الكشاف ٤/ ٣٧.	(٢) السابق ٤/ ٢٨١.

(٣) عروس الأفراح ٣/ ٢٢٩.

هذا الحسم للأطماع وقطع الأوهام فى تغيير المواقف بتغيُّر الزمن، هو الذى من أجله آثر عليه السلام حرف المهلة فى قوله ردًا على بنى هشام بن المغيرة حين استأذنوه فى أن يُنكحوا ابنتهم عليا: (فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن إلا أن يطلق علىٌّ ابنتى وينكح ابنتهم) فقطعت «ثم» بهذا العطف كل أمل يراودهم فى أن يغير الرسول موقفه بمرور الزمن، وكأنه يقول: لا آذن الآن، ولا آذن غدا، ولا آذن ما حييت. وذلك شىء فوق التأكيد الذى رآه ابن الأثير (أشد موقعًا من الإيجاز لانصباب الغاية إلى تأكيد القول، فى منع على رضى الله عنه من التزويج بابنة أبى جهل بن هشام)[1] لأن هذا التأكيد يفهم بغير دخول العاطف، وهو لا يدل على ما دلت عليه. «ثم» من ثبات الرسول على موقفه مهما تغيرت الظروف وتباعدت الأحوال.

ويشير ابن يعقوب إلى الحركة النفسية المصاحبة للتراخى، وأثر الوقت فى إحماء الشعور، وتقوية العزم على تطوير الفعل والمبالغة فيه: فقال فى تفسير أبلغية الإنذار الثانى، وكونه أوكد من الأول: (وفى العطف بثم دلالة على أن الإنذار الثانى الذى اعتبره المتكلم أوكد، وهو فى رعايته وقصده أبلغ، كما يقول القائل: أقول لك: لا تفعل، ثم تتقوى قريحته على النهى بأبلغ من الأول، فيقول: ثم أقول لك لا تفعل. وبيان ذلك أن أصل «ثم» إفادة التراخى والبعد الزمانى، وقد استعير للتراخى والبعد المعنوى)[2].

وكأن ابن يعقوب يستمد من المعنى الحقيقى لحرف التراخى ما يشيع هذا الأثر النفسى عند المتكلم، ويحفزه على تطوير أسلحته فى التهديد، ومهاجمة الخصم بما هو أشد وأعتى من الأول.

ولعل ذلك ليس بعيدًا مما قاله أبو حيان فى قوله تعالى دعاء على الوليد بن المغيرة ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٨- ٢٠].. قال: (وجاء التكرار بثم ليدل على أن الثانية أبلغ من الأولى، للتراخى الذى

---

(١) المثل السائر ٣/ ١٠

(٢) مواهب الفتاح ٣/ ٢١٩.

بينهما، كأنه دعا عليه أولاً، ورجا أن يقلع عما كان يروقه فلم يفعل، فدعا عليه ثانيا)[1].

الفرق بينهما أن أبا حيان يبقي الحرف على حقيقته، ويستدل بالتراخي الزماني على أن الدعاء الثاني أبلغ من الأول، لأنه دعاء اليائس، الذى فقد كل أمل فى أن يفيء المدعوُّ عليه إلى رشده، فتمنى له أشد أنواع الهلاك، جزاء تماديه.

أبو حيان يربط التفاوت بحالى الداعى والمدعو عليه، ويخلل الزمن بين الدعاءين ليشيع روح اليأس. ويضاعف من الرغبة فى الانتقام. أما البيانيون فإن نظرتهم تنصب على التفاوت بين الدعاءين، ويستعيرون له دلالة البعد فى حرف المهلة، لتنفخ فى روح الجملة المكررة معنى جديداً يتصاعد به التهديد والتعجيب من حال المدعو عليه، كما تجده فى قول الشهاب: (الجملة الثانية أبلغ فى التعجب من الأولى، للعطف بثم الدالة على تفاوت الرتبة، فكأنه قيل: قتل بنوع ما من القتل، لا بل قتل بأشده وأشده، ولذا ساغ العطف فيه مع أنه تأكيد)[2] ذلك التفاوت المعنوى، والارتقاء فى الدعاء، هو الذى سوغ العطف فى نظر أهل المعانى.

مثل هذا التكرار فى الدعاء، ولكن للإغاظة وزيادة المناكدة ورد فى قول الحماسى:

ومالى من ذنب إليهم علمته ... سوى أننى قد قلت يا سرحة اسلمى

نعم فاسلمي ثم اسلمي ثمت اسلمى ... ثلاث تحيات وإن لم تكلمى

فهو يرد على من أنذره بسفك دمه، لأنه دعا لسرحة التى كنى بها عن امرأة فيهم، فكرر الدعاء لها بالسلامة ليغايظهم ويناكدهم[3]، وقد ارتقى فى هذا الدعاء، وازداد فى مناكدتهم مبتدئًا بالفاء، الدالة على التفاوت، وترقى منها إلى «ثم» الدالة على شدة التفاوت، وانتهى بزيادة التاء على «ثم» إمعانًا فى المبالغة

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٧٤.
(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٢٧٥.
(٣) ينظر شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ٣/ ١٣٧٤.

وشدة المغايظة، وكأنه يقول لهم: لن يخيفني تهديدكم، وسأظل أدعو لها إلى آخر يوم في حياتي، فلا تنتظروا مني تراجعًا، ولن يغير الزمن من موقفي.

ولأن «ثم» تكسب عطف الجملة المكررة زيادة تغليظ وتشديد في مقام التهديد، فقد يصاحبها من الزيادة في التعبير ما يؤكد هذه المبالغة وينميها، كما في قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦ - ٧]. فإن عطف الرؤية بحرف المهلة يومئ إلى أن الرؤية الثانية أشد هولا، حتى لكأن ما رأوه من الجحيم أولاً غير ما رأوه ثانيًا في فظاعته وهوله، وذلك لما هو معروف في دنيا الناس من أن الذي عذب بشيء فظيع ينتابه من الهياج وانهيار الأعصاب ما ينتابه إذا ما ذكّر به، فكيف برؤيته ثانيًا، فهو لا يُقبل عليه إلا سوقًا، وهذا ما يحدث لمن يرى هول عذاب الجحيم، فإن إراءته إياه ثانية أشد وأفظع، وقد ازداد هذا التهويل بقوله «عين اليقين» لأن فيه قطعًا لكل وهم، ودفعًا لأي تجوز يمكن أن يفهم من الرؤية.

وانظر كيف يقابل الله تعالى الغلو في التكذيب والمكابرة بالمبالغة في التهديد والوعيد، في قوله تعالى وصفًا للمشركين: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ۝٣٣ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣١ - ٣٥].

فلم يكتف المشرك بالتكذيب والإعراض، حتى تفاخر به وتعاظم بين قومه، فكان ذلك عند الله تعالى أشد من تكذيبه وإعراضه، بدليل عطفه بثم الدالة على التفاوت بين التكذيب والإعراض، وبين ذهابه إلى أهله يتمطى كبرًا واختيالاً، فقابل الله تعالى ذلك بتكرير التهديد بالويل «أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى» وعطف الثاني على الأول بثم، وكأنه يقسم ألوان العذاب على أفعال الكافر، فيقول له: ويل لك على تكذيبك وإعراضك، وويل أشد وأعظم على تباهيك واختيالك بهذا الكفر والإعراض، وفي ذلك تنبيه على أن المجاهرة بالذنب معصية أخرى، أشد

وأعظم من المعصية نفسها، لما لها من أثر على سلوك الناس، وتشجيعهم على المعاصي وإفشائها.

ولعل هذا ليس بعيداً من التهويل بالتكرير في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٤ - ١٩]..

فالتعبير عن الكفار بالفجار فيه دلالة على التناهي في الكفر والإغراق فيه، لأن الفَجْر: شق الشيء شقا واسعًا[١]. فهو كفر مشفع بالتحدى والمجاهرة وشق ستر الديانة[٢] فقابل الله هذا الفجور واللجاجة في الكفر بزيادة التهويل من يوم القيامة، وما يصحبه من أهوال تشيب لها الولدان، مؤثرًا العطف بثم ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾.

وفي مجال الامتداح بالأعمال الصالحات والترغيب فيها تُكسب «ثم» الجملة المكررة معنى الثبات والدوام، وتومئ إلى أن الفضل كل الفضل في المداومة، حتى لكأن الإيمان والتقوى لا قيمة لهما ما لم يتسما بالاستمرار والدوام، وذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٤].

إنها مراحل من التدرج والارتقاء في معارج القبول، بدأت بالخوف من الله والإيمان به والعمل الصالح، ثم ترقت إلى الرضا واليقين، اللذين أشاعا في النفس الأريحية الباعثة على مداومة ما اطمأنت إليه، وانتهت بالوصول إلى درجة الإحسان التي ترقى بصاحبها إلى مرحلة المشاهدة واليقين، حتى يعبد الإنسان ربه

---

(١) المفردات في غريب القرآن ٣٧٣. (٢) السابق ٣٧٣.

عبادة من يراه ويشاهده. هذا ما أفاض به الطيبي فيما نقله الشهاب: (والمعنى: أنه ليس المطلوب من المؤمنين الزهادة عن المستلذات وتحريم الطيبات، وإنما المطلوب منهم الترقي في مدارج التقوى والإيمان إلى مراتب الإخلاص واليقين، ومعارج القدس والكمال، وذلك بأن يثبتوا على الاتقاء عن الشرك، وعلى الإيمان بما يجب الإيمان به، وعلى الأعمال الصالحة لتحصيل الاستقامة التامة، التي يمكن بها الترقي إلى مرتبة المشاهدة، ومعارج أن تعبد الله كأنك تراه، وهو المعنيّ بقوله «وأحسنوا»)(١).

---

(١) حاشية الشهاب ٣/ ٢٨٠.

التراخي بين الحقيقة والمجاز

كثيراً ما تختلف نظرات المفسرين إلى معنى التراخي في حرف المهلة، طبقاً لما يشيعه البعد بضربيه الحسي والمعنوي في النص من دلالات، وما يُبرق به من أسرار، قد يراها أحدهم كامنة في رداء الزمن، ويراها آخرون فيما يستعار له هذا الرداء من معاني التدرج والارتقاء.

ففي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢] قال الزمخشري: (ومعنى «ثم» إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى، وأن تركهما خير من نفس الإنفاق)(١) فآثر الزمخشري المعنى المجازي الدال على تعظيم المعطوف، لأنه رأى أن الغرض الأصيل من امتداح الإنفاق في هذه الآية وتعظيم أجر المنفق، هو الحث على تنقيته من شوائب ما يبطله ويذهب بأجره، من إيذاء الفقراء وأصحاب الحاجات والمن عليهم، بدليل أن الآية قد سُبقت بما يدل على تعظيم الإنفاق في ذاته، وبيان عظيم أجره عند الله، وهو قوله: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١] وليس بعد هذه المضاعفة للأجر المنفَق، التي لم تقف عند حد المضاعفة إلى سبعمائة ضعف، بل أطلقت في ذلك الوعد المصدر بلفظ الجلالة «والله يضاعف لمن يشاء» ليضفي الله على النفقة من جلاله ما يعظمها في عين المؤمن، ثم شفعها بقوله: «والله واسع عليم» ليفيض عليها من سعة كرمه ما لا يقف بثوابها عند عدّ أو حساب. ليس بعد هذا التعظيم لعمل المنفق، ومقابلته بهذا الفيض من الثواب، حاجة إلى زيادة حث أو إغراء، فكانت الآية التي تلتها -وهي موضع حديثنا- دعوة إلى إخلاص هذا الإنفاق مما يذهب بأجره العظيم، وكأنّ ذكر الإنفاق في سبيل الله بين يدي

(١) الكشاف ١/ ٣٩٤.

دعوة المنفِق إلى ترك المن والأذى توطئة لهذا الغرض الأصيل، وهذا هو السر الذى جعل الزمخشرى يستعير فيه معنى التراخى لبعد المرتبة، وكأن الله يقول: أرأيت إلى هذا الإنفاق الذى يضاعف الله أجره هذه المضاعفة، لا قيمة له مالم يكن خالصًا من الرياء، نقيًا من المن والإيذاء، بل هذه الصدقة التى عظَّمها الله تعالى ورفع شأنها تتضاءل وتتطامن حتى تصبح الكلمة الطيبة أعظم منها إذا ما صحبها منٌّ أو أذى ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣] وليست المفاضلة بين القول الطيب والصدقة المشفوعة بالأذى مفاضلة بين حسن وأحسن منه، ولكنها مفاضلة بين الطيب والخبيث.

ويعلل الشيخ الطاهر بن عاشور المفاضلة بين المتعاطفين فى تفسيره لكلام الزمخشرى بقوله: (لأن العطاء قد يصدر عن كرم النفس وحب المحمدة، فللنفوس حظ فيه، مع حظ المعطَى، بخلاف ترك المن والأذى، فلا حظٌ فيه لنفس المعطِى، فإن الأكثر يميلون إلى التبجح والتطاول على المعطَى، فالمهملة فى «ثم» مجازية. إذ شبه حصول الشىء المهم -فى عزة حصوله- بحصول الشىء المتأخر زمنه، وكأن الذى دعا الزمخشرى إلى هذا أنه رأى معنى المهلة هنا غير مراد، لأن المراد حصول الإنفاق وترك المن معا)(١).

هذا التعليل لتفاوت مرتبة المتعاطفين دقيق رائع، وكشفه عن دافع الزمخشرى إلى التجوز بما يبرز إيثار حرف المهلة على ما يبدو أنه موضع الواو دقيق أيضًا، لكننا نقف معه فى إجرائه للاستعارة، حيث يجريها فى مدخول الحرف كما هو واضح فى عبارته، وهو إن صح أن يكون رأيًا خاصًا بابن عاشور، ولا أراه يصح عنده، لأنه كثيرًا ما أجراها فى معنى الحرف، فلا يصح بحال أن يفهم ذلك من كلام الكشاف، فإنه فى كل موضع فسر فيه استعارة المهلة كان كلامه صريحًا فى استعارة معنى الحرف، من مثل قوله: (وكلمة التراخى دلت على تباين المنزلتين دلالتها على تباين الوقتين)(٢) فهو يستعير البعد فى الوقت لبعد المنزلة، كما هو بيِّن لائح.

---

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٤٢.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٤٨.

ولابن المنير رأي طريف في استعارة الحرف في هذه الآية وما أشبهها، مما يدل المعطوف فيه على الدوام والثبات. ومجمله أن يستعار تراخي زمن وقوع الفعل الذي هو حقيقة «ثم» لتراخي زمن بقائه، فيدل بذلك على دوام المعطوف واستمراره. وإليك ما قال مما نسوقه بتمامه لطرافته: (وعندي فيها وجه آخر محتمل في هذه الآية ونحوها، وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها، وإرخاء الطول في استصحابه، فهي على هذا لم تخرج عن الإشعار ببعد الزمن، ولكن معناها الأصلي تراخي زمن وقوع الفعل وحدوثه، ومعناها المستعار إليه دوام وجود الفعل وتراخي زمن بقائه، وعليه حمل قوله تعالى: «ثم استقاموا»، أي داموا على الاستقامة دوامًا متراخيًا، ممتد الأمل، وتلك الاستقامة هي المعتبرة، لا ما هو منقطع إلى ضده من الحَيْد إلى الهوى والشهوات، وكذلك قوله: «ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى» أي يدومون على تناسي الإحسان، وعلى ترك الاعتداد به والامتنان، ليسوا بتاركيه في أزمنة إلى الإذاية»[1].

لكن الإمام محمد عبده يحمل «ثُم» على حقيقتها في الآية، ويستخرج من التراخي الزماني نكتة العطف بهذا الحرف. يقول صاحب المنار: (وقال الأستاذ الإمام: قد يشكل على بعض الناس التعبير بثم التي تفيد التراخي، مع العلم بأن المن أو الأذى العاجل أضر وأجدر بأن يجعل تركه شرطًا لتحصيل الأجر.

وجوابه أن من يقرن النفقة بالمن والأذى، أو يتبعها أحدهما أو كليهما عاجلاً لا يستحق أن يدخل في الذين ينفقون في سبيل الله، أو يوصف بالسخاء المحمود عند ربه، وإذا كان من يمن أو يؤذى بعد الإنفاق بزمن لا يعتد الله بإنفاقه ولا يأجره عليه، ولا يقيه الخوف والحزن، أفلا يكون المتعجل به أجدر بذلك؟ بلى. وإنما الكلام في السخي الذي ينفق في سبيل الله مخلصًا، متحريًا للمصلحة والمنفعة، لا باغيًا جزاء من ينفق عليه، ولا مكافأة، ولكن قد يعرض له بعد ذلك ما يحمله على المن والأذى المُحبطين للأجر، كأنه يرى ممن كان أنفق

---

(١) الإنصاف ١/ ٣٩٣.

عليه غمطا لحقه، أو إعراضا عنه، وتركا لما كان من احترامه إياه، فيثير بذلك غضبه حتى يمن أو يؤذي)[1].

وجه البلاغة في العطف بهذا الحرف على ما ذهب إليه الشيخ الإمام هو المبالغة في امتداح هؤلاء المنفقين، الذين لا يستطيع الزمن مهما تراخى بهم أن يحبط عملهم، ولا أن يدفعهم تبدل أحوال المنفَق عليهم إلى فعل ما يذهب بأجر النفقة ويبطلها. وكأن ترك المن والأذى بعد تقادم العهد بالنفقة شرط لاستحقاق هذا الأجر العظيم. وهذا هو سر العدول عن الواو أو الفاء، إذ لو قيل ولا يتبعون، أو فلا يتبعون لما دل ذلك على كمال المدح، لأن طول الزمن أقدر على التغيير في النفوس. وأدل على اختبار صدق النوايا.

هذا كلام في ميزان البلاغة ثقيل الوزن. لكنه ليس بجديد، بل هو من بحار الكشاف يغترف. وإذا شئت العثور عليه، فأنت واجده في أحد وجهين ذكرهما الزمخشري في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] قال الزمخشري: (فإن قلت: ما معنى «ثم» ههنا وهي للتراخي، وعدمُ الارتياب يجب أن يكون مقارنا للإيمان، لأنه وصف فيه، لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة، التي حقيقتها التيقن وانتفاء الريب؟ قلت: الجواب على طريقين: أحدهما أن من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان أو بعض المضللين بعد ثلج الصدر، فشككه وقذف في قلبه ما يثلم يقينه، أو نظر هو نظراً غير سديد يسقط به على الشك، ثم يستمر على ذلك راكبًا رأسه، لا يطلب له مخرجًا، فوصف المؤمنون حقا بالبعد عن هذه الموبقات، ونظيره قوله «ثم استقاموا». والثاني أن الإيقان وزوال الريب لما كان ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان، تنبيهًا على مكانه، وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعاراً باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غضاً جديداً)[2].

---

(١) تفسير المنار ٣/ ٥٢.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٧١.

رحم الله الزمخشري لم يترك لمن بعده ما يتفاخرون باقتراعه. ففي الوجه الأول يذهب إلى التراخي الزماني في «ثم»، ليدل على أن مرور الزمن لا يزيد المؤمنين الصادقين إلا ثباتًا ويقينًا، ولن يتسرب إلى قلوبهم ما يتسرب إلى قلوب ضعاف الإيمان من الشك والارتياب. إنه نفس الوجه الذي ذكره الأستاذ الإمام في آية البقرة.

والوجه الثاني يذهب إلى أنه من عطف الخاص على العام، تنبيهًا على أن عدم الريب هو قمة الإيمان ودليل رسوخه. وذلك هو سر العطف. أما عطفه بثم فهو للإشعار باستقراره في الأزمنة المتراخية، وذلك عين ما قال به صاحب الإنصاف، وجعله ضربًا من المجاز، باستعارة تراخي زمن المعطوف لتراخي زمن بقائه، كما نقلناه عنه في آية البقرة، لأن حقيقة التراخي فيها أن تكون المهلة بين المتعاطفين، لا بعد وقوع المعطوف. وإذا كان الزمخشري لم يصرح بهذه الاستعارة، فإن عبارته لا تمنعه. غير أن كلامه في غير هذا الموطن يجعل التجوز بالثبات والدوام في الفعل، ويبقى ثم على استعارتها لتباين المنزلتين، فيكون فيه ضربان من المجاز: أحدهما في الحرف، والثاني في الفعل. كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]. ففسر الاهتداء بالثبات على التوبة والإيمان، لأنه ليس شيئًا غيرهما. وفسر التراخي في «ثم» بالتباين بين منزلة الفعل والاستقامة عليه. قال الزمخشري: (الاهتداء هو الاستقامة والثبات على الهدى المذكور، وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح. ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠]، وكلمة التراخي دلت على تباين المنزلتين دلالتها على تباين الوقتين في «جاءني زيد ثم عمرو» أعني أن منزلة الاستقامة على الخير مباينة لمنزلة الخير نفسه، لأنها أعلى منها وأفضل»[1].

فتفسيره للاهتداء بالثبات على الهدى تجوز في الفعل، وبمثله قال في الآية الكريمة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ففسر طلب الهداية من قوم

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٤.

مهتدين بطلب الزيادة أو التثبيت[1]، وعلق السيد الشريف على عبارته هناك بقوله: (فإن حمل الهدى على التثبيت مجاز)[2].

وقرينة التجوز هنا عطف الاهتداء على ما يستلزمه من التوبة والإيمان، لأن من تاب وآمن وعمل صالحًا لا يكون غير مهتد، فحمل الاهتداء على الثبات لتحقيق المغايرة بين المتعاطفين، فرارًا من عطف الشيء على نفسه، وتلك هي نكتة التجوز في الفعل، ولا يختلف الأمر لو عطف الفعل بالواو.

أما إيثار حرف التراخي على الواو، فنكتته الدلالة على فضل المعطوف، تنبيهًا على أن الثبات على الفعل خير من الفعل نفسه، فاستعير التراخي الزمني للتراخي في الرتبة.

وهنا يتضح الفرق بين الزمخشري وابن المنير، حيث يجعل الأول الدلالة على الثبات من أثر التجوز في الفعل، ويجعلها الأخير من وحي التجوز في الحرف.

يؤكد ذلك ما قاله الزمخشري في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠]: («ثم» لتراخي الاستقامة عن الإقرار في المرتبة، وفضلها عليه، لأن الاستقامة لها الشأن كله، ونحوه: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥]. والمعنى: ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته)[3] فقوله: «ثم لتراخي الاستقامة عن الإقرار في المرتبة» صريح في استعارتها للتراخي الرتبي. وقوله «المعنى: ثم ثبتوا على الإقرار» مفسرًا الاستقامة بالثبات صريح في التجوز في الفعل.

• قرينة المجاز بين المنع والجواز:

من الثابت لدى علماء البيان أن المجاز اللغوي ملزوم قرينة معاندة لإرادة الحقيقة[4]، لكننا كثيرًا ما لا نجد قرينة ظاهرة تمنع من إرادة الحقيقة فيما قيل باستعارة «ثم» للاستبعاد أو التراخي الرتبي، وهذا ما جعل المفسرين يختلفون في

---

(١) الكشاف ١/ ٦٧.
(٢) حاشية السيد على الكشاف ١/ ٦٧.
(٣) الكشاف ٣/ ٤٥٣.
(٤) المطول ٤٠٧.

إرادة الحقيقة أو المجاز فى كثير من النصوص. فيحملها بعضهم على الحقيقة، وآخرون على المجاز، بل إن الواحد منهم ربما قال باحتمال الحقيقة والمجاز فى الموضع الواحد، كما رأينا فى الأمثلة التى مرت آنفا.

ومن الأمثلة التى خفيت فيها القرينة المانعة من إرادة الحقيقة، قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٢].

فقد عطف إيحاء الله إلى رسوله باتباع ملة إبراهيم بحرف التراخى، والمهلةُ بين ما حكاه الله عن إبراهيم والإيحاء إلى رسوله باتباع ملته قائمة، ولا مانع من إرادتها. لكن الزمخشرى حملها على التراخى فى الرتبة. فقال: (فى «ثم» هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ، وإجلال محله، والإيذان بأن أشرف ما أوتى خليل الله إبراهيم من الكرامة، وأجلّ ما أولى من النعمة اتباع رسول الله ﷺ، من قِبَل أنها دلت على تباعد هذا النعت فى المرتبة من بين سائر النعوت التى أثنى الله عليه بها)(١).

وكأنى بالزمخشرى -رحمه الله- نظر إلى أن ما حكاه الله تعالى عن إبراهيم جزء من الوحى، إذ لا سبيل لمعرفة الرسول به إلا منه، فليس بين ما أوحى إليه من قصة إبراهيم، وما أوحى إليه باتباع ملته تراخ، ولو مضى الأمر فى القصّ على حقيقته لكان ذلك موضع الواو، وكان الظاهر أن يقال: وأوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم، فلجأ الزمخشرى إلى المجاز، ليكشف عن سر إيثار حرف التراخى على ما ظاهره أنه موضع الواو، ورأى أن هذا الإيحاء باتباع ملة إبراهيم نعمة أخرى امتن الله بها على خليل الله، وغوير بينها وبين ما قبلها فى حرف العطف، إظهاراً للتفاوت بينها وبين ما سبقها من النعم، تعظيماً للنبى الكريم

(١) الكشاف ٢/ ٤٣٤.

الذى كان اتباعه خير ما أنعم الله به على إبراهيم، واستتبع ذلك تعظيم إبراهيم عليه السلام، لأن خير النبيين تابع لملته. كما أشار إلى ذلك عمر الفارسى فى شرحه لعبارة الكشاف: (أراد أن فيه تعظيمًا لا يكتنه كنهه، أما الإيذان بأن أشرف ما أوتى خليل الله صلوات الله عليه، فمن دلالة «ثم» على تباين هذا المؤتى، وسائر ما أوتى من الرتب والمآثر، وأما تعظيم رسول الله ﷺ، فمن حيث إن الخليل مع جلالة محله عند الله تعالى أجلُّ رتبته أن أوصى إلى حبيب الله تعالى باتباع ملته. وفى لفظ «أوحينا» ثم الأمر باتباع الملة، لا اتباع إبراهيم ما يدل على أنه ليس بتابع، بل هو مستقل بالأخذ عمن أخذ إبراهيم عنه)(١).

فالقرينة التى تدفع إلى التجوز فى حرف المهلة قارة فى أغراض النظم، وقدرة المجاز على استيعاب أسراره بما لا تستطيعه الحقيقة، وطريق التعرف على المجاز إمكان وقوع ما لا يدل على المهلة من حروف العطف موقعها، فإذا أمكن وقوع الواو مثلاً موقع ثم، كان إيثارها دليلاً على التجوز بالتراخى الحقيقى عن التراخى الرتبى. وإلا فإن حملها على الحقيقة فيما لا مهلة فيه، يلغى معنى التراخى فيها، وهو الذى يميزها عن سائر حروف العطف، وإلغاء خصائص الحروف مما تجل عنه لغة القرآن.

فالمهلة خصوصية زائدة على مطلق الجمع، وعلى الترتيب الذى تشارك الفاء فيه ثم، ومعلوم أنه ما من أمر زائد على مجرد الإثبات والنفى إلا كان هو الغرض من إثباته أو نفيه، كما قرر الإمام عبد القاهر. ففى قولك: جاء زيد ثم عمرو، يكون الغرض إثبات مجىء زيد بعد عمرو بمهلة، فإذا قلت: ما جاء زيد ثم عمرو، كنت تنفى هذه المهلة فحسب، ولا مانع أن يكون زيد وعمرو قد جاءا معا، أو جاء عمرو عقبه بلا مهلة.

وإرادة هذه الخصوصية أو عدم إرادتها هى القرينة على المجاز أو إرادة الحقيقة، والمثال الظاهر على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ

---

(١) كشف الكشاف ٤/ ١٢٦٢.

مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

فماذا لو أجريت «ثم» على حقيقتها فى قوله «ثم يدركه الموت»؟ سيكون المعنى حينئذ أن هذا الأجر يثبت لمن أدركه الموت بعد خروجه من بيته مهاجراً بمهلة، ولا أجر لمن خرج مخلصاً نيته للهجرة فأدركه الموت عقب خروجه، وهو بالقطع غير مراد، لأن الآية فى سياق يعظم إخلاص النية فى الخروج للهجرة، ويطمئن من خرج متجرداً للهجرة محتسباً لها وحالت العوائق دون إتمامها، فمات قبل بلوغ مهجره أن الله يضمن له أجر المهاجرين. لا ينقص منه شيئًا، وسواء فى ذلك أن يدركه الموت عقب خروجه أو بعد زمن، لأن النية المقرونة بالخروج هى مدار الجزاء، ولأنه فيهما معًا لم يصل إلى دار الهجرة، والدليل على ذلك أن الآية نزلت فى حبيب بن ضمرة الليثى حمله بنوه على سرير متوجهًا إلى المدينة، فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت، فصفق بيمينه على شماله، فقال: اللهم هذه لك، وهذه لرسولك، أبايعك على ما بايعتك يد رسول الله ﷺ ومات حميداً، فبلغ خبره أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: لو وافى المدينة لكان أتم أجراً، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

وهو قاطع فى أن ثبوت الأجر غير مقيد بحصول المهلة بعد الخروج، فما التنعيم الذى مات به حبيب ببعيد عن مكة حتى يستحق المهلة، وإنما هو التراخى المجازى الدال على تعظيم الموت فى سبيل الله، وبعد منزلته من منزلة الخروج، لتجتمع فى الآية مبالغتان، هذا التراخى الرتبى، والتعبير بقوله: «يدركه الموت» بدلاً من «يمت» كما نبه إلى ذلك الألوسى فى قوله: (ووضع «يدركه الموت» موضع «يمت»، إشعاراً بمزيد الرضا من الله تعالى، وأن الموت كالهدية منه سبحانه له، لأنه سبب الوصول إلى النعيم المقيم، الذى لا ينال إلا بالموت، وجيء بثم بدل الواو تتميمًا لهذه الدقيقة، وأن مرتبة الخروج دون هذه المرتبة»[2].

---

(١) أسباب النزول للواحدى ١٣٢.

(٢) روح المعانى ٥/١٢٨.

فالعـدول عن الواو إلى ثم قـرينة على إرادة التراخي الرتبي الذي تختص به «ثم» حيث لم يكن إلى قصد المهلة من غرض.

وأكثر من ذلك وضوحًا على عدم إرادة الحقيـقة لتنافي خصوصية حرف المهلة مع الغرض قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٢]. فـقد جـمع المخطئ بين أمرين: الإثم والرمـي، وجمع الله في جزائه بين البـهتان والإثم، والبهتـان مقابل للرمي، وهو في الجـزاء مقدم، وفي الشرط مؤخـر معطوف بثم، فدل العطف بالواو في الجزاء، وتقـديم ما أخر في الشرط على أن التراخي الزمني غير مراد، هذا فضلاً عن أن الغرض يتعارض مع حقيـقة المهلة، إذ لو أريدت لكان الجزاء مشروطًا بوقـوع الرمي بعد الإثم بمهلة، ومفـهومـه أنه لو جمع بين الإثـم والرمي، ولم يكن الثاني بعـد الأول بمهلة لما استحق هذا العقاب، وذلك ظاهر الفساد. لذلك قال الشهاب: (وفي «ثم» دلالة على بعد مرتبة البهتان من ارتكاب الإثم نفسه)[1].

وفي هذا البـعـد المجـازي إشارة إلى عـظم الجرم في رمـي الأبرياء، وتلطيخ سمعتهم وشرفهم، فكل إثم يقترفه الآثم هو دون الرمي في فظاعته وقبحه.

وكثيـرًا ما يكون الفاصل الزمني المعبـر عنه بالمهلة مفسدًا للمـعنى، فلا يكون هناك بد من القول بالتراخي الرتبي، كـما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢].

فإن التراخي الحقيقي بين إزالة ما ألقى الشيطان وإحكام الله الآيات، يوهـم أن وساوس الشيطان قد ظلت ملتبسة بهذه الآيات زمنا قبل أن يُحكم الله آياته، وهو مـعنى فاسـد، بدليل الفاء في قـوله «فـينسخ الله» الدالة على سرعـة إزالة تلك

---

(١) حاشية الشهاب ٣/١٧٦.

الأوهام من رءوس ضعاف الإيمان قبل أن تعلق بآياته، صيانة لكلامه من أن يلتبس فيه الحق بالباطل ولو لزمن يسير، وهو عين الوقت الذى يحكم الله فيه الآيات، إلا أن إزالة الأوهام دون الإحكام فى المرتبة، من حيث إن إحكام الآيات هو الهدف، ومن أجله كان نسخ ما ألقى الشيطان.

ولعل الفاء فى «فينسخ» بما فيها من معنى المسارعة خير دليل على وهن قصة الغرانيق، لأن دعوى أن الرسول نطق بعد قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾ [النجم:١٩] بقوله «تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى» وسماع الناس إياها، واستفاضتها على ألسنتهم، مما سيناقض معنى الفاء التى تدل على أن النسخ يعقب إلقاء الشيطان، فلا يتمكن من لَبْس كتاب الله المحكم بما يبثه من أوهام وأباطيل. وقد أحسن ابن كثير حين قال: (وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظناً منهم أن مشركى قريش قد أسلموا، ولكنها طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح)[(١)].

المهم أن المهلة بين النسخ وإحكام الآيات ليست مرادة، بل إنها تؤدى إلى معنى غير صحيح. وهذا هو قرينة التجوز فى حرف المهلة.

وقد يكون المقام مما يأبى التراخى الزمانى، كما تجده فى مواطن التعذيب والتهديد به، فإن المهلة بين مراحل العذاب تدل على أن هناك فترات تتخلل هذه المراحل، ينقطع فيها التعذيب، وهو ما يأباه مقام التشديد فى الوعيد. ومثاله قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: ٣٠-٣٣].

فلو قلنا بالتراخى الحقيقى لكانت هناك مهلة بين الغلّ والتصلية، وبينها وبين السلك، والمقامُ مقام غضب وانتقام، لا يلائمه ما توهمه المهلة الحقيقية من

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٢٢٩.

انقطاع العذاب، وتخلل الزمن بين كل لون من العذاب وآخر، فلم يكن مفرٌّ من القول بالتراخى الرتبى، وبه يتصاعد العذاب، وينتقل المعذَّب من طور إلى طور أشد وأقسى، وهو ما تومىء به ثم من التفاوت فى الشدة، على ما قال البيضاوى وعلق عليه الشهاب بقوله: (ولم يجعلها للمهلة، إذ مقام التهديد لا يناسبه)[1].

إلا أن المهم فى الحديث عن القرينة هو ما تجاذبته الحقيقة والمجاز من المواضع، وليس فيها ما يمنع من إرادة الحقيقة، ومن ثم كانت عرضة لاختلاف الأذواق ففى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧، ٨] تجاذب حرفَ المهلة فى قوله: «ثم يصر مستكبراً» الحقيقةُ والمجاز، وليس فى النص قرينة تقطع بالمجاز وتمنع من إرادة حقيقة التراخى، وهو ما صرح به الشهاب فيما علق به على عبارة البيضاوى: (وثم لاستبعاد الإصرار بعد سماع الآيات كقوله:

يرى غمرات الموت ثم يزورها[2]

قال الشهاب: (فهى للتراخى الرتبى لا الحقيقى كما فى البيت المذكور، واختاروه، لأنه أبلغ وأنسب بالمقام، وإن أمكن إبقاؤه على حقيقته هنا)[3].

مكمن الخطر فى هذا القول هو التصريح بإمكان الحقيقة مع التجوز باستعارة الحرف، لأنه يضعنا أمام ضرب من المجاز اللغوى لا تمنع فيه القرينة من إرادة الحقيقة، ويخضع فيه القول بالحقيقة أو المجاز للأذواق، لا لحسم القرائن. وبمثل ذلك قال الألوسى: (فإن «ثم» لاستبعاد الإصرار بعد سماع الآيات، وهى للتراخى الرتبى، ويمكن إبقاؤه على حقيقته، إلا أن الأول أبلغ وأنسب بالمقام)[4].

مبنى الحكم بأبلغية التراخى الرتبى على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، وأما كونه أنسب بالمقام، فلعله راجع إلى أن مقام التسجيل على الكفار وإبراز عتوهم

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٢٣٩.
(٢) تفسير البيضاوى ٨/ ١٧.
(٣) حاشية الشهاب ٨/ ١٧.
(٤) روح المعانى ٢٥/ ١٤٣.

وعنادهم يتحقق بمبادرتهم إلى الإصرار على الكفر فور سماع القرآن، دون أن يولوه قدره من التأمل والنظر، وذلك شأن المستكبرين حين يرون فيما يُدعون إليه طعنا فى كبريائهم، فهم يسارعون برفضه، كما حدث من المشركين الذين بادروا إلى التكذيب والكفر، فكان ذلك قرينة على أن التراخى غير حقيقى، وأنه أريد به استبعاد وقوعه فى منطق العقل والعدل بعد سماع ما يوجب الإيمان به.

أما الذين يرون إبقاء التراخى على حقيقته، فإنهم يجدون فى الإصرار على الكفر بعد طول الاستماع إلى القرآن إبرازًا لقبح الكفر، وسفاهة المصرين عليه، لأن الإصرار على الكفر بعد طول النظر المستوجب للمعرفة والإيمان، أقبح من الإصرار قبل تبين الحقيقة واستيضاحها. لأنه كفر عن جهل، والأول عن علم ويقين. وأنت ترى أن مثل هذا الوجه من البلاغة لا يُستحقر. ولذلك كان التراخى الحقيقى أبلغ فى استبعاد إيمان اليهود، والإنكار على المسلمين طمعهم فى إيمانهم، فى قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥] ذلك أن تحريف كلام الله بعد طول الاستماع والتدبر الذى أكده بقوله: «من بعد ما عقلوه» -ولا يتم عَقْله إلا بعد مهلة طال فيها الاستماع والتفهم- أدل على رسوخ الكفر، وأبعد فى الضلال، مما يجعل الطمع فى إيمانهم أشد بعدًا وأعظم استنكارًا.

وهذان الاحتمالان بالحقيقة والمجاز، أجازهما صاحب المنار فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣]، قال: (فللتراخى وجهان: أحدهما استبعاد توليهم، لأنه خلاف الأصل الذى يكون عليه المؤمن. وثانيهما أنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب يتولى ذلك الفريق بعد تردد وترو فى القبول وعدمه، وكان من مقتضى الإيمان ألا يتردد المؤمن فى إجابة الدعوة إلى حكم كتابه الذى هو أصل دينه. أورده الأستاذ الإمام، وقال: على أنهم لم يكتفوا

بالتردد حتى تولوا بالفعل، ولم يكن التولى عرضا حدث لهم بعد أن كانوا مقبلين على الكتاب، خاضعين لحكمه فى كل حال وآن، بل هو وصف لازم لهم، بل اللازم لهم ما هو شر منه، وهو الإعراض عن كتاب الله فى عامة أحواله)(١).

فقد رأى القائلون بالمجاز أن الاستبعاد يبرز التناقض فى فكر أهل الكتاب وسلوكهم، إذ كان الشأن أن إيمانهم بكتابهم يسلم إلى الإيمان بما دعوا إليه من تحكيم كتاب الله بينهم، فإعراضهم عما دعوا إليه مستبعد فى حكم العقل.

ورأى القائلون بالتراخى الزمنى أنه يبرز قبح توليهم وإعراضهم بإضافة التردد فيما كان الشأن ألا تردد فيه.

ومثل هذا الوجه من حقيقة التراخى وما يشيعه من تعظيم الجرم قال به ابن عطية فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٩٢]، قال: (وقوله تعالى: «ثم اتخذتم»، تدل «ثم» على أنهم فعلوا ذلك بعد مهلة من النظر فى الآيات، وذلك أعظم فى دينهم)(٢) فى حين رأى أبو السعود أن تقبيح هذا الفعل يؤدَّى بالتراخى المجازى فقال: (و«ثم» للتراخى فى الرتبة، والدلالة على نهاية قُبْح ما صنعوا)(٣).

بل إن هناك من أجاز الجمع بين الحقيقة والمجاز كما جاء فى التحرير والتنوير عند قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦]، فقال فى «ثم أنزل الله سكينته»: (و«ثم» دالة على التراخى الرتبى، فإن نزول السكينة ونزول الملائكة أعظم من النصر الأول يوم حنين، على أن التراخى الزمنى مراد، تنزيلاً لعظيم الشدة وهول المصيبة منزلة طول مدتها)(٤).

---

(١) تفسير المنار ٣/ ٢١٩.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٢٩٤.
(٣) تفسير أبى السعود ١/ ١٣١.
(٤) التحرير والتنوير ١٠/ ١٥٧.

وهذا صريح فى الجمع بين الحقيقة والمجاز، وهو مالم يجزه البيانيون، وإن أجازه الأصوليون ذاهبين إلى أن القرينة تمنع من الحقيقة وحدها، ولا تمنع من الجمع. قال الشيخ محمد الإنبابى تعليقًا على قول الصبان فى تعريف المجاز: (وقرينة مانعة عن إرادته): (قال العلامة الأمير: منه امتناع الجمع بين الحقيقة والمجاز، ومن أجازه من الأصوليين رأى أن القرينة تمنع من الحقيقة وحدها، أما عموم المجاز فجائز اتفاقًا)(١).

وإذا كان ابن عاشور قد أجاز الجمع بين الحقيقة والمجاز فيما ذكرنا مخالفًا أهل البيان، فإن غيره ممن أجازوا التراخى الرتبى والحقيقى فى المثال الواحد، لم يقولوا بالجمع بينهما، وإنما يرون صحتهما باعتبارين على سبيل التبادل، لا على سبيل الجمع، والممنوع فى المجاز هو إرادة الحقيقة مع المجاز. وذلك ما نبه إليه العصام حين قال تعليقًا على عبارة السعد عند تعريفه للكناية: «فظهر أنها تخالف المجاز من جهة إرادة المعنى الحقيقى مع إرادة لازمه»، قال العصام: (والممنوع هو الجمع بين المعنى ولازمه، على وجه يكونان مقصودين استقلالاً، ولا مانع من الجمع على وجه يكون أحدهما تابعًا للآخر، ووسيلة إلى قصده وفهمه).

إن كثرة ترديد معنى «ثم» بين الحقيقة والمجاز راجع إلى أن قرائن المجاز فيها ليست قرائن لفظية، وإنما هى قرائن مستمدة من أغراض السياق. والفيصل فيها للأذواق وحدها. وذلك ما أثرى معانيها واتسع بدلالاتها وأسرارها، وكأن القرآن يعمد بذلك إلى استثارة العقول والأذواق، وإحماء الشعور لاستقبال الفيض الإلهى بما هو أهله من الوعى والتيقظ، للوقوع على أسرار نظمه، وإدراك مقاصده وأغراضه.

* * *

---

(١) حاشية الإنبابى على الرسالة البيانية ٧٤.

الفصل الثالث

التعقيب والمهلة فى مشتبه النظم

• **نظرة النحاة إلى اختلاف العاطفين**

من روائع مواقع الفاء وثم، وأدلها على إعجاز القرآن فى وضع الحرف موضعه الملائم له، ما تعاورتا فيه مواقعهما من مشتبه النظم الحكيم، ولدقة هذه المواضع وخفاء أسرارها اندفع الباحثون فى معانى الحروف إلى القول بصحة تبادل الحرفين مواضعهما، معللين ذلك بأن المعطوف الممتد زمنه إذا نُظر إلى ابتدائه قصر الزمن بينه وبين ما عطف عليه، فاستحق حرف التعقيب، وإذا نظر إلى انتهائه طال الزمن فاستوجب حرف المهلة. ورائد هذا القول هو الرضى، الذى تلقف تعليله هذا كثير من المفسرين، ورأوا فيه حلا لما التبس عليهم أمره فيما تبادل الحرفان فيه مكانيهما. قال الرضى: (ثم اعلم أن فائدة الفاء للترتيب بلا مهلة لا ينافيها كون الثانى يحصل بتمامه فى زمن طويل، إذا كان أول أجزائه متعقبًا لما تقدم، كقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً**﴾ [الحج: ٦٣]، فإن اخضرار الأرض يبتدئ بعد نزول المطر لكن يتم فى مدة ومهلة، فجيء بالفاء نظرًا إلى أنه لا فصل بين نزول المطر وابتداء الاخضرار، ولو قال ثم تصبح، نظرا إلى تمام الاخضرار جاز، وكذا قوله: ﴿**جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً**﴾ [المؤمنون: ١٣، ١٤] نظرا إلى تمام صيرورتها علقة، ثم قال: ﴿**فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا**﴾ [المؤمنون: ١٤] نظرا إلى ابتداء كل طور، ثم قال: ﴿**ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ**﴾ إما نظرا إلى تمام الطور الأخير، وإما استبعادا لمرتبة هذا الطور، الذى فيه كمال الإنسانية من الأطوار المتقدمة)[١].

وبرغم إعجاب كثير من المفسرين بهذا التعليل للمغايرة بين الحرفين فى المواقع المتشابهة، فإننى أرى أن مثله لا يقنع الباحث عن أسرار المغايرة، وما يشيعه كل حرف فى سياقه من دلالاته الخاصة، فضلا عن أنه لا يجيب عن أهم سؤال،

---

(١) شرح الكافية ٢/ ٣٦٧.

وهو لماذا أوثر كل حـرف فى موضعـه؟ أو بعبارة أوضح: لماذا نـظر إلى الابتداء فجىء بحـرف التعقيب تارة، ونظر إلـى التمام فجىء بحـرف المهلة تارة أخرى؟ إن الإجابة على هذا السؤال هى التى تنكشف بها أسرار الحروف، وبغيرها تصبح مجرد تعليلات تبحث عن تصحيح وقوع الحرف، وتعرض عن بيان وجه البلاغة فيه.

فليست فروق النظم مما تكشف عنها الأحكام العامة، وإنما تُتلمس أسرارها فى دواعى الأحوال، ومقـاصد الكلام التى يوسوس بها السـياق، وهى وحدها التى تقطع بأن هذا الحرف أو ذاك وقع موقعه الذى لا يمكن استبدال غيره به، وتُرجح اعتبارا على اعتبار آخر. وإليك الأمثلة:

● الزمن فى أطوار النبات

فى مقام التهوين من شأن الدنيا، واستقصار نعيمها إلى جانب ما أعده الله من النعيم المقـيم فى الآخرة، أوثرت الفاء فى تصـوير سرعة زوالها، لأنهـا وحدها التى تنهـض بهـذا الدور، فتضـمر الزمن فى أحشائها. وتطوى عـجلاته بسرعة لا تكاد العين تلمح دوراتها، حتى لا يفـيق المشاهد إلا على أجراس نهاية الدنيا وزوال أثرها. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

تأمل قوله ﴿أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾، كيف طوت فيه الفاء ما بين إنزال الماء وتمام الإنبات، وهى مرحلة طويلة ممتدة، فلم تشهد الماء يختلط بالأرض ليحيى مـواتها، وإنما رأينا النبات حيا نامـيا يختلط بالماء لدى نزوله من السـماء، وكأنما النبات نما وأزهر واستوى على سوقه قبل نزول الماء، حتى ينحصر زمن رؤيته فى السـاعة خاطفة، فـلا يكاد يظهر حتى يختـفى من الوجود، وهو الذى جسده الشرط وجوابه «حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فـجعلناها حصيدا» فليس بين اخضرار

الأرض وتزينها بالنبات، وبين إتيان أمر الله المعبر به عن الإهلاك زمن يذكر، لما أن الجواب يتعقب الشرط، وهكذا جاءت الفاء في قوله ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ لتنهي هذا المشهد بمثل ما بدأته في لمحة خاطفة. ويصبح كل شيء أثرا بعد عين. ذلك مثل الدنيا وزهرتها، فما أحمق من يستبدلها بنعيم لا ينقطع، ويتشبث بلحظة زائلة ليلقى نفسه في عذاب مقيم.

وهكذا وبإيقاع أسرع جاء قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٥- ٤٦].

فقد اختلطت رؤية النبات بنزول الماء، ولم تكد العين تقع عليه حيا مزهراً حتى ألفته هشيما يذهب أدراج الرياح، وكما لم تمهل العين للاستمتاع بالنظر فيما أنبتت الأرض، لم يمهل الفكر ليربط بين الماء وأثره في حياة النبات، فعاجل الزمن الفكر بمثل ما عاجل البصر. إنها ظاهرة كونية واحدة أوجد الله بها وأعدم. رياح تمطر فتنبت، ورياح تعصف فتهلك، أرأيت دنيا تقوم وتنفض في مثل ما تبدأ الريح وتنتهي؟! إنها أشبه ببيوت من الرمال يلهو بها الطفل، فهي تتهدم حالما تبنى.

يقول المرحوم سيد قطب: (وقد استخدم النسق اللفظي في تقصير عرض المشهد، كما استخدمت وسيلة العرض الفنية لهذا الغرض، فهذا التعقيب الذي تمثله هذه الفاء في تتابع المراحل، يتفق مع طريقة العرض السريعة. ثم هذا الماء النازل لا تختلط به الأرض فتنبت، بل يختلط به نبات الأرض مباشرة، وهذه حقيقة، ولكنها حقيقة تعرض في الوضع الخاص الذي يحقق السرعة المطلوبة)[1].

---

(١) التصوير الفني ١٠٨.

ولعلك تسأل لم كان الإيقاع هنا أسرع من المثل السابق، ومشهد تصويره أقصر؟ والجواب أنه جاء عقب حوار بين كافر يتباهى بجنته، ويقطع بأنها لن تبيد أبدا، ومؤمن يحذره من عقاب الله تعالى، لينتهي هذا الحوار بقوله تعالى على لسان المؤمن: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف: ٤٠ - ٤٢].

فكما لم يمهل صاحب الجنة حتي يقلب بصره في جنته قبل أن يقلب كفيه حسرة على ضياعها، كذلك جاء ضرب المثل للحياة الدنيا في سرعة إيقاع سابقه، وكلاهما مثل لزهرة الدنيا وسرعة زوال نعيمها.

قلت: إن الدنيا أشبه ببيوت من الرمال يبنيها طفل على شاطئ ليلهو بها، فتنهدم حالما تبنى، لكن الطفل لا ييأس من معاودة البناء كلما عاودها الهدم، وكأنه يرى متعته فيما يُعجب الناظر إليه من صبره وطول أمله.

أتراني قد بعدت من قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

إنه تصوير للدنيا من داخل نفس الغارق في ملذاتها، المخدَّر بزخرفها وزينتها، المتشبث بالأمل في بقائها. إنه نفس الطفل الذي يلهو بما يصنعه من بيوت الرمال، لا يمل من إعادة البناء، ولا يفقد الأمل في أن تثمر محاولاته عن بيت يدوم له البقاء. إن الفرق بين الأمثلة السابقة التي ضربها الله للدنيا وبين هذا المثل، كالفرق بين إحساس الطفل في استمتاعه بما يبني ويعيد من بناء دون أن يتطرق إليه اليأس، وبين ما يراه الراقب له المتعجب لصبره وطول أمله، فهذا

الأخير يرى الدنيا على حقيقتها، بناء يتهدم بنفس السرعة التي يبنى بها، وذلك الطفل يراها رخيّة طويلة يلهو بها ما وسعه الوقت للهو ويتشبث بالبقاء وطول الأمل.

لذلك جاء حرف التراخي ليعكس صورة الدنيا في أعماق نفس اللاهي بها، فيطيل زمن إعجاب الكفار بنباتهم، رمزا إلى استغراقهم في ملذات الدنيا، وغفلتهم عما وراءها، ويدخل مرة ثانية بين اصفرار النبات وصيرورته حطاما، ليرمز إلى طول الأمل والتشبث ببقائه، حتى وهم يرون نهايته في ذبوله واضمحلاله. وكأنهم أرادوا الاستمتاع بالدنيا إلى آخر لحظة فيها وفي أعمارهم. لذلك قابل الله طول الغفلة بمضاعفة العذاب «وفي الآخرة عذاب شديد».

ففي الأمثلة السابقة تصوير لحقيقة الدنيا كما يراها خالقها، وفي هذا المثل تصوير لها من خلال أعين الغارقين فيها، المستمتعين بلهوها ولعبها، وكان حرفا التعقيب والتراخي أداتي ضبط المسافات في عدسة التصوير، تقرّب وتبعّد، وتكبّر وتصغّر طبقا لما يراه المصور.

وقد كان صاحب التصوير الفني دقيقا حين ربط بين أداة العطف وما يراد لها أن تؤديه لتحقيق أغراض الكلام ومقاصده، فقال: (فالصورة المعروضة لقصر الحياة متحدة تقريبا مع الصورة الأولى، ولعل هذا يخيل للبعض أن هناك تكرارا كاملا، ولكن الواقع أن هناك اختلافا دقيقا. إنه أطال عرض شريط الحياة الدنيا -كما يراه الكفار- فهى لعب ولهو، وزينة وتفاخر بينكم، وتكاثر في الأموال والأولاد، ليقول: إن هذا الذي تعجبون به كله، وهذا الذي تستطيلون أمده، إنما هو في حقيقته قصير زائل)[1].

لقد قلت من قبل: إن هناك فارقا بين تصوير حقيقة الزمن، وتصوير الإحساس به، وضربت لذلك مثلا بقوله تعالى في قصة العزير ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩]

(١) التصوير الفني ١٠٩.

فعبر الله فيما حكاه عن حقيقة الزمن، وجاء بثم الدالة على طول زمن موته، وعبر العزير عن إحساسه بـه فرآه يوما أو بعض يوم، فصدق فى التعبير عما أحس به، وإن كان مخالفا لحقيقة الزمن، وهذا هو الفرق بين حقيقة الدنيا كما يريد الله أن يراها أولو الألباب، وبين إحساس الغارق فيها، المستطيل لأمدها حتى لم يعد يرى ما وراءها.

ثم انظر كيف يؤثر الله حرف المهلة فى مجال الامتنان بنعمة نزول الماء وأثره فى حياة الإنسان والنبات، فيطيل المشهد ويبطئ فى إيقاعه، ليتيح الفرصة للتدبر وإدراك عظيم قدرة الله تعالى، فيما نشاهد من عجائب صنعه، كما فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١]

فهذا مجال التذكر وإنعام النظر، وذلك يناسبه مط الزمن، وعرض المشهد فى بطء، ليدرك المشاهد تفاصيله، ويقع على ما خفى ودق منه، لذلك لم يعقب نزول الماء خروج النبات، وإنما نبه إلى أمر هو من أعظم دلائل القدرة، وإن غاب عن النظر، لكثرة دورانه على الحس، وهو قوله ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾ فأراك مرحلة طواها فى الأمثلة السابقة، وهى حركة الماء يجرى أنهارا فوق سطح الأرض، أو يتسرب إلى باطنها، فيجرى تحت طباقها ليمثل مخزونا يتفجر آبارا وعيونا، وقد جاء حرف المهلة فى قوله ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ ليطيل زمن التأمل فى الماء وهو يأخذ طريقه إلى باطن الأرض، يمهد لخروج النبتة الصغيرة، ويشق لها حجب الأرض، ويزيل عن سطحها أثقال الركام، وكل ما يعيق طريقها إلى النور والهواء، وكأن الماء لا يروى ظمأها فحسب، وإنما يفتح لها نوافذ الخروج إلى الحياة، وهذا هو سر التعبير بالإخراج، ولما كان الزرع باختلاف ألوانه يستدعى طول التأمل والنظر، فيما أبدع الله من هذا التنوع فى الألوان والطعوم والروائح فى نبات تحتضنه تربة واحدة، ويسقى بماء واحد، دخلت ثم فيما عطف

عليه لتطيل زمن المشاهدة ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ حتى هذه المرحلة من الشيخوخة لا يستعجل القرآن فى عرضها، لأنها طور من أطوار النبات، فلا يتعجل بنهايته قبل بلوغ الغاية التى أرادها الله ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ وفى تأملها ضرب من الاستبصار.

إنه مقام الدعوة إلى تدبر أسرار الخلق، وتأمل بدائع الصنعة، والوقوف على جلائل النعم، وما سخر الله تعالى للإنسان من مقومات الحياة، (فبطء عرضها، ولُبث صورها)، وتملى مشاهدها، أجدر بالموقف ولهذا تستمتع بكل هذا الوقت الطويل)[1] وليس سوى حرف المهلة أداة ربط أخرى قادرة على الوفاء بهذا الغرض.

● الزمن فى أطوار الإنسان

أمَّا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤] وهو الذى علل الرضى اختلاف العاطف فيه باختلاف النظر إلى بداية الطور أو تمامه، فإنه بحاجة إلى تحقيق، لأن اختلاف الاعتبارات فى النظر -على فرض التسليم به- تابع لاختلاف الدواعى والأغراض، وفيه يكمن السر فى إيثار حرف على آخر. لأن مدة كل طور من النطفة والعلقة والمضغة -كما حددها الرسول عليه السلام- هى أربعون يوما، فإما أن تستقصر جميعها فيؤتى بحرف التعقيب، أو تستطال جميعها فيجتلب لها حرف المهلة. أما أن ينظر إلى بداية الطور تارة وإلى تمامه تارة أخرى فذلك لابد له من موجب، وهو ما لم يكشف عنه الرضى، لذلك رأى الشهاب أن مثل هذا الجواب ناقص، وأن تمامه فيما صرح به البيضاوى بقوله: «واختلاف العواطف لتفاوت الاستحالات» فقال الشهاب تعليقا عليه: (يعنى عطف بعضها بثم الدالة على التراخى، وبعضها بالفاء التعقيبية، مع أن

(١) التصوير الفنى ١١٢.

الوارد فى الحديث من أن مدة كل استحالة أربعون يوما يقتضى أن يعطف الجميع بثم إن نظر لتمام المدة، أو لأولها، أو بالفاء إن نظر لآخرها، كما قال النحاة: إن إفادة الفاء الترتيب بلا مهلة لا ينافى كون الثانى يحصل بتمامه فى زمان طويل، إذا كان أول أجزائه متعقبا لآخر ما قبله، وهذا يصحح عطف بعضها على بعض بثم، وبعضها بالفاء. لكنه لا يتم به الجواب -كما توهم- إذ لابد من المرجح للتخصيص، وإليه أشار المصنف بقوله: «لتفاوت الاستحالات» يعنى أن بعضها مستبعد حصوله مما قبله، وهو المعطوف بثم، فجُعل الاستبعاد عقلا أو رتبة بمنزلة التراخى والبعد الحسى، لأن حصول النطفة من أجزاء ترابية غريب جدا، وكذا جعل تلك النطفة البيضاء دما أحمر، بخلاف جعل الدم لحما مشابها له في اللون والصورة، وكذا تثبيتها وتصليبها حتى تصير عظما، لأنه قد يحصل ذلك بالمكث فيما يشاهد، وكذا مد لحم المضغة عليه ليستره)[1].

فالتراخى بين النطفة والعلقة تجوز بالاستبعاد، للدلالة على تفاوت ما بين الخلقين، أما خلق المضغة من العلقة وتحويل المضغة عظاما فليس بينها من التفاوت والبعد ما بين النطفة والعلقة، لذلك دخلت الفاء بينها.

وهذا كلام وجيه لو أنه أطَّرد فى الذكر الحكيم. لكن يعكر عليه ما جاء فى سورة الحج من قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ [الحج: ٥] فقد دخلت «ثم» بين المضغة والعلقة. وليس بينهما من التفاوت والبعد ما يستدعى حرف المباعدة كما قال.

ولصاحب المنار كلام أكثر دقة فى الكشف عن سر اختلاف العواطف فى الموضع الأول. قال (فالسلالة المستخرجة من الطين هى المكون الأول الذى يعبرون عنه بلسان العلم الآن بالبروتوبلازما، ومنها تكون أصلنا فى ذلك الطور،

---

(١) حاشية الشهاب ٦/ ٣٢٣.

لأنه تعالى يقول: خلقه من تلك السلالة، ثم انتقل إلى طور التولد بواسطة النطفة في القرار المكين، وهو الرحم، ثم انتقل إلى طور تحول النطفة إلى علقة، والعلقة إلى مضغة، والمضغة إلى هيكل من العظام يكسى لحما، وقد عد هذا طورا واحدا، ثم أنشأه خلقا آخر، وهو آخر أطواره) (١).

فالعلقة والمضغة والعظام طور واحد، ولذلك دخلت الفاء بين مراحله للدلالة على اتصالها، ودخلت ثم بين الأطوار الأخرى للدلالة على تباينها، وشدة التفاوت بينها. يدل لذلك ما جاء في سورة غافر في بيان أطوار خلق الإنسان، حيث اكتفى بالعلقة عن المضغة والعظام، وجعلها طورا مستقلا، ولو كانت كل من المضغة والعظام طورا قائما بذاته، لما كانت صالحة للاختزال. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [غافر: ٦٧]. فالتقت هذه الآية مع ما جاء في سورة المؤمنون من بيان الأطوار الأربعة: السلالة، وهي التراب، والتولد بواسطة النطفة، ومراحل تكون الجنين في بطن الأم، وإخراجه طفلا، المعبر عنه هناك بالخلق الآخر، فلم يختزل من الأطوار الرئيسة شيئا، واختزل من طور تكوين الجنين بعض مراحله.

يبقى بعد ذلك بيان السر في عطف المضغة على العلقة في سورة الحج بثم، مع أنها مرحلة متصلة بها، داخلة في طورها.

وأراه -والله أعلم- نابعا من اختلاف الخطاب، فالخطاب في الموضع الأول للمؤمنين وهم الذين استهلت بهم السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢] وتتابعت أوصافهم التي أورثوا بها الفردوس الأعلى، إلى أن جاءت قصة الخلق هذه ليكشف الله تعالى فيها للمؤمنين عن أسرار خلق الإنسان، وأطوار تكونه بدءا من أصل سلالته، وانتقالا إلى طور التولد، ومرورا بتفصيل مراحل نموه في بطن أمه، وانتهاء بخلقه بشرا سويا.

---

(١) تفسير المنار ٣/ ٢٦٣.

فالمقام مقام إعلام، سيقت فيه للمخاطب أطوار الخلق بحقائقها وتفاصيل مراحلها، ليعلم بها ما كان جاهلا، وينكشف له ما كان خافيا، والمخاطب هنا باحث عن المعرفة، مستقبل لها استقبال الموقن بصدق الخبر.

أما آية الحج فالمخاطب فيها منكر للبعث وسيقت له قصة الخلق لبيان قدرة الله تعالى على الإحياء بعد الإماتة، فاستدعى مقام الإنكار تعديد الأطوار، وإبراز مراحل الطور الواحد فى صورة أطوار متعددة، باعد بينها حرف التراخى، ليظهر عظيم قدرة الله فى أنه يخلق الشىء من أبعد ما يكون عنه مادة وجنسا، وما يستحيل فى العقل والعادة أن يكون منه، كما يستحيل أن يكون التراب ماء، أو يتحول الماء دما، أو يصير الدم الجامد لحما تنبض فيه الحياة. حتى يخجل المعاند حين يرى فى كل طور من أطوار خلقه ما هو أعظم من البعث، ويرعوى عن مكابرته، ويسلم بأن الذى بدأ هذا الخلق هو الذى يعيده، وهو أهون عليه، ولله المثل الأعلى فى السموات والأرض. ألا ترى كيف بدأت آية الحج بهذا الخطاب ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ..** ﴾ [الحج: ٥] إن هذا الخلق فى كل طور من أطواره يشهد بقدرة الله تعالى على البعث، بل إن أقل المراحل بعدا، وأقربها إلى الاتصال، وهى الانتقال من العلقة إلى المضغة لهى مستبعدة فى حكم العقل، فلا تستحيل العلقة مضغة إلا على يد قادر عظيم، لا يستبعد من مثله أن يعيد الخلق كما بدأه، فكان حرف التراخى هو الأجدر بمقام التعديد والاستبعاد، وبه صارت المضغة طورا آخر مباينا للعلقة، فى قوله (ثم من مضغة) فى حين دخلت الفاء فى خطاب المؤمنين المصدقين، لتصل بين مراحل الطور الواحد، وذيلت قصة الخلق فى خطابهم بقوله (فتبارك الله أحسن الخالقين) لتلهج ألسنتهم بما أيقنت به قلوبهم، وشفعت قصة الخلق فى خطاب المنكرين بقوله: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⁽٦⁾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ** ﴾ [الحج: ٦-٧]. فكان اختلاف الخطاب سبيلا إلى اختلاف العواطف.

ومما اختلفت فيه العواطف من مشتبه النظم الكريم، قوله في سورة الكهف: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧]، فعطف الإعراض على التذكير بالفاء، في حين عطف بثم في قوله تعالى من سورة السجدة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

والحقيقة أن الإعراض أعقب التذكير في الحالتين، فالموضع موضع الفاء، وقد اقترض حرف المهلة موضع الفاء، مرتديا ثوب المجاز بالاستبعاد، إيماء إلى سفه المعرضين، ومخالفتهم لما يقضي به العقل والمنطق من لين القلوب بالتذكير، واستجابتها لدعوة الحق. هكذا علل أهل البيان من المفسرين دخول ثم في هذه الآية، لكنهم سكتوا عن بيان السر في ترك هذه المبالغة في التشديد والإنكار المفادة بحرف المهلة في سورة الكهف، حيث جيء بالفاء الدالة على المسارعة، وهو ما هدى الله تعالى الخطيب الإسكافي إلى بيانه، من خلال الربط بين دلالات الحرف ومقتضيات السياق. يقول الخطيب: «والجواب أن يقال: إن الفاء وثم مشتركان في أن ما بعدهما في اللفظ متأخر عما قبلهما في المعنى، ومختلفان في أن في الفاء قرب ما بعدها مما قبلها، وفي ثم تراخيا عنه وبعدا، فكان استعمال الفاء في سورة الكهف أولى، واستعمال «ثم» هناك أحق وأحرى. وذلك أن ما في سورة الكهف في ذكر قوم يُدْعون إلى الإيمان، ولم تختم أعمالهم بالكفر، لقوله تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦]. فكأنهم عقبوا التذكير بآيات الله الإعراض. وقبولهم للدين، وإقبالهم عليه مرجوان منهم، وليس كذلك «ثم أعرض عنها» لأن الآية في وصف الكفار بعد موافاتهم القيامة، لقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٢١ - ٢٢] أي ذُكّر مدة

عمره بآيات ربه، وتطاول الأمر بزجره ووعظه، ثم ختم ذلك بترك القبول وبالإعراض، فكان هذا قولا يقال فيهم عن الانتقام منهم»[(١)].

ولا يضير الإسكافي أن أجرى «ثم» على حقيقتها بخلاف الزمخشري ومن لف لفَّه، ممن جعلوها مجازا بالاستبعاد، لأنهما يلتقيان في أنها أكثر تشديدا وزجرا من الفاء، والإعراض بها أقبح وأفظع، إما لغرابته وبعده في ترتبه على ما يوجب الإقبال، كما هو مدلول المجاز، وإما لما فيه من الإصرار والتمادي على الباطل بعد طول التذكير، كما هو مفهوم الحقيقة.

● تعجيل النظر وتأجيله

ومن عجيب المغايرة في مشتبه النظم، تلك الآيات التي دعا الله فيها إلى السير في الأرض للنظر في آثار الهالكين، والاتعاظ بمصائرها، فعطف النظر على السير بالفاء في أحد عشر موضعا، وعطف بحرف التراخي مرة واحدة، فمما عطف بالفاء قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [ثلاثة مواضع: يوسف ١٠٩، وغافر ٨٢، ومحمد: ١٠]. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ في ثلاثة مواضع أخرى: الروم: ٩، وفاطر: ٤٤، وغافر: ٢١] وجاء بصيغة الأمر ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧، والنحل: ٣٦]. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩] ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم: ٤٢].

والمرة الوحيدة التي عطف فيها بحرف المهلة قوله تعالى من سورة الأنعام: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]. فتكاثرت الآراء في بيان سر هذه المخالفة. قال الزمخشري: «فإن قلت: أي فرق بين قوله «فانظروا» وبين قوله «ثم انظروا»؟ قلت: جعل النظر مسببا عن السير في قوله «فانظروا» فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين. وأما قوله «سيروا في الأرض ثم انظروا» فمعناه إباحة السير في

---

(١) درة التنزيل ٢٨٣.

الأرض للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر فى آثار الهالكين. ونبه على ذلك بثم لتباعد ما بين الواجب والمباح»[١].

فجعل التعقيب دليلا على إخلاص السير لأجل النظر، والتراخى دليلا على الانشغال بأعمال أخرى مباحة كالتجارة وغيرها قبل النظر، وهو كلام يحتاج إلى تعليل اختيار «ثم» لهذا الموضع وحده، لتدل على ما دلت عليه من إباحة السير للتجارة وغيرها. وهو الذى دفع أبا حيان إلى اعتراضه بقوله: « ودعوى أن الفاء تكون سببية لا دليل عليها، وإنما معناها التعقيب فقط، وأما مثل: ضربت زيدا فبكى، وزنى ماعز فرجم، فالتسبيب فهم من مضمون الجملة، لا لأن الفاء موضوعة له، وإنما يفيد تعقيب الضرب بالبكاء، وتعقيب الزنا بالرجم فقط، وعلى تسليم أن الفاء تفيد التسبيب، فلم كان السير هنا سير إباحة وفي غيره سير واجب؟ فيحتاج ذلك إلى فرق بين هذا الموضع، وبين تلك المواضع»[٢].

وبالرغم من أننا لا نوافق أبا حيان على سلب معنى السببية من الفاء وهو الذى أثبته جمهور النحاة، فإننا نرى اعتراضه على اختصاص «ثم» بهذا الموضع دون تفسير سبب اختصاصها به وجيها. ولذلك لم يسترح صاحب الإنصاف إلى تأويل الزمخشرى، ذاهبا إلى التجوز فى حرف المهلة بالتراخى الرتبى، فقال: (وأظهر من هذا التأويل أن يجعل الأمر بالسير فى المكانين واحدا، ليكون ذلك سببًا فى النظر، فحيث دخلت الفاء فلإظهار السببية، وحيث دخلت «ثم» فللتنبيه على أن النظر هو المقصود من السير، وإن السير وسيلة إليه لاغير، وشتان بين المقصود والوسيلة»[٣].

لكن هذا أيضا لا يدفع اعتراض أبى حيان، إذ يبقى السؤال قائما، وهو لماذا خصت آية الأنعام بجعل النظر هو المقصود والسير وسيلة إليه؟

والأولى فى نظرى حمل ثم على حقيقتها، والبحث في دواعى السياق ومقتضياته عن السر في تراخى النظر فى هذه الآية، وهو ما وقع عليه صاحب درة

(١) الكشاف ٢/ ٧.

(٢) البحر المحيط ٤/ ٨١ (٣) الإنصاف ٢/ ٧.

التنزيل، وكشف عنه في عبارة دقيقة واضحة: «فقوله في سورة الأنعام: «قل سيروا في الأرض ثم انظروا» لم يجعل النظر فيه واقعا عقيب السير، متعلقا وجوده بوجوده، لأنه بعث على سير بعد سير، لما تقدم من الآية التي تدل على أنه تعالى حثهم على استقراء البلاد، ومنازل أهل الفساد، وأن يستكثروا من ذلك ليروا أثرا بعد أثر، في ديار، بعد ديار، قد عم أهلها بدمار، لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦] ثم ذكر في قوله «كم أهلكنا من قبلهم من قرن» يعني قرونا كثيرة قبلهم أهلكناها، ثم قال «وأنشأنا بعدهم قرنا آخرين» فدعا إلى العلم بذلك بالسير في البلاد ومشاهدة هذه الآثار، وفي ذلك ذهاب أزمنة كثيرة، ومدد طويلة تمنع النظر من ملاصقة السير، كما قال في المواضع الأخرى التي دخلتها الفاء، لما قصد من معنى التعقيب واتصال النظر بالسير، إذ ليس في شيء من الأماكن التي استعملت فيها الفاء ما في هذا المكان من البعث على استقراء الديار»(١).

فليس التراخي في النظر دليل الانشغال بغيره، وإنما استدعاه الإكثار من السير وتفقد آثار الأمم الكثيرة البائدة في العصور المتباعدة، واستيفاء الإحصاء والوقوف على المقدمات قبل الوصول إلى النتائج، لأن النظر المراد هنا نظر الفكر والتأمل، فلما كانت الدعوة إلى السير متسعة في هذا الموضع زمانا ومكانا بقدر اتساع الهالكين وآثارهم تراخت الدعوة إلى النظر، حتى لا تكون نظرة عجلى حمقاء تحمل الكل على الجزء.

● أثر الزمن في مضاعفة العذاب

ومن دقيق ما اشتبه نظمه وغوير فيه بين العواطف. قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا

(١) درة التنزيل ١١٢

فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات: ٦٢- ٦٧].
فعطف الشرب على الأكل بحرف المهلة. وفى سورة الواقعة جاء قوله عز وجل:
﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥١- ٥٦]. فعطف الشرب بحرف التعقيب، مع أن المأكول منه فى الموضعين واحد، وهو شجرة الزقوم، وفيهما معا يأكلون حتى تمتلئ بطونهم، فما سر هذا الاختلاف؟

لقد ذكر الزمخشري وجهين للتراخى فى سورة الصافات، ذهب فى أحدهما إلى الحقيقة، وفى الثانى إلى المجاز، والسر فى الأول زيادة تعذيبهم بالعطش، وفى الثانى التدرج فى التعذيب، والارتقاء إلى ما هو أكره وأبشع. يقول جار الله فى بيان الوجهين: (أحدهما أنهم يملأون البطون من شجر الزقوم، وهو حارّ يحرق بطونهم ويعطشهم، فلا يسقون إلا بعد ملئ، تعذيبا بذلك العطش، ثم يسقون ما هو أحر، وهو الشراب المشوب بالحميم. والثانى أنه ذكر الطعام بتلك الكراهة والبشاعة، ثم ذكر الشراب بما هو أكره وأبشع، فجاء بثم للدلالة على تراخى حال الشراب عن حال الطعام، ومباينة صفته فى الزيادة عليه) (١).

إلا أن القول بالتراخي الزمنى يأباه ما جاء فى الموضع الآخر معطوفا بالفاء، وهو ما كان مثار الاعتراض عليه. قال الألوسى: (واعترض بأنه يأباه عطف الشرب بالفاء فى قوله تعالى: ﴿فمالئون منها البطون. فشاربون عليه من الحميم﴾ فلابد من عدم توسط زمان. وأجيب بأنه يجوز أن يكون الشراب الممزوج بالحميم متأخرا بزمان عن ملئهم البطون، دون شرب الحميم وحده. وكذا يجوز أن يكون الحال مختلفا، فتارة يتأخر الشرب مطلقا زمانا، وأخرى لا يتأخر كذلك. وقال بعضهم: ملؤهم البطون أمر ممتد، فباعتبار ابتدائه يعطف بثم، وباعتبار انتهائه بالفاء) (٢).

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٤٢.
(٢) روح المعانى ٢٣/ ٩٦.

ولا يخفى عليك أن هذه التجويزات تعليلات جدليَّة، وتصورات لادليل عليها، كما أن القول الأخير بامتداد زمن ملء البطون، وأن المغايرة راجعة إلى اختلافات النظر بين الابتداء والانتهاء لا يفسر وجه اختلاف الاعتبارات. فهل يصح أن يعكس الأمر وينظر إلى الابتداء فى سورة الواقعة، فيقال: ثم شاربون عليه من الحميم، بوضع حرف المهلة موضع حرف التعقيب، أو يقال فى سورة الصافات: فإن لهم عليها لشوبا، بوضع الفاء موضع ثم؟

إذا كانت الإجابة نعم، فإنه يخرج عن دائرة النظم المعجز، الذى لا يمكن أن يستبدل فيه حرف بآخر دون أن يتغير المعنى ويختلف الغرض. وإذا أجيب بلا، رجعنا إلى ما بدأنا به وهو لماذا؟ وما سر كلٍّ فى موضعه؟

وأراه -والله أعلم- أن الحديث فى سورة الصافات كان منصبا على شجرة الزقوم، والتهويل من شأنها. وتفظيع الأكل منها، بدليل أن الحديث بدأ بالتأول عنها، وبيان أوصافها مستغرقا خمس آيات، وعطف الشرب على الأكل منها فى آية واحدة، واتسمت أوصافها بما يبعث الرعب والفزع من شكلها ومآكلها، وحفلت بشتى وسائل التوكيد والإيضاح، حتى بدت وكأنها أفظع ما فى الجحيم من ألوان العذاب. ألا ترى إلى قولة: ﴿إنا جعلناها﴾ وما فيه من ضمائر المعظم ذاته، إلى ما فيه من التوكيد، مما يصبغ المجعول بسطوة المتكبر الجبار، وقوله ﴿إنها شجرة﴾ بما يبثه ضمير القصة مع التوكيد والتنكير من غرابة وغموض مخيفين، ثم هذا التشبيه الغريب المدهش «طلعها كأنه رءوس الشياطين» بما يوحيه من أنه لم تقع عين فى دنيا المرئيات على شبه لها فظاعة وقبحا، حتى انتزع لها مما استقر فى أوهام الناس ما هو أقبح الأشياء صورة وأشدها هولا؟!.

فلما كان الغرض هو تفظيع هذه الشجرة والتهويل من شأن الأكل بها، كانت إطالة زمن الأكل منها هى الأنسب بهذا الغرض، وكأنهم كلما آلمهم الأكل منها، واشتد بهم العطش ليطفئوا من نارها فى بطونهم زيدوا من الأكل منها تشديدا فى العذاب عليهم، بخلاف السياق فى آية الواقعة، حيث كان الغرض أن يجمع

للضالين بين ألوان من العذاب، متمثلة فى شر المآكل والمشرب، وبولغ هناك فى الشرب بدليل تكراره، فدخلت الفاء للترقى من عذاب شديد فيما يأكلون إلى عذاب أشد فيما يشربون.

•• المجازاة بين المبادرة والإمهال

ومن مواضع المغايرة كذلك ما عطف فيه الإنباء بالعمل على الرجوع إلى الله بالفاء فى جميع ما جاء بالذكر الحكيم، عدا موضعا واحدا عطف فيه بحرف التراخى. فمما عطف بالفاء قوله تعالى خطابا لليهود: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨]، وقوله خطابا للمشركين: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٧]

أما العطف بثم فقد جاء مرة واحدة فى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠]

وقد تطلبت تفسيرا للمخالفة فى سورة الأنعام التى انفردت بحرف التراخى، فلم أعثر على ضالتى فى كل ما قرأت، ولم يقرنه أحد بموضع من مواضع الفاء ليستجلى سر المغايرة. وقد هدانى الله تعالى بعد طول تأمل ومراجعة إلى ما أرجو أن يكون مقصدا من مقاصد النظم فى إيثار حرف التراخى.

ذلك أن الرجوع إلى الله فى غير آية الأنعام، يقع كناية عن لقاء الله للمجازاة على عمله، وإنباء الله المجازين بعلمهم ضربٌ من المحاسبة يعقب الرجوع إلى الله يوم القيامة، فهو كقوله: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩] فدخلت الفاء للدلالة على أن الحساب يعقب الرجوع إلى الله بلا تراخ، والدليل على ذلك أن الآية الأولى التى خوطب بها اليهود من سورة الجمعة، عطف فيها ردهم إلى

عالم الغيب والشهادة، على ملاقاة الموت للفارين، فالرد إلى الله بالقطع ليس كناية عن الموت، لأنه عطف عليه، و«ثم» فيه لتراخي الزمن بين ردهم إلى الله يوم القيامة وموتهم. فعطف الإنباء عليه بالفاء لتعقبه ردهم إلى ربهم.

وكذلك قوله تعالى في الزمر ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ كنى به عن مثولهم بين يديه للمحاسبة والمجازاة، لأنه تهديد بالمؤاخذة والجزاء على الشكر والكفر، وقد أعقب ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الذي يلائمه أن يكون الرجوع هو المجازاة والفصل بين أصحاب الأوزار، وأخذ كل بما جنت يداه، لا بما جنت يد غيره. لذلك قال الرازي: (ثم بين أحواله بعد الموت بقوله ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾)(١) فصرح بأن الرجوع من أحوال القيامة، وجعله دليلا عليها وعلى البعث، فكان عطف ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالفاء، إشارة إلى سرعة المحاسبة والجزاء.

أما آية الأنعام فقد اختص الرجوع فيها بالكناية عن الموت، ووقع الإنباء بالعمل كناية عن المجازاة، وهو ما صرح به البيضاوي في قوله (﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ بالموت، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمجازاة عليه)(٢) فكان ذلك موقع حرف المهلة لما بين الموت والمجازاة يوم القيامة من زمن طويل ممتد، فالتراخي على حقيقته، وذلك موضعه الذي لا يصلح فيه سواه.

لكن يبقى أن يقال: لم خصت آية الأنعام بجعل الرجوع إلى الله كناية عن الموت، دون سواها؟ والجواب على ذلك هو أن الآية رد على منكري البعث، وفيها ضرب الله المثل للإماته والإحياء في شخص المنكر نفسه، وفيما يتكرر عليه صباح مساء، مما أحاله دوام المشاهدة والتكرر على الحس إلى عادة خفي معها الدليل الماثل على إمكان البعث، فما النوم إلا ضرب من الموت، ونموذج له، يفقد فيه النائم أهم خصائص الأحياء من الإحساس والتمييز. وما اليقظة سوى بعث وإعادة، يسترد معها المستيقظ مقومات الحياة التي سلبت منه بالنوم، لذلك سمى الله النوم وفاة، واليقظة بعثا، ثم جعلهما نموذجا ودليلا على الموت، المعبر

---

(١) تفسير الرازي ٢٦/٢٤٨. (٢) تفسير البيضاوي ٢/٧٥.

عنه بالرجوع إلى الله، والبعث المدلول عليه بالمجازاة والمحاسبة، في قوله ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلو اختصرت مرحلة الموت، وجعل الرجوع والإنباء بالعمل معا كناية عن المجازاة والمحاسبة يوم القيامة، كما في الآيات الأخرى، لما تطابق المثل والممثَّل له. وهذا أروع دلائل الإعجاز في وضع الحرف موضعه الذي لا تتحقق أغراض النظم بحرف سواه.

• تطويع الزمن لأغراض النظم

ومما دق أمره وخفي وجه المغايرة فيه ما جاء على لسان النبي الكريم تحديا للمشركين وشركائهم، وما جاء على لسان هود متحديا قومه وآلهتهم، قال تعالى في النعي على المشركين، وأمره للنبي بتحديهم وشركاءهم: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩١- ١٩٥]. فعطف طلب الكيد بثم. وعدم الإنظار بالفاء.

وجاء على العكس في تحدي هود، فعطف طلب الكيد بالفاء، وعدم الإنظار بحرف المهلة. قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٣- ٥٥].

وحين نفتش عن سبب هذه المغايرة، فيما يبدو كالموضع الواحد، نجد أن سورة الأعراف سبق فيها التحدي بتحقير الشركاء، والنعي على عقول عبدتها، لأنهم يعبدون مخلوقين أمثالهم، لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا، فضلا عن

أن يضروا عابديهم أو ينفعوهم، لذلك أمر المشركين أن يدعوا هؤلاء الشركاء، ويتضامنوا معهم في الكيد له، وأمهلهم من الزمن ما يتيح لهم فرصة الاستعداد والاحتشاد له، فعطف الأمر بالكيد على الأمر بدعوة شركائهم بحرف المهلة، إمعانا في الاستهانة بالشركاء، وعدم مبالاة بكيدهم، وجاء عطف عدم الإنظار بالفاء، إغراقا في التحدى والاستهانة، حين لا يطلب لنفسه نفس المهلة للرد على كيدهم، فطلب معاجلته بالقضاء عليه إن استطاعوا، وفي ذلك من التحقير والتهكم ما لا مزيد عليه.

أما في سورة هود فإنهم صرحوا بأن آلهتهم قادرة على إنزال الضرّ به، والكيد له، بل إنهم ادعوا حدوث ذلك في قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ فإذا كانوا يثبتون لآلهتهم هذه القدرة على إنزال البشرية، فليس بحاجة إلى أن يطلب منهم دعوتها، وإمهالهم لحشد قواهم، فهم قد بدءوا حربه بالفعل، فطلب منهم التعجيل بالكيد له والقضاء عليه، فأدخل الفاء على الأمر بالكيد، لتدل على طلب المبادرة به، لما أن آلهتهم مستعدة لعقابه على ما زعموه، فكان الإمعان في التحدى أن يمهلهم وآلهتهم ليبلغوا بالكيد غايته، ويستنفدوا معه كل أسلحتهم، لذلك دخلت «ثم» بين الكيد وعدم الإنظار، لتطيل زمن الكيد وترخى لهم العنان فيه، حتى يكون عدم إمهاله هو الغاية والهدف الأسمى من الكيد، على ما يفيده التراخى الرتبى.

وانظر إلى هذا الإعجاز في التناغم بين المهلة الزمنية التي أشاعتها «ثم» على فعل الكيد، وبين إثبات ياء المتكلم في قوله «فيكدوني» لتطيل زمن النطق بالكلمة مع طول النطق بثم، فيتسق طول النطق في التعبير مع طول الزمن في الإمهال.

وبالمقابل حين قصَّر زمن الكيد بالعطف عليه بالفاء تجاوب قصر الزمن في نطق الفاء مع حذف الياء في قوله ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ ليتناغم قصر العبارة مع قصر زمن الكيد. وهذا آية من آيات الإعجاز في الذكر الحكيم.

فسبحان من لا تحيط بأسرار بيانه الأفهام وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

- الأزهية فى علم الحروف- على بن محمد الهروى- مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق- ت عبد المعين الملوحى ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.
- أسباب النزول- أبو الحسن الواحدى- نشر مكتبة الجمهورية العربية- الصناديقية بالقاهرة.
- الأطول- عصام الدين الإسفرايينى- المطبعة العامرة- ١٢٨٤هـ.
- أمالى ابن الشجرى- هبة الله بن على بن محمد الحسنى العلوى- ت. د. محمود الطناحى- مكتبة الخانجى- القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٢م.
- إملاء ما منَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات. أبو البقاء العكبرى- دار إحياء الكتب العربية- القاهرة.
- الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال- ابن المنير الإسكندرى- بحاشية الكشاف- مطبعة مصطفى البابى الحلبى ١٣٩٣هـ- ١٩٧٢م.
- البحر المحيط- أبو حيان الأندلسى- دار الفكر للطبع والنشر الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
- البرهان فى علوم القرآن- الإمام بدر الدين الزركشى- ت محمد أبو الفضل إبراهيم- دار الجيل- بيروت ١٩٨٨م.
- البلاغة العالية- عبد المتعال الصعيدى- مراجعة د. عبد القادر حسين - مكتبة الآداب ومطبعتها - الطبعة الأولى ١٩٩١م.
- البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى د. محمد محمد أبو موسى- مكتبة وهبة- القاهرة- الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- تأويل مشكل القرآن- ابن قتيبة- شرح ونشر السيد أحمد صقر- دار التراث- القاهرة- الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.

• التحرير والتنوير- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور- الدار التونسية للطبع والنشر- تونس.

• تحفة الأشراف في غوامض الكشاف- يحيى بن قاسم العلوى- تحقيق الجزء الأول د. إبراهيم التلب مخطوط بكلية اللغة العربية- القاهرة.

• تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد- ابن مالك- ت محمد كامل بركات- نشر دار الكتاب العربى للطباعة والنشر- القاهرة ١٩٦٨م.

• التصوير البيانى- دراسة تحليلية لمسائل البيان. د. محمد محمد أبو موسى- مكتبة وهبة- القاهرة- الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

• التصوير الفنى في القرآن- سيد قطب- دار المعارف- الطبعة التاسعة ١٩٨٠.

• تفسير أبى السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)- أبو السعود العمادى- دار إحياء التراث العربى- بيروت.

• تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)- ابن كثير الدمشقي- نشر المكتبة التوفيقية - الحسين- القاهرة.

• التفسير البياني للقرآن الكريم- الدكتورة عائشة عبد الرحمن- دار المعارف- الطبعة الخامسة.

• تفسير البيضاوى «أنوار التنزيل» -القاضى البيضاوي- بهامش حاشية الشهاب - دار صادر بيروت.

• تفسير الجلالين- جلال الدين السيوطى وجلال الدين المحلى- بهامش الفتوحات الإلهية- عيسى البابى الحلبى.

• تفسير الخازن (لباب التأويل فى معانى التنزيل)- الخازن- دار المعرفة للطباعة والنشر- بيروت.

• تفسير الطبرى- ابن جرير الطبرى- ت. محمود شاكر- دار المعارف- الطبعة الثانية.

• تفسير الفخر الرازى (التفسير الكبير) فخر الدين الرازى- دار الفكر للطباعة والنشر- الطبعة الثالثة- ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

• تفسير القرطبى- أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى- دار الريان للتراث.

• تفسير المنار- السيد محمد رشيد رضا- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

• الجُمَل فى النحو- الخليل بن أحمد الفراهيدي- ت: د. فخر الدين قباوة- مؤسسة الرسالة- الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

• الجنى الدانى فى حروف المعانى- أبو الحسن بن قاسم المرادى- ت. د فخر الدين قباوة وآخر- دار الآفاق الجديدة- بيروت- الطبعة الثانية ١٩٨٣م.

• حاشية الإنبابى على الرسالة البيانية- الشيخ محمد الإنبابى- المطبعة الأميرية ببولاق- الطبعة الأولى ١٣١٥هـ.

• حاشية البغدادى على شرح بانت سعاد لابن هشام- للبغدادى- مخطوطة بدار الكتب المصرية.

• حاشية الدسوقى- محمد بن عرفة الدسوقى- بهامش شروح التخليص- دار الكتب العلمية- بيروت لبنان.

• حاشية السعد على الكشاف- السعد التفتازانى- تحقيق الجزء الأول د. عبد الفتاح البربرى- مخطوط بكلية اللغة العربية- القاهرة.

تحقيق الجزء الثانى د. فوزى السيد عبد ربه- مخطوط بكلية اللغة العربية- القاهرة.

• حاشية السيد على الكشاف- السيد الشريف الجرجانى- مع تفسير الكشاف- مصطفى البابى الحلبى- القاهرة ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.

- حاشية السيد على المطول- السيد الشريف الجرجانى- على هامش المطول- مطبعة أحمد كامل- القاهرة ١٣٣٠هـ.
- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى- شهاب الدين الخفاجى- دار صادر- بيروت.
- حاشية القطب التحتانى- قطب الدين الرازى- ت. د. إبراهيم الجعلى- مخطوط بكلية اللغة العربية- القاهرة.
- الحجة فى علل القراءات السبع- أبو على الفارسى- ت. على الجندى ناصف وآخرين- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب- عبد القادر بن عمر البغدادى- ت. عبد السلام هارون- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ط٢- ١٩٧٩م.
- دراسات لأسلوب القرآن الكريم- الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة- مطبعة حسان- شارع الجيش- القاهرة.
- درة التنزيل وغرة التأويل- الخطيب الإسكافى- دار الآفاق الجديدة- بيروت- الطبعة الثانية ١٩٧٧م.
- دلائل الإعجاز- الإمام عبد القاهر الجرجانى- تعليق محمود شاكر- مكتبة الخانجى بالقاهرة.
- دلالات التراكيب- د. محمد محمد أبو موسى- مكتبة وهبة- الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.
- رصف المبانى فى شرح حروف المعانى- أحمد بن عبد النور المالقى- ت.د أحمد الخراط- دار القلم- دمشق. ط ثانية- ١٩٨٥م.
- روح المعانى- محمود شكرى الالوسى- دار إحياء التراث العربى- بيروت.
- شرح أبيات سيبويه- أبو سعيد السيرافى- ت. محمد على الريّح هاشم- نشر مكتبة الكليات الأزهرية ودار الفكر للطباعة ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

- شرح ديوان الحماسة- أبو على أحمد بن محمد المرزوقى- نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون- مطبعة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة ط ثانية.
- شرح الفوائد الغياثية- عصام الدين أحمد بن مصطفى- الشهير بطاشكبرى زاده- دار الطباعة العامرة ١٣١٢هـ.
- شرح الكافية- الإمام رضى الدين محمد بن الحسن- دار الكتب العلمية- بيروت.
- الشيخ عبد الرحمن تاج وبحوث قرآنية ولغوية- جمعها أبو بكر عبد الرازق- المكتب الثقافي للنشر والتوزيع- الطبعة الأولى ١٩٩٠م.
- صحيح البخارى- جمع محمد بن إسماعيل الجُعْفِىّ البخارى- مطبعة مصطفى البابى الحلبى- ١٣٧٢هـ- ١٩٥٣م.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز- يحيى بن حمزة العلوى- دار الكتب العلمية- بيروت ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.
- عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك- محمد محيى الدين عبد الحميد- المكتبة العصرية- بيروت.
- عروس الأفراح- بهاء الدين السبكى- ضمن شروح التلخيص- دار الكتب العلمية- بيروت.
- عمدة القارى- شرح صحيح البخارى- الإمام بدر الدين العينى- مكتبة مصطفى البابى الحلبى- الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- فتح البارى بشرح صحيح البخارى- الإمام ابن حجر العسقلانى- دار إحياء التراث العربى- بيروت.
- الفتوحات الإلهية- سليمان بن عمر الشهير بالجمل- مطبعة عيسى البابى الحلبى.

- فتوح الغيب فى الكشف عن قناع الريب- الطيبى- مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٧٣ تفسير تيمور.
- الفرائد فى شرح الفوائد- محمود بن محمد الجونفورى- المطبعة المجيدية ١٣٣١هـ.
- فقه اللغة وسر العربية- أبو منصور الثعالبى- ت- مصطفى السقا وآخران- مصطفى البابى الحلبى ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.
- فى ظلال القرآن- سيد قطب- دار الشروق الطبعة الثالثة عشرة ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
- كتاب سيبويه- أبو بشر عمرو بن عثمان ت. محمد عبد السلام هارون- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل- جار الله الزمخشرى- مصطفى البابى الحلبى- القاهرة- ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- كشف الكشاف- سراج الدين عمر الكنانى الفارسى- ت. محمد محمود عبد الله السلمان- مخطوط بكلية اللغة العربية- القاهرة.
- الكليات- أبو البقاء الكفوى- منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى- دمشق ط. ثانية ١٩٨١م.
- لسان العرب ابن منظور- ت عبد الله على الكبير وآخرون- دار المعارف.
- المثل السائر- ضياء الدين بن الأثير- ت. د. أحمد الحوفى ود. بدوى طبانة -مكتبة نهضة مصر- الفجالة.
- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز- ابن عطية الأندلسى- ت المجلس العلمى بفاس. بدأ طبع الجزء الأول ١٣٩٥هـ. وانتهى الجزء الأخير ١٤١١هـ.

● المصباح فى شرح المفتاح- السيد الشريف- ت. د فريد النكلاوى- مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة.

● المطول- سعد الدين التفتازاني- مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ.

● معانى القرآن- أبو زكريا الفراء:

الجزء الأول ت. أحمد يوسف نجاتي ومحمد على النجار- الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٧٠م.

الجزء الثانى ت. محمد على النجار- الدار المصرية للتأليف والترجمة.

الجزء الثالث ت. عبد الفتاح إسماعيل شلبى- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م.

● معانى القرآن- الأخفش الأوسط- ت. د. فائز فارسى- المطبعة العصرية- الكويت ١٤٠٠هـ- ١٩٧٩م.

● معانى القرآن وإعرابه- أبو إسحاق الزجاج- ت. د. عبد الجليل شلبى- منشورات المكتبة العصرية- بيروت. صيدا.

● معجم الأدوات والضمائر فى القرآن الكريم- ت.د. إسماعيل أحمد عمايرة ود. عبد الحميد مصطفى السيد- مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م.

● معجم مقاييس اللغة- أحمد بن فارس- ت. عبد السلام هارون- دار الكتب العلمية- إيران.

● مغني اللبيب- ابن هشام الأنصارى- ت. محمد محيى الدين عبد الحميد- نشر مكتبة ومطبعة محمد على صبيح.

● مفتاح العلوم- أبو يعقوب السكاكى- مصطفى البابى الحلبى- الطبعة الثانية ١٤١١هـ- ١٩٩٠م.

● المفردات فى غريب القرآن- الراغب الأصفهانى- مصطفى البابى الحلبى- ١٩٦١م.

● المقتصد فى شرح الإيضاح- عبد القاهرة الجرجانى- ت.د. كاظم بحر المرجان- منشورات وزارة الثقافة والإعلام- العراق ١٩٨٢م.

● ملاك التأويل- ابن الزبير الأندلسي الغرناطى- ت د. محمد محمود كامل- دار النهضة العربية- بيروت- ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

● من بلاغة القرآن- أحمد أحمد بدوى- دار نهضة مصر للطباعة والنشر- الفجالة.

● مواهب الفتاح- ابن يعقوب المغربى- ضمن شروح التلخيص- دار الكتب العلمية- بيروت.

● نتائج الفكر في النحو -أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد السهيلى- ت. د محمد إلبنا- دار الرياض للنشر والتوزيع.

● نهاية الإيجار فى دراية الإعجاز- الإمام فخر الدين الرازى- دراسة وتحقيق د. أحمد حجازى السقا- المكتب الثقافى للنشر والتوزيع- القاهرة. ط ١ ١٩٨٩م.

● الواو ومواقعها فى النظم القرآنى- د. محمد الأمين الخضرى- رسالة دكتوراه- مخطوطة بكلية اللغة العربية- القاهرة.

فهرس الموضوعات

الفصل الأول

مواقع الفاء وأسرارها

(٢٣: ١٥٣)

الفصل الثانى

مواقع ثم وأسرارها

(١٥٤: ٢٦٣)

الفصل الثالث

التعقيب والمهلة في مشتبه النظم